طوني مفرّج

موسوعة المجتمعات الدينية في الشرق الأوسط

موسوعة المجتمعات الدينية
في الشرق الأوسط

نوبـيـلـيس
الأشرفـيّة – بيروت – لبنان

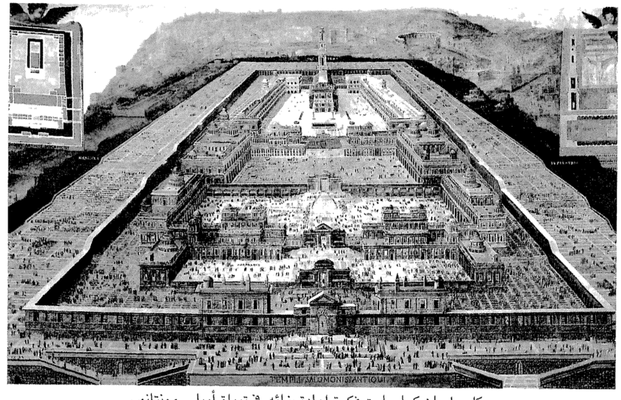
الطبعة الثانية ٢٠٠٣

طوني مفرج

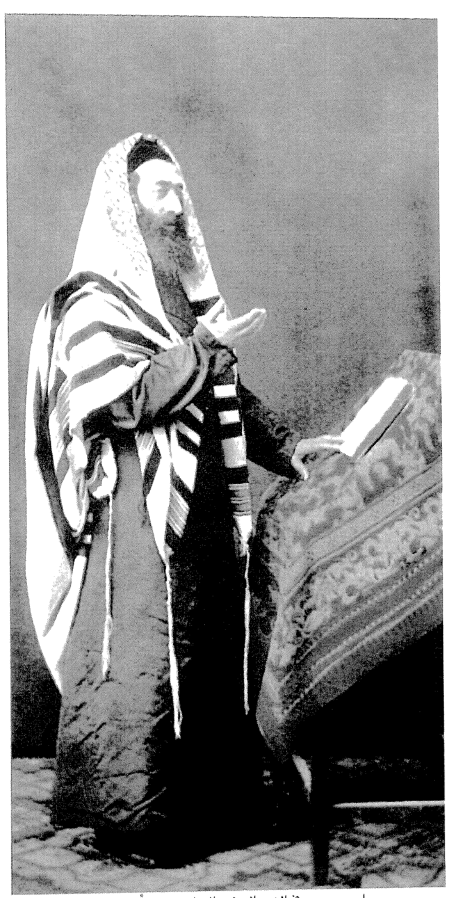
موسوعة

المجتمعات الدينية في الشرق الاوسط

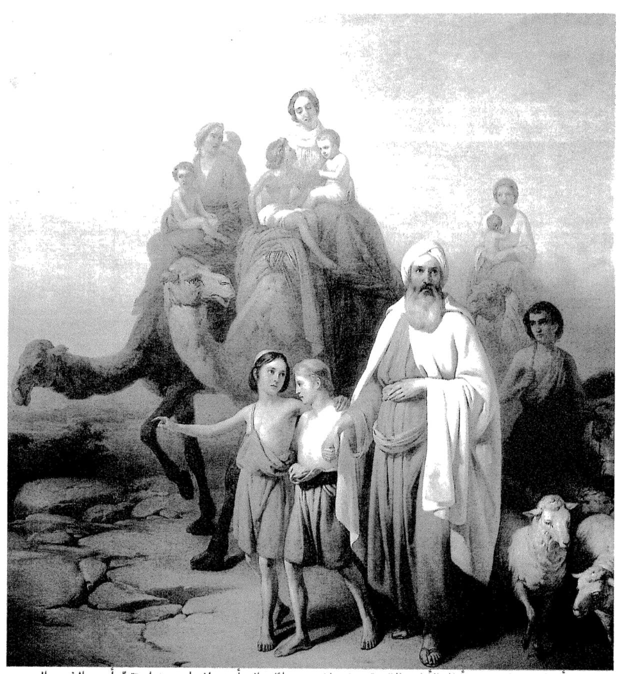
نوبليس



هيكل سليمان كما جاءت فكرة اعادة بنائه في توراة أرياس مونتانوس



رابي يهودي في الزي الديني التقليدي يقرأ في التوراة



ابراهيم أب الشعب اليهودي، أطاع الأوامر الالهية وترك بلاده مع عائلته الى أرض الميعاد حيث استقرّ وأسس الشعب اليهودي

لوحة لجوزف مولنار ١٨٥٠ تمثل رحيل ابراهيم نحو بلاد كنعان



حائط المبكى

مقدّمة

يعتبر بعض المعنيّين بتحديد مضامين أسماء المناطق أنّ الشّرق الأوسط، إسم يطلق على مجموعة متجاورة من مناطق آسية الجنوبيّة وغيرها، وهي المناطق التي تشكّل اليوم أراضي كلّ من تركية وإيران والعراق وفلسطين بشقّيها العربيّ والإسرائيليّ والمملكة الأردنيّة الهاشميّة ولبنان وسورية وشبه الجزيرة العربيّة (المملكة العربيّة السعوديّة واليمن وعُمان واتحاد الإمارات العربيَّة وقطر والكويت والبحرين) إضافة إلى السودان ومصر. ويتعدّاها عند البعض إلى دول المغرب العربيّ، وعند البعض الآخر إلى أفغانستان والباكستان.

أمّا هذه الموسوعة التي حاول مؤلّفها أن يعالج موضوع التعريف بالمجتمعات الدينيّة في منطقة لم تشهد مثلها منطقة أخرى في العالم تعاقب تفاعلات متلاحقة ومستمرّة للمجتمعات الدينيّة الإبراهيميّة الثلاثة بطوائفها المتعددة، فتتناول في بحثها، الشرق الأوسط بمفهومه الواسع، وليس الأوسع. أي أنّها تشمل الدول الناطقة باللغة العربية جميعاً، إضافة إلى تركية وإسرائيل وإيران.

يتّضح من تسمية الموسوعة: المجتمعات الدينيّة في الشرق الأوسط، أنّ واضعها اتّخذ من المجتمع الدينيّ موضوعاً رئيسيّاً للدراسة والتعريف. ولقد تناولت المعالجة، في تسلسل تاريخيّ، النواحي العرقيّة والدينيّة والفكريّة والاجتماعيّة والحضاريّة والسياسيّة في كل من تلك المجتمعات.

من الطبيعيّ أن يكون لوضع هذه الدراسة الشاملة في إطار موضوعيّ عنوانه «المجتمع الدينيّ»، ما يبرّره، وما يشكّل باعتقاد واضعه أهميّة كبرى، كيما يبذل كل ما بذله من مجهود في سبيل أن ينصف الموضوع حقّه من المعالجة قدر المستطاع، وإن كان لا يدّعي أنّه ابتكر، أو أنّه وضع نقطة الختام لموضوع يتطلّب من البحث والدرس والتمحيص ما يستحيل على فرد أن يقوم به.

يمكن إختصار المبرّر والهدف لهذا الإختيار الموضوعيّ، باعتقاد صاحبهما، بأنّ المكتبة العربيّة ما زالت تفتقر إلى الأبحاث المجرّدة الشاملة حول موضوع المجتمعات الدينيّة، الذي كثيراً ما جاءَت الأبحاث فيه متحيّزة سلباً أم إيجاباً، حسب انتماء واضعها وميوله. ومع أنّ أحداً لا يستطيع أن يتجرّد تماماً من تأثير انتماءاته وميوله الشخصيّة على ذهنه مهما أراد ذلك، فإنّ ما يمكن تأكيده هو أنّ المؤلّف قد سعى واعياً للتجرّد في وضعه هذه الدراسة. أمّا الشمول فقد جاء موفّقاً من حيث ضمّه مجتمعات جميع الأديان الإبراهيميّة الثلاثة: اليهوديّ والمسيحيّ والإسلاميّ، بجميع طوائفها ومللها ومذاهبها. والهدف الحضاريّ من هذا العمل، إنّما هو الإعتقاد بأنّ الإنسان عدوّ ما ومن يجهل. وإذا ما أردنا التغلّب على روح العداء عند البعض تجاه البعض الآخر، فلا بدّ لنا في بداية المحاولة من تعريف البعض على البعض الآخر، بشموليّة وعمق وصدق وتجرّد. هذا التعارف، لا بدّ له من أن يؤدّي رسالة تواصل خيّر بين هذه المجتمعات، التي فرضت على كلّ منها ظروف معيّنة في صراعها من أجل البقاء، أو من أجل المعتقد، أو من أجل الحريّة أو الكرامة أو العدالة بمفهومها الخاص، أن تأخذ لنفسها موقفاً مناهضاً أو معادياً لموقف الآخر أو مواقف الآخرين أو بعضهم. ومتى أدرك الآخر حقيقة تلك الظروف، غدت إمكانيّة التواصل الفكريّ والاجتماعيّ والسلميّ متاحة أكثر.

في هذه الحقبة من الزمن، التي لم يكن موضوع المجتمعات الدينيّة في الشرق الأوسط موضع اهتمام، وتفاعل، وخطورة بالقدر الذي هو عليه الآن، تأتي هذه المحاولة المجرّدة إلاّ من إرادة التفاهم بين الشعوب من أجل إحلال السلام مكان هدر الدماء، والتواصل محل التصادم. وإذا كان قد قيل إنّه لا يمكن فهم الحاضر إلاّ بعد دراسة الماضي، وهذا حقّاً صحيح، فإنّه يمكن القول أيضاً إنّه لا يمكن سياسة المجتمعات نحو السلام والوئام توخيّاً لسعادة البشر ورخائهم، من دون أن ترتكز أركان السياسة على المعرفة. عسى أن يؤدّي هذا العمل رسالته في هذا المضمار.

الذوق في ٨ كانون الثاني ١٩٩٥

طوني مفرّج

الفهرس العام

المجلّد الاول: اليهود

المجلد الثالث: المسيحيّون - ٢ -.

المجلد الرابع: السنّة.

طوني مفرج

مَوسُوعَة

المجتمعات الدينية في الشرق الاوسط

المجلد الاول

اليهود

نوبليس

محتوى المجلد الاول

المجلّد الاول: اليهود

الفصل السابع: بين اليونان والرومان.

الفصل الثامن: يهود الشتات (دياسپورا).

الفصل التاسع: اليهود في ظلّ المسيحيّة فالإسلام.

الفصل العاشر: دولة إسرائيل.

الفصل الأوّل

الساميّون في الهلال الخصيب

- الساميّون
- الأموريّون
- الكنعانيّون الفينيقيّون
- الآراميّون
- العبرانيّون

الساميّون

اشتقّ اسم الشعوب الساميّة من سام ابن نوح، على أساس أنّ الساميّين هم من سلالة الابن الاكبر لنوح. وكان لسام أخوان اثنان، هما: حام، والأصغر: يافث. وقد قسّم نوح، بعد الطوفان، الأرض بين أبنائه الثلاثة. فكانت بلاد إفريقية وبعض آسية من نصيب حام، الذي لعنه أبوه فيما بعد بسبب سوء سيرته، بقوله: «ملعون حام عبد عبيد يكون لإخوته[1]» فجاء نسله أسود، وهؤلاء هم الحاميّون، كما يُستخلص من التوراة. أمّا ثالث أبناء نوح، فكانت قسمته بلاد آسية الصغرى وأوروبة، وإليه تُنسب الشعوب الآريّة، أو الهندو أوروبيّة، وأولئك هم اليافثيّون. وكان نصيب سام، البلاد التي أصبحت مهد الحضارة في الشرق والعالم، والتي تنتسب شعوبها إليه، وأهمّها: الأموريّون، والكنعانيون ـ الفينيقيّون، والآراميّون، والأشوريّون، والعبرانيّون، والعرب، وغيرهم، إضافة إلى من تحدّر منهم. ومثلما لعن نوح ولده حاماً، بارك ولديه ساماً ويافث بقوله:« مبارك سام، ويُكثر الله يافث، ويحلّ يافث في مسكن سام[2] »

وبحسب التوراة، كان لسام خمسة بنين: عيلام، وقد استوطن جنوبيّ بلاد العجم؛ وأشور، ومنه الأشوريّون؛ وأرفكشاد، الذي توطّن بلادَ ما بين النهرين، ومن نسله سوف يظهر إبراهيم الخليل والعبرانيّون والعرب؛ ورابع أبناء سام، اسمه لود، وإليه انتَسب اللوديّون في برّ الأناضول؛ أمّا خامس أبناء نوح، فكان آرام، الذي كان محلّه في بلاد ما بين النهرين، التي سمّيت باسمه: سهل آرام[3] . وإذا اتّبعنا الأبحاث العلميّة العصريّة التي فضّلت الأثر الملموس على مدوّنات التوراة لتشير بالدلالة المحسوسة الى ما يستخلصه علم التاريخ، نجد أنّ التسمية الساميّة، من هذه الوجهة، هي تسمية لغويّة تُطلق على الذين تكلّموا، أو يتكلّمون، لغة

---

١ ـ سفر التكوين، ٩ : ٢٥

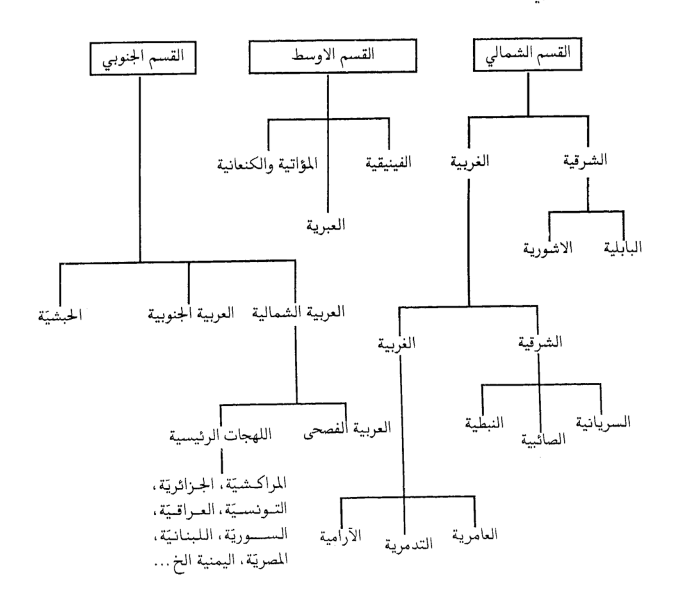
٢ ـ سفر التكوين، ٩ : ٢٦ ـ ٢٧

٣ ـ راجع: سفر التكوين، ١٠ : ٢٢ ـ ٢٣

ساميّة[1]. واللغات الساميّة كما يُعرّف بها الأخصائيّون، هي المجموعة التي تضمّ: الأشوريّة ـ البابليّة، والكنعانيّة ـ الفينيقية، والآراميّة ـ السريانيّة والعبريّة والعربيّة والحبشيّة. وتبدو «في لغات هذه المجموعة نواح من التشابه تستلفت النظر وتختلف عن المجموعات اللغويّة الأخرى، وأقربها إليها المجموعة الحاميّة. وأهمّ نواحي التشابه ضمن هذه المجموعة اللغويّة هي: وجود فعل ثلاثيّ كمصدر أساسيّ، ووجود زمنين للفعل هما الماضي والمضارع، وتصريف الفعل يتبع نفس الأسلوب. وفي جميع لغات المجموعة الساميّة نجد تشابهاً بين الكلمات الأساسيّة،

---

١ ـ اللغات الساميّة



كالضمائر الشخصيّة، والأسماء التي تدلّ على القرابة، والأعداد، وأعضاء الجسم الرئيسية[1] ».

ويستنتج الباحثون، من خلال التشابه القائم في المؤسّسات الإجتماعيّة، والعقائد الدينيّة، والصفات النفسيّة، والأوصاف الطبيعيّة، عند الشعوب التي تتكلّم اللغات الساميّة المتشابهة، أنّه لا بدّ من أن يكون « أسلاف الذين تكلّموا البابليّة والأشوريّة والأموريّة والكنعانيّة والعبريّة والآراميّة والعربيّة والحبشيّة، قد شكّلوا، غالباً، جماعة واحدة قبل أن تحصل بينهم هذه الإختلافات، وأنّ هذه الجماعة كانت تتكلّم اللغة نفسها وتعيش في المكان نفسه[2] ».

هذا الاستنتاج البديهيّ، يعود بالباحث إلى المؤرّخين القدماء، وإلى التوراة، على ما في ذلك ممّا يشبه الأساطير أكثر ممّا يشبه التأريخ الحديث، ذلك إذا أراد أن يتوسّع في تسلسل الأسر الساميّة وفي رسم علاقاتها العرقيّة ببعضها. وبذلك يُستخلص من تلك المدوّنات أنّ تلك الشعوب قد سكنت في بداية عهدها أرض الجزيرة العربيّة. وقد ميّز العلماء بين كلمة "ARABIANS" للدّلالة على سكّان شبه الجزيرة، وكلمة "ARABS" للدّلالة على جميع الشعوب التي تتكلّم العربيّة، وإن كانت أحياناً قوميّتها فارسيّة أو عراقيّة أو سوريّة أو غيرها، حيث اقتبست اللغة العربيّة بنتيجة الفتح الإسلاميّ، وأصبح معظمها مسلماً[3].

هذه المنطقة من العالم، تشكّل شبه جزيرة طبيعيّة، تبلغ مساحته ما يقارب المليون ميل مربّع، وتمتدّ هذه المساحة بين البحر الأحمر الذي يحدّها من الغرب، وخليج عدن وبحر العرب الذي يفصلها من ناحية الجنوب عن الهند، وخليج عُمان والخليج العربيّ اللذين يحدّانها من الشرق والشمال الشرقيّ. ويتّصل شبه الجزيرة هذا بالبرّ من الشمال حيث تحدّه أراضي العراق والأردن، كما يرتبط بإفريقية عن

---

١ ـ د. فيليب حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، دار الثقافة (بيروت ١٩٥٨)ج١، ص٦٦

٢ ـ المرجع السابق، ص ٦٧

٣ ـ راجع: Hitti, History of the Arabs, 4th ed. (London, 1949) P. 43, n. 3

طريق شبه جزيرة سيناء إضافة إلى البحر الأحمر، ويقتصر اتّصاله بآسية على طريق البحر. ويضمّ شبه جزيرة العرب: المملكة العربيّة السعوديّة بما فيها الحجاز ونجد وعسير، والأحساء، ثمّ اليمن وحضرموت، ومشيخات عُمان وقطر والبحرين والكويت، وتُعتبر جزيرة سومطرة الواقعة على مسافة ٢٢٠ ميلاً من الساحل الجنوبيّ الشرقيّ لشبه الجزيرة، جزءاً من شبه الجزيرة، لأنّها ترتبط به سياسيّاً وعرقيّاً[١]. ورغم أنّ الواقع الجغرافيّ قد جعل من هذه البقعة «شبه جزيرة»، فقد قضى الإختصار بأن تُعرف بالجزيرة.

بالإمكان رسم خريطة جزيرة العرب بدءاً من الغرب، حيث تمتدّ مرتفعات تشرف على البحر الأحمر، ثمّ تأخذ هذه المرتفعات بالانخفاض تدريجاً نحو الشرق، حيث تتّصل بسلسلة مرتفعات تمتدّ الى بلاد الشام والى اليمن جنوباً، بموازاة البحر الأحمر، وتقترب منه في مواضع عدّة. ويبلغ متوسّط ارتفاع هذه السلسلة نحواً من خمسة آلاف قدم، أمّا أقصى ارتفاع لها فيبلغ ١٢٣٣٦ قدماً عند جبال السّراة في اليمن. وتكمل هذه المرتفعات امتدادها من اليمن بمحاذاة الساحل نحو الشرق حتّى تنتهي في عُمان، حيث ينتصب الجبل الأخضر بقممه التي يبلغ ارتفاع بعضها عشرة آلاف قدم.

هذه المرتفعات المتّصلة، تكوّن بسلسلتها حاجزاً يصدّ الأبخرة المتصاعدة من البحر الأحمر وبحر العرب عن الأراضي الصحراويّة الواقعة وراءها على طول امتدادها، فتحول دون سقوط الأمطار بوفرة في أواسط بلاد العرب[٢].

تتكوّن أكثر أراضي جزيرة العرب من صحاريّ تتخلّلها واحات. وتقسم أراضيها الصحراويّة الى قسمين: الأوّل يشتمل على أراضٍ بركانيّة، وتسمّى «حرّة»، وجمعها «حرار»، وهي تكثر في الأقسام الغربيّة من الجزيرة، وتمتد حتّى تتّصل بالحرار من بلاد الشام في منطقة حوران. والحرار موجودة أيضاً في المناطق الوسطى من الجزيرة وفي المناطق الشرقيّة من نَجد، وفي المناطق الجنوبيّة الغربيّة

---

١ - دائرة المعارف البريطانيّة، (طبعة ١٩٦٥)، ج ٢، ص ١١٦

٢ - راجع: الدكتور جواد عليّ، تاريخ العرب قبل الاسلام، (المجمع العلمي العراقي)، ج ٢، ص ٨٧

قرب باب المندب، وعند عدن؛ ومن أهمّ مناطق الحرار هذه، المدينة المنوّرة وخيبر. هذه الحرار، هي نتيجة لثوران البراكين الذي توقّف هناك منذ القرن الثالث عشر الميلاديّ، فكان آخر حدث بركانيّ قد سُجّل في الحجاز سنة ٦٥٤ هـ / ١٢٥٦م.
أمّا القسم الثاني من صحاريّ الجزيرة، فيشتمل على الدهناء، وهذه تتكوّن من مساحات شاسعة من الأراضي الرمليّة، تمتدّ من الجوف شمالاً إلى حضرموت ومهرة جنوباً، والى اليمن غرباً وعُمان شرقاً، وفيها كثبان من الرمال على ارتفاعات مختلفة، تنتقل غالباً مع الرّياح. وفي هذه الأراضي مياه جوفيّة، كما تسقط الأمطار الموسميّة في بعض أجزاء هذا القسم، الذي تكثر فيه أيضاً العواصف الرمليّة وترتفع درجات الحرارة جدّاً في الصيف. وإن الأقسام الجنوبيّة من الدّهناء، هي تلك التي أصبحت تعرف اليوم بالرُّبع الخالي، لخلوّها من النّاس، وهي كانت تُعرف قبلاً بمغارة صيهد. وفي الجنوب الغربيّ من الرّبع الخالي منطقة رمليّة واسعة تُعرف بمنطقة «الأحقاف»، وقد اقترن اسمها في التاريخ العربيّ بقوم عاد.

وفي الجزيرة عدّة أودية تعبرها المياه وتجري فيها السيول في موسم الأمطار، ثمّ تفيض مياهها في الرّمال فتكوّن بعض واحات، واكبر هذه الأودية وادي الرمّة، ووادي الحمض، ووادي حنيفة، ووادي الدواسر، ويُعتقد أنّ هذه الأودية كانت في الأزمنة القديمة أنهاراً كبيرة، إلاّ أنّ الجفاف الذي حلّ بالبلاد أثّر تأثيراً كبيراً في طبيعة الجزيرة، ممّا أدّى إلى انقطاع المياه الدائمة عنها، فصارت تعتمد على مياه السيول في موسم الشتاء.

وفي وسط الجزيرة، تقع منطقة نَجد، وهي هضبة يبلغ ارتفاعها نحو ٢٥٠٠ قدم، يقع فيها جبل شمّر وجبل طويق الى الجنوب، وتعبره مدينة الرّياض الى جهته الشماليّة الشرقيّة، وفي هذه المنطقة ينابيع عديدة تُستغلّ مياهها في الزراعة[١].

١ ـ المرجع السابق، ص ٩٠؛ راجع: الدكتور أحمد سوسه، العرب واليهود في التاريخ، الطبعة السابعة، العربي للطباعة والنشر (دمشق) ص ٢٦١ ـ ٢٦٥

يعتبر الرأي العلميّ السائد أن جنوب جزيرة العرب هذه، هو الوطن الأمّ «لهذا الجنس من البشر المعروف الآن باسم الساميّين، وكان هؤلاء الساميّون قد هجروا جنوب الجزيرة العربيّة بعد إضطرارهم إلى ترك منازلهم القديمة، بسبب الجفاف الذي ظهرت بوادره بعد العصر الحجري القديم الأعلى (الباليوليثي) الذي يبدأ قبل حوالى ٣٥ ألف سنة، وتوجّهوا نحو الشمال، إلى أطراف الهلال الخصيب[١] في موجات متعاقبة[٢]».

وإذ يردّ الباحثون أسباب هذه الهجرات إلى أنّ جفافاً بطيئاً قد طرأ على بقعة الجزيرة رافقه اشتداد في حرارة الجوّ ونضوب المياه الجارية، ممّا حمل السكّان على الهجرة عبر موجات متتالية، يقول أحد علماء التاريخ المستشرقين[٣] إنّ جزيرة العرب كانت تتمتّع بمناخ معتدل وأمطار غزيرة وأشجار وزروع، ثمّ أخذت تتقهقر وتفقد رطوبتها واعتدال جوّها وأسباب العيش فيها منذ أكثر من أربعة عشر ألف سنة، وإذ كان هذا التقهقر بطيئاً جدّاً، فإنّ تأثيره في حياة السكّان لم يكن فجائياً، بل كان مطّرداً تبعاً للقلّة في الأمطار وارتفاع حرارة الجوّ؛ ... ولمّا اشتدّت الحالة بهم ونفد صبرهم من الفاقة والجوع والعطش، بدأوا يهاجرون قبل حوالى خمسة آلاف سنة من تاريخ مولد السيّد المسيح، كما تدلّ الاكتشافات الأثريّة، وهذا لا ينفي إمكانيّة حصول هجرات مماثلة قبل ذلك التاريخ، وإنّ الأسباب

---

١ - «الهلال الخصيب» تسمية أطلقها المؤرّخ «برستد» على البقعة الجغرافيّة التي تشكّل على الخريطة قوسا تقوم قاعدته الاولى على زاوية افريقية الشماليّة، وقاعدته الثانية على الخليج الفارسي.

٢ - **Philby** (H. St. J. B.) "*The Background of Islam - Being a sketch of Arabian history in Pre - Islamic Times*", (Alexandria, 1947) P. 9, راجع أيضــا SAYCE (A. H.), Assyrian Grammar, (Oxford, 1872) P. 13; BARTON (G. A), Semitic, and Hamitic origins (N.Y. 1934), P. 4; DE GOEJE, Het Varderland der semitiche Volken, (Leyden, 1882) P. 5; C.BROCKELMAN, Grundriss der vergleichenden der semitichen sprache, (Berlin, 1908) v. 1, P. 2; KING (L. W.), History of Summer and Akkad, (London, 1915) P. 119; MEYERS (J. L.), in cambridge Ancient history, (Cambridge, 1923) v. 1, P. 38; Cook (S. A), in Cambridge Ancient history, V. 1, P. 192; NIELSEN (D.), Handbuck der Alt arbischen Allerumskunde, (Kopenhagen, Paris, Leipzig, 1927) PP. 47 - 55; WRIGHT, Lectures on the semitic Languages, (Cambridge, 1890), P. 8; CONTENAU (G.), Manuel d'archéologie orientale, la civilisation d'Assuret babylone, P. 43

٣ - LEONE CAETANI: مستشرق ومؤرّخ إيطالي درس الشرق موضعياً، انظر مجلّة المشرق، ج ١٢.

المناخيّة نفسها هي التي حملت الأقوام على هجرة موطنهم الأوّل وتركه إلى وطن أفضل منه جوّاً ورطوبة، وهي نفسها التي أدّت إلى الهجرة العامّة في ما بعد[1]. وقد أيّد علماء المناخ إجمالاً النظريّة القائلة بأنّ الجزيرة العربيّة كانت تتمتّع بأمطار منتظمة، عندما كان شمال أوروبة مغطّى بطبقات الثلوج إلى مسافات بعيدة وصلت إلى «الهازر». كما أنّ مجمل المدوّنات، من توراتيّة، وقرآنيّة، وتاريخيّة، يؤكّد هذه النظريّة. وتنتهي الدراسات العلميّة إلى اعتبار أنّ مناطق الشرق، بما فيها صحاريّ إفريقية وآسية، كانت، في الدورة الجليديّة الأخيرة الممتدّة بين حوالى سنة ٤٠ الفاً وسنة ١٨ ألفاً قبل الميلاد، تتمتّع بالأمطار الغزيرة والطقس البارد الرطب، أمّا اليوم، ونحن نجتاز الدورة المناخيّة الدافئة ذات الطقس الحارّ والجافّ نسبيّاً، وهي الدورة التي بدأت حوالى سنة ١٨ ألفاً قبل الميلاد، فقد تكوّنت فيها الصحاريّ، مما جعل أهل الجزيرة ينزحون عن موطنهم[2].

الأموريّون

كان الهلال الخصيب أقرب مكان لسكّان الجزيرة النازحين الباحثين عن الخصب، وقد اتّجهت في حوالى ٣٥٠٠ ق.م. هجرة ساميّة من الجزيرة نحو الشمال الشرقيّ، ووزّعت أفرادها الرحّل بين السكّان السومريّين في بلاد الرّافدين، الذين كانوا في حالة استقرار، وعلى جانب رفيع من الحضارة، وبذلك تشكّل الأكاديّون، الذين عُرفوا فيما بعد بالبابليّين. وعندما تزاوج الساميّون مع غير السّاميّين الذين كانوا قبلهم واختلطوا بهم في منطقة دجلة والفرات، فإنّهم اكتسبوا منهم معرفة البناء والعيش في البيوت وزراعة الأرض وريّها، بل اكتسبوا ما هو أهم من ذلك: القراءة والكتابة. وسادت اللغة الساميّة التي حملوها معهم، وأصبحت الواسطة التي

١ ـ CAETANI (L.) Studi de storia Orientale, (Milano, 1911) P. 63

٢ ـ د. أحمد سوسه، ص ٢٨٧ بالاستناد إلى: محمّد مصطفى بازمه، تاريخ ليبيا، (بنغازي ١٩٧٣)

عبّرت بها حضارة الفرات عن نفسها خلال أجيال عديدة. وبعد الهجرة الأولى بنحو ألف سنة، حصلت هجرة أخرى من البادية وأتت بالأموريّين ووزّعتهم في سهول سورية[1] الشماليّة. وشملت هذه الهجرة الشعب الذي احتلّ فيما بعد السهل الساحليّ، وسمّى نفسه بالكنعانيّ، وأطلق عليهم اليونان، الذين تاجروا معهم، اسم فينيقيّين، وبلادهم فينيقية[2] .

إلاّ أنّ بعض الباحثين يرى إمكانيّة أن يكون الأموريّون أقدم شعب ساميّ استوطن سورية الكبرى، وقد بدأ تسلّل قبائل عربيّة بدويّة من شماليّ الجزيرة العربيّة على نطاق واسع حوالى سنة ٢٢٠٠ ق.م.، مع إمكانيّة أن تكون عمليّة التسلّل هذه قد بدأت قبل التاريخ الواضح. وقد انتشرت هذه القبائل في سهول سورية الشماليّة الشرقيّة، وقد اتّجه بعضها غرباً جنوباً إلى شرق الأردن وتلال اليهوديّة وجبال لبنان. أمّا الذين تاخموا البحر فقد عُرفوا بالكنعانيّين ، ومن الكنعانيّين كان الفينيقيّون. واتّجه البعض الآخر شرقاً جنوباً واكتسح بابل، ومنهم كانت سلالة حمورابي الأموريّة. ومع إقرار هؤلاء الباحثين بأنّهم لا يعلمون الشيء الكثير عن هذا الشعب، فهم يذكرون أنّ التوراة تسمّيهم «الشعب الأموريّ» وقد كثر ورود اسمهم في التوراة. فإنّهم، حسب التقليد العبرانيّ، كانوا سكّان فلسطين الأصليّين من لبنان الى حدود مصر. وقد ورد اسمهم أيضاً في النقوش البابليّة بأشكال مختلفة: أمورو، أماري، مرتو. وقد أصبحت لفظة «مرتو» مرادفة للفظة «غرب»، لأنّهم كانوا الى الغرب من البابليّين. ويسمّي المصريون البلاد الواقعة الى شرقيّ فينيقية A-MA-RA ، ويرد في رسائل تلّ العمارنة اسم آمار وآمور،

---

١ - سورية وسوريا، تسمية بابليّة للمنطقة الواقعة غربي الفرات الأعلى والأوسط، ثم أطلق الاسم على الكل، على مبدأ تسمية الكل بجزء منه. وقد سمّاها الاغريق: SYRIA، وسمّاها السريان: سوريا، وفي رسائل أوغاريت SHYRN. (أنيس فريحة، أسماء المدن والقرى اللبنانيّة، - بيروت - ١٩٥٦ - ص XVIII)

٢ - د. حتي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ١، ص ٦٧ - ٦٨؛

راجع: WELLHAUSEN: Die composition des hexateuchs, II, P. 341. الذي يعتبر أنّ الاموريّين هم الكنعانيّون والكنعانيّين هم الاموريّون إنّما التفرقة في الزّمن.

ويقصدون به سهل البقاع، ويشير بعض هذه الرسائل[1] إلى أنّ أمير البقاع هو أمير «أمورو». ويرجّح أصحاب هذا الرأي أن يكون اسم «الأموريّين» مشتقاً من جذر «أمر» الساميّ، الذي يفيد العلوّ والارتفاع. أمّا عن عاصمتهم، فيذكرون أنّها «ماري» الواقعة جنوبي مصب الخابور على الفرات، وهي اليوم خرائب تُعرف بتلّ الحريري. وقد دلّت الحفريّات التي أجريت هناك على أنّ لغة الأموريّين لم تكن تختلف كثيراً عن لغة الآراميّين، أي أنّها تنتسب الى الفرع الساميّ الغربيّ[2].

الكنعانيّون ـ الفينيقيّون

الكنعانيّون، حسب التقليد العبريّ، كانوا سكّان فلسطين، والفينيقيّون، سكّان الساحل اللبنانيّ: من أوغاريت[3] إلى جنوبيّ الكرمل. إلاّ أنّه لا يمكن تحديد مناطق الشعبين وفقاً لهذا المنطق، حتّى إنّ التوراة نفسها لم تكن دقيقة لهذه الناحية. فبينما هي تطلق أحياناً لفظة «كنعانيّين» اسماً لسكّان ساحل البحر المتوسّط[4]، تتكلّم أحياناً أخرى عن الكنعانيّين في غور الأردن[5]. وتشمل كنعان، حسب أقوال أخرى في التوراة، البقعة الجغرافيّة الواقعة بين سفوح حرمون وجنوبيّ البحر الميت، وأحياناً أخرى تطلق لفظة كنعان على كلّ الجبال والنجد وحبرون (الخليل) والساحل[6]. وأحياناً تعتبر التوراة اللّسان الكنعانيّ (شفة كنعان) لغة تشمل العبرانيّة والفينيقيّة والموآبيّة[7]، ممّا يدلّ على أنّ كنعان لم تكن الأماكن

---

١ ـ WINCKLER: the Tell-el-Amarna Lettres, (Berlin, 1896).

٢ ـ أنيس فريحة، أسماء المدن والقرى اللبنانيّة، (بيروت ١٩٥٦) ص XVIII- XXX

٣ ـ أوغاريت: هي (رأس شمرا)، مدينة كنعانيّة شمال اللاّذقيّة، سُكنت منذ العهد النيوليتي (الالف السادس ق. م.) ورد اسمها في رسائل تل العمارنة القرن ١٥ ق.م. اكتشفت فيها مخطوطات كثيرة ومهمّة بالحرف المسماري على الفخّار، عُرف القسم الشعري منها بملحمة أوغاريت.

٤ ـ سفر يشوع، ٥ : ١

٥ ـ سفر يشوع، ١١ : ٣؛ سفر العدد، ١٣ : ٢٩

٦ ـ سفر القضاة، ١ : ٩

٧ ـ مؤاب: هضبة في فلسطين شرقي البحر الميت، قاعدة المؤابيّين، منها أشرف موسى على أرض الميعاد من جبل نبو، ومنها انطلق العبرانيّون شمالاً في عهد القضاة؛ ومؤاب، ابن لوط، هو جدّ المؤابيّين الذين قطنوا في مناطق شرق الأردن. وكانت عاصمتهم ربات مؤاب.

المنخفضة في فلسطين، كما يُظنّ، بناء على تفسير جذر «كنع»، من أنّه يعني الانخفاض[1]. كذلك أوردت التوراة لفظة كنعانيّ مرادفة للفينيقيّ[2]، ولفظة فينيقي ذاتها أصبحت، على مرّ الأيّام، مرادفة لكلمة تاجر.

إستنتج الباحثون «من خلال هذه الملاحظات الواردة في التوراة، أنّ الكنعانيّين والفينيقيّين كانوا شعباً واحداً لغة ودينا وحضارة، غير أنّ اللبنانيّين القدماء عُرفوا بالفينيقيّين بعد القرن الثاني أو الحادي عشر ق.م[3]». وأغلب الظنّ، أن اسم فينيقية، قد جاءَ عن طريق الإغريق، وقد اختُلف كثيراً في تفسير معنى اللفظة: الأرجوان، اللون الأحمر، أو الأسمر، نخيل، طائر[4]. وقد اقترح بعضهم «وبتحفّظ، أن تُردّ اللفظة إلى الجذر الساميّ «فنق» ومن معانيه: التنعّم والرفاهية والعيش الهانئ. وإذا تذكّرنا أنّ الفينيقيّين كانوا تجّار العالم القديم، وربابنة المال، فلا عجب إن كان أبناء عمومتهم، الفقراء من حولهم، قد أطلقوا عليهم اسم «المتنعّمين» أو «الأغنياء المترفين[5]». أمّا التوراة، فتسمّي الفينيقيّين أحياناً صيدانيّين، وأحياناً صورانيّين، نسبة لصيدا وصور، ولكنّها لا تسمّيهم فينيقيّين[6].

أمّا أحدث النظريّات في موضوع اسمَي «كنعان» و «فينيقية» فهي تلك التي تقول بأنّ «اسم بلاد كنعان الذي كان يُعتبر حتّى الآن ساميّاً بمعنى الأرض المنخفضة[7] لاختلافها عن مرتفعات لبنان، أصبح الآن مشكوكاً في أصله الساميّ، ويُظنّ أنّه من أصل حوريّ: Knaggi، بمعنى الصباغ الأرجوانيّ، وهذا أعطى الصيغة

---

١ - راجع: إشعيا، ١٩: ١٨

٢ - زكريّا، ١٤: ٢١

٣ - فريحة، ص XXII

٤ - BONFANTE (G.), The name of the Phoenicians, in Classical Philology ,(1941) Vol. 36, P. 1 Seq

٥ - فريحة، ص XXIII

٦ - المرجع السابق.

٧ - CLAUDE R. CONDER, Syrian stone-Lore (London 1896), PP. 2 - 3; AUTRAN (C.)Phéniciens (Paris, 1920), P. 4; LEWIS B. PATON, The Early history of Syria and Palestine, (N. Y. 1901), PP. 68 - 69

الأكـاديّة في نوزي « كناخني Kinakhni » (وفي مسـمـاريّة رسـائل تـل العمـارنة كيناخّي Kinakhkhi) وبالفينيقيّة كنع Kena'، وبالعبريّة كنعان أي بلاد الأرجوان[1].

وفي العصر الذي احتكّ فيه الحوريّون احتكاكاً وثيقاً بساحل البحر المتوسّط، في القرن الثامن عشر أو السابع عشر (ق.م.) كانت صناعة الأرجوان على الغالب الصناعة السائدة في البلاد. وهكذا يصبح اسم فينيقيّ، المشتقّ من اليونانيّة: Phoi-nix، والذي يعني: أحمر أرجوانيّاً، ترجمة للاسم الحوريّ: كنعانيّ. وبعد أن أطلق اليونان هذا الاسم على الكنعانيّين الذين تاجروا معهم، فإنّ كلمة فينيقيّ أصبحت بعد حوالى ١٢٠٠ق.م. مرادفة لكنعانيّ. «ولا بدّ من أنّ هؤلاء الساميّين الذين لا يختلفون عن كثير من الشعوب القديمة الأخرى، كانوا يتألّفون من جماعات تشعر باختلافاتها القبليّة والمحلّيّة أكثر ممّا تشعر بوحدتها القوميّة، وكان عليها أن تنتظر أجنبيّاً ليعطيها اسماً عامّاً [2] ».

الآرامـــــــــيّون

تمثّل جموع الآراميّين الموجة الساميّة الثالثة التي اجتاحت الهلال الخصيب طلباً للماء والمرعى. وقد أُطلقت لفظة آرام في التوراة على سورية، ولفظة الآراميّين على مجموعة كبيرة من القبائل الساميّة التي توطّنت سورية والعراق وشماليّ الجزيرة العربيّة. أمّا أصل التسمـية لهذه القبائل، فيعود إلى أرام ابن سام ابن نوح[3].

بدأ التوغّل الآراميّ نحو بلاد بابل وأرض الشام قبل نهاية الألف الثالث

---

١ - ALBRIGHT (W. F.), T he Role of the canaanites in the history of civilisation, studies in the history of culture (Menasha, 1942), P. 25

٢ - د. حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ١، ص ٨٧

٣ - سفر التكوين، ١٠ : ٢٢ - ٢٣؛ أخبار، ٢، ١ : ١٧؛ راجع: كمال الصليبي، التوراة جاءت من جزيرة العرب، الطبعة الرابعة، مؤسسة الابحاث العربيّة (بيروت ١٩٩١) ص ٢٣٥.

للميلاد، كان ذلك قبل أن تُعرف القبائل الآراميّة بهذا الاسم، إنّما كانت في ذلك العهد السحيق بدويّة تعيش مرتحلة في باديَة شماليّ الجزيرة العربيّة، وقد أغوتها أراضي جيرانها الخصبة، فحاولت التسلّل إليها بقصد امتلاكها. ويؤكّد كبار البحّاثين في هذا المجال أنّه «قبل انتصاف الألف الثاني ق.م. كانت هذه القبائل قد سكنت في ضفاف وادي الفرات الأوسط، حيث نشأت قوميّتها ولغتها[1] ». وقد اقتبس أهل هذه القبائل الكثير عن الأموريّين والكنعانيّين، ولكنّهم استقرّوا على لغة أو لهجة خاصّة بهم. إلاّ أنّهم لم يكتسبوا اسمهم: الآراميّين، حتّى أيّام تغلات فلآسر الأوّل، الملك الأشوريّ (نحو ١١٠٠ ق.م.) حين أقاموا في منطقة الفرات الأوسط حتّى سورية في الغرب[2].

أسّس الآراميّون في هذه المناطق دويلات أو إمارات عديدة، تماماً مثلما فعل سابقوهم من الموجات الساميّة التي لم تتوحّد قبائلها قطّ. وكان أهمّ تلك الدول، آرام دمشق، التي كان مركزها أوّلاً في «صوبا[3] »، وانتقلت الى دمشق في أواخر القرن الحادي عشر، فكانت شبه معاصرة لتأسيس المملكة العبرانيّة، وتطوّرت فأصبحت مملكة كبرى تمتدّ الى الفرات من جهة، وإلى اليرموك من جهة أخرى. وكانت متاخمة للأراضي الأشوريّة في الشمال، والعبرانيّة في الجنوب. وقد أخضعت آرام دمشق لسلطتها قبل العام ١٠٠٠ ق.م. سورية الداخليّة وسورية الشماليّة «ومنطقة دمشق هذه هي التي يعنيها العهد القديم حين يشير إلى آرام أو سورية. وقد كان هؤلاء الآراميّون في سورية خلال قرنين ألدّ أعداء العبرانيّين[4] ».

---

١ ـ د. حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ١، ص ١٧٤.

٢ ـ راجع للمقارنة: EMIL G. H. KRAELING, Aram and Israel (N. Y. 1918), PP. 20 - 22

٣ ـ صوبا، أو صوبة، ورد ذكرها مراراً في التوراة؛ راجع مزمور ٦٠؛ صموئيل الاوّل ١٤ : ٤٧ والثاني، ٨ : ٦؛ وقد اختلف في تحديد موقع صوبة بين قائل بأنّها كانت تقع بين حمص وحماة، وقائل بأنها كانت جنوبي هذه البقعة أي في البقاع، وعاصمتها كانت عنجر الحالية، واسمها القديم Chaleis. وتوهّم بعضهم أن هذه المملكة كانت تقع في بيروت.

٤ ـ د. حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ١ ص ١٧٧

وسنأتي على ذكر الحروب العبرانيّة الآراميّة في مجال البحث تحت عنوان العبرانيّين.

أمّا الدّول الآراميّة الأولى فكانت قد ظهرت في منطقة الفرات الأوسط، وكان منها «آرام نهاريم» الوارد ذكرها ست مرّات في التوراة[١]. وتعريب هذا الاسم: آرام النهرين. والنهران المقصودان هما الفرات، ورافده: الخابور. وآرام نهاريم هذه هي التي تذكرها المصادر المصريّة Naharina أو Naharima، ومعنى الكلمة: القبائل الآراميّة الضاربة عند النهرين[٢] وقد ترجم الإغريق الاسم إلى Mesopotamia أي ما بين النهرين. ويظهر اسم هذه الدويلة الآراميّة تكراراً في الكتابات المسماريّة ابتداءً من أواخر القرن الثالث عشر (ق.م.) ويبدأ بالزّوال ابتداء من نهاية القرن التاسع (ق.م.) إذ كان الأشوريّون قد قضوا على الآراميّين في هذه المنطقة[٣].

ومن الدويلات الآراميّة أيضاً «آرام فدّان» Padam Aram[٤]، التي لم تكن باتّساع آرام النهرين، وهي دويلة القبائل التي كانت ضاربة حول مدينتهم الشهيرة: حرّان، الواقعة على طريق القوافل بين الشمال والجنوب وبين الشرق والغرب. ولفظة «فدّان» بابليّة، معناها النير وسكّة الفلاحة، ثمّ توسّعاً الحقل الزراعيّ، ثم الحديقة الزراعيّة المسوّرة[٥]، وهي لا تزال مستعملة في اللهجات اللبنانيّة العامّيّة.

وفي شماليّ فلسطين، نشأت إمارة آراميّة ذكرتها التوراة باسم «آرام معكة[٦]». و «معكة» الذي تنسب إليه الإمارة: آراميّ من سلالة ناحور أبي الآراميّين وأخي إبراهيم[٧]. كذلك ورد في التوراة ذكر لآرام أخرى كانت تقع بالقرب

---

١ - سفر التكوين، ٢٤: ١٠؛ القضاة ٣: ٨..

٢ - فريحة، ص XXVI

٣ - راجع: ROGER (T.) O'Callagham, Aram Naharain (Rome, 1948), P. 143

٤ - أنظر: سفر التكوين: ٢٥: ٢٠؛ ٢٨: ٥؛ ٣١: ١٨

٥ - فريحة، ص XXVI

٦ - سفر الأخبار الاول، ١٩: ٦

٧ - سفر التكوين، ٢٢: ٢٤

من معكة، هي « آرام جشور[1] »، وقد تزوّج داود ابنة ملكها التي أصبحت « أمّ أبشالوم[2] ».

هذا الشعب الساميّ الثالث الرئيسيّ الذي نزح إلى منطقة الهلال الخصيب من جزيرة العرب بعد الأموريّين والكنعانيّين، فاق توسّع حضارته انتشاره السياسيّ والعسكريّ، ودام إلى ما بعد سيطرته الفعليّة. وقد بلغت الحضارة الآراميّة ذروتها في القرنين التاسع والثامن ق.م. وبلغ الآراميّون في التجارة مركزاً رائداً عن طريقَي البرّ والبحر، كما نشروا لغتهم في مختلف البلدان. وفي منتصف القرن الأخير قبل الميلاد، كانت لغتهم قد أصبحت اللغة العامّة الوحيدة التي يستعملها جميع سكّان الهلال الخصيب. هذه اللغة، قد اكتسحت اللغة العبرانيّة تماماً، واصبحت لسان الشعب اليهوديّ، وهي اللغة التي تكلّم بها السيّد المسيح[3]. وقد تفرّعت اللغة الآراميّة فيما بعد إلى مجموعتين: المجموعة الشرقيّة في وادي الفرات، وتمثّلها المندعيّة والسريانيّة، والمجموعة الغربيّة، وتمثّلها الآراميّة التوراتيّة والترجوم ولهجات شمأل وحماة والتدمريّة والنبْطيّة. وقد أصبحت السريانيّة، وهي لغة أديسّا، لغة الكنائس في سورية ولبنان وبلاد الرّافدين، مع بعض الاختلافات المحلّية. وبقيت الآراميّة لغة البلاد السوريّة طوال عشرة قرون تمتد من القرن الثالث إلى القرن الثالث عشر للميلاد، إذ حلّت اللغة العربيّة محلّها[4]، بفعل الفتوحات الإسلاميّة. وعندما اتّخذ المسيحيّون الآراميّون لهجة أديسّا وجعلوها لغة الكنيسة والأدب والتعامل الثقافيّ، صاروا يُعرفون باسم سريان وسوريّين. وأصبح لاسمهم القديم: الآراميّين، مدلول وثنيّ غير مستحبّ في عقولهم، ولذلك تجنّبوه بوجه العموم، وحلّت محلّه التعابير اليونانيّة، وهي سوريّ Syrian بالنسبة للشعب، وسريانيّ Syriac بالنسبة للغة[5].

---

١ ـ صموئيل، ٢ : ١٥ : ٨؛ يشوع، ١٣ : ١٣
٢ ـ صموئيل٢، ٣ :٣
٣ ـ راجع: CHARLES C. TORREY, Our Translated Gospels (N. Y. 1936)
٤ ـ د. حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ١ ص ١٨٤
٥ ـ المرجع السابق، ص ١٨٥

وقبل أن تبدأ الهجرة الرابعة للشعوب السامّية من جزيرة العرب إلى الهلال الخصيب مع العبرانيّين الذين سوف يحوّلون مركز الأحداث إلى الجنوب، كان الآراميّون قد حوّلوا هذا المركز الى داخل الهلال الخصيب بعد أن شغله الشمال مع الأموريّين، والساحل مع الكنعانيّين ـ الفينيقيّين.

العبرانيّون

بحسب التوراة، ينتسب العبرانيّون إلى عابر، من سلالة أَرْفَكْشاد ابن سام. وقد كان لعابر ولدان، أحدهما: فالج، والثاني: يقطان، الذي تحدّرت منه قبائل اليمن، بما فيها سبأ وحضرموت، وهذه القبائل كانت تُعتبر عبرانيّة نسبة الى عابر المارّ ذكره، أمّا فالج، فمن سلالته إبراهيم الذي كان اسمه «أبرام العبريّ».

تعدّدت المحاولات لتفسير اسم العبرانيّين وتعدّدت الآراء حوله. وقد اعتبر بعضهم أن أسماء: «الخبيرو» و «الهبيرو» و «العبيرو» هي أسماء واحدة[١]، وقالوا بأنّ هذه الكلمة كانت تُطلق على القبائل الرحّل التي كانت تجوب الجزء الشماليّ من الجزيرة العربيّة أيضاً، وبأنّ هذه القبائل انضمّت الى القبائل الآراميّة، و «صارت هذه الكلمات، بعد أن صُحّفت إلى عبريّ وعبرانيّ، تُطلق على أتباع موسى بعد ظهورهم باعتبارهم من القبائل الرحّل، لأنّهم لم يكونوا قد وُجدوا بعد عندما كانت هذه الكلمة تُستعمل لتعني البدو الرحّل، أو المهاجرين العابرين[٢]». غير أنّ هذه الآراء قد رُدّت من قبل العلماء المتضلّعين من اللغات الساميّة ومن تاريخ شعوبها، الذين يؤكّدون على نسبة العبرانيّين التوراتيّة[٣].

---

١ ـ راجع: KLINE (M. G.), The habiree, kin of Israel, west minister Theological jour; vol. XIX (1956), PP. 1 - 24, 170 - 194, VOL. XX (1957) PP. 46 - 70; GELB (I.J.), The Early history of the west semtic peoples, journal of cuneiform studies, vol. 15, (1961), PP. 28 ff.
راجع أيضاً: ولفنسون، تاريخ اليهود في بلاد العرب، (القاهرة ١٩٢٩)

٢ ـ د. أحمد سوسه، ص ١٦١

٣ ـ راجع: الصليبي، التوراة جاءت من جزيرة العرب، ص ٢٣٧ وما يليها

كـان العبـرانيّون، رابع شعب سـاميّ رئيسيّ سكن الهلال الخصيب بعد الأموريّين والكنعانيّين والآراميّين. وكانت هجرة هذا الشعب على دفعات، والظنّ السائد أنّها كانت ثلاث هجرات لم يحدّد تاريخها وظروفها بالضبط، ويُعتقد أنّ الهجرة الاولى التي بدأت من بلاد الرافدين، كانت في القرن الثامن عشر ق.م. وأنّ الهجرة الثانية قد اتّصلت بالآراميّين في القرن الرابع عشر ق.م. أمّا الثالثة، فهي التي أتت من مصر والجنوب الشرقيّ بقيادة موسى ويشوع في أواخر القرن الثالث عشر ق.م[١].

ويعتبر دارسو تاريخ الهلال الخصيب أنّ «الشعب الذي عُرف فيما بعد بالعبرانيّ، أتى افراده بشكل متجوّلين ومغامرين ومرتزقة وجنود لا ارتباط لهم، ثمّ استقروا بالتدريج بين السكّان الذين سبقوهم، إذ كان الكنعانيّون يشكّلون معظم السكّان عندما أتى الروّاد أسلاف الشعب العبرانيّ من بلاد الرافدين، وكان الأموريّون يسكنون المرتفعات التي لم يحتلّها قبلهم أي شعب مستقرّ بصورة كثيفة، وهذا ما أعطى للقادمين الجدد مجالاً للسكن،بينما كانت توجد أقوام أقلّ شأناً في أماكن متفرّقة. وكان هؤلاء السكان الذين سبقوا العبرانيّين في سكن المنطقة قد فاقوا القادمين الجدد في مدنيّتهم، فتعلّم هؤلاءُ منهم حرث الأرض وبناء المنازل وممارسة فنون السلم، وأهمّ من ذلك: القراءَة والكتابة. وقد ترك العبرانيّون لهجتهم الساميّة القديمة واتخذوا اللغة الكنعانيّة لغة لهم. وأصبح العبرانيّون القدماء، بوجه الإجمال، ورثة المظاهر الأساسيّة للحضارة الكنعانيّة المادّيّة وأتباع كثير من العبادات والعادات والصفات الدينيّة الكنعانيّة[٢]».

أمّا قصّة هجرة الروّاد العبرانيّين الأوائل إلى الهلال الخصيب، فتبدأ مع أبي الديانات التي سمّيت بالسّماويّة: إبراهيم.

---

١ - راجع: THEOPHILE J. MEEK, Hebrew origins (N. Y. 1936) PP. 3 Seq.
٢ - د. حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ١ ص ١٩٠ ـ ١٩١.

الفصل الثاني

من إبراهيم إلى يوسف

- إبراهيم الخليل
- إسحق ويعقوب
- يوسف والهجرة إلى مصر

إبراهيم الخليل

هو أبرام[١] بن تارح بن ناحور بن سروج بن رعو بن فالج بن عابر بن شاع بن أرفكشاد بن سام بن نوح، كما ورد في التوراة[٢]. وتدلّ التحقيقات التاريخيّة بشكل عامّ على أنّ إبراهيم الخليل قد ظهر في القرن التاسع عشر قبل الميلاد، وعلى أنّ مولد إبراهيم كان في العراق، رغم اعتبار بعضهم أنّه قد وُلد في منطقة حرّان، إلاّ أنّ رأي هؤلاء يفتقر الى الدليل العلميّ.

إختلفت الروايات في تعيين الموضع العراقيّ الذي وُلد فيه إبراهيم، بين قائل بأنّه «أور الكلدانيّين[٣]»، وقائل بأنَّه «أرك» أو «أوروك» المدينة السومريّة في جنوب العراق[٤]، وقائل بأنّه مدينة كوثي[٥]، التي لا تزال أطلالها قائمة باسم «تلّ إبراهيم» وإلى جانب هذا التلّ مزار يُعرف «بمقام إبراهيم». أمّا بن بطوطة فيذكر أنّ مولده كان في البرس (برس نمرود) حيث يقوم اليوم مزار حديث على تلّ هناك، يعزى إليه أنّه مقام إبراهيم الخليل أو قبره[٦].

كذلك تعدّدت الروايات التاريخيّة حول مولد أبرام، الذي سيصبح اسمه فيما بعد إبراهيم، في ما يشبه الأساطير، إلاّ أنَّ المصدر الأساسيّ، وهو سفر التكوين من التوراة[٧]، يختصر بداية أبرام، بانَّه كان له اخوان هما: ناحور وهاران، وكان لهاران ولد اسمه لوط، وقد مات هاران قبل موت أبيه تارح في مسقط رأسه أور

---

١ ـ ابرام، بالعبريَّة: abh - râm أي الأب رفيع، أو الأب عالٍ.
٢ ـ سفر التكوين، ١١: ١٠ ـ ٢٦.
٣ ـ تقع على انقاضها اليوم «تل المقيّر» جنوب العراق، ويؤكّد التقليد على أن ابراهيم الخليل نزح منها.
٤ ـ هي اليوم: الورقاء، وتُعرف أيضاً بالوركاء.
٥ ـ هي اليوم: تلّ ابراهيم، كانت مركزاً للتعليم الديني في العهد السومري، من أعمال العراق.
٦ ـ راجع: سوسه، ص ٥٥٥.
٧ ـ الاسفار الخمسة الاولى من الكتاب المقدّس، تكوّن ما يسمونه التوراة، والتوراة كلمة عبريَّة معناها «الشريعة». ويُطلق عليها أيضاً اسم «أسفار موسى الخمسة» لأن موسى، بحسب التقليد، هو المشترع الوسيط الذي عن يده حصل إسرائيل على هذه الشريعة.

الكلدانيين، بينما اتَّخذ ناحور له امرأة هي مِلْكة بنت هاران، واتَّخذ أبرام له امرأة اسمها ساراي، وقد قام تارح، ومعه ابنه أبرام وزوجته وحفيده لوط بن هاران، بالرحيل من أور الكلدانيّين بقصد الذهاب إلى أرض كنعان، فجاؤوا إلى حاران وأقاموا هناك، حيث توفّي تارح[1] .

وبينما يذكر سفر التكوين[2] أنّ أوّل كلام قاله الرَّب لأبرام آمراً إيّاه «بالإنطلاق من أرضه مع عشيرته وبيت أبيه إلى الأرض التي يُريه» قد حصل في حاران، جاء في أعمال الرسل أنّ هذه الرؤيا قد حصلت عندما كان أبرام في الجزيرة، ما بين النهرين، قبل أن ينتقل أبرام إلى حرّان[3]. وقد وعد الله أبرام في هذه الرؤيا بأن «يجعله أمّة كبيرة ويبارك ويعظِّم اسمه، ويبارك مُباركيه ويلعن لاعنيه ويتبارك به جميع عشائر الأرض»[4].

ويبدو أنّ أبرام قد انتقل، مؤمناً بكلام الربّ، من حاران، ومعه امرأته ساراي وابن أخيه لوط وجميع الأموال والنفوس التي امتلكوها في حاران، إلى أرض كنعان، وعندما وصلوا إلى مكان اسمه «بلوطة مورة»[5] في موضع «شكيم[6]» من

---

١ - سفر التكوين، ١١: ٢٧ - ٣٢؛ وفي حاشية طبعة (دار المشرق، بيروت ١٩٩١) ص ٨٥: «أن هناك نزاع قائم حول تاريخية هذا الرحيل الاول، مع أنه مثبّت في التقاليد القديمة (١١/٢٨ و ١٥/٧) المحرَّرة في زمن كانت اور قد أمست في عالم النسيان بعد أن كانت مركزاً هاماً في أوائل الالف الثاني، وعلى صلة دينية، وتجارية بحاران». علماً بأنَّ اور تقع في بلاد ما بين النهرين السفلى، وأما حاران ففي شمالي غرب ما بين النهرين.
أما بالنسبة لذكر اور، في التوراة، منسوبة إلى الكلدانيين، فتذكر الحاشية انه «لا بد من الاعتراف بامكانية هذا الرحيل الاول، مع العلم بأن ذكر الكلدانيِّين قد يكون ايضاحاً أضيف في الحقبة البابلية الجديدة».

٢ - سفر التكوين، ١٢: ١

٣ - أعمال الرسل، ٧: ١ - ٢.

٤ - سفر التكوين، ١٢: ٢ - ٣.

٥ - اعترض الدكتور كمال الصليبي (التوراة جاءت... ص ٢٣٨) على اسم «بلوطات مورة» او «بلوطات ممرا» كما جاءت في الترجمات العربية للتوراة، وقال ان الترجمة الصحيحة لعبارة «ءلني ممرء» الورادة في النص الاصلي للتوراة، هي «حرش» او «غابة» ممرء، وليس «بلوطات» ممرء، موضحاً ان «ءلن» في العبرية هي الشجرة الكبيرة، وجمعها «ءلنيم» أي: الشجر الكبير، الغابة، الحرش، وقد حُذفت ميم الجمع في «ءلني ممرء» بداعي الاضافة.

٦ - شكيم: بلدة بالقرب من نابلس في فلسطين.

أرض كنعان، تراءى الرَّبّ لأبرام وقال: «لنسلِك أعطي هذه الأرض». فبنى هناك مذبحاً للرَّبّ الذي تجلَّى له، ثمّ انتقل من هناك إلى الجبل الشرقيّ وضرب خيمته، وبنى هناك مذبحاً للرَّبّ، ثمّ رحل رحيلاً متوالياً نحو النقب[1].

من هنا، تبدأ مسألة أرض الميعاد، التي لم يتمكّن أبرام من البقاء فيها يومذاك، بسبب المجاعة التي حلّت هناك، مما اضطره إلى الانتقال إلى مصر، فلمّا قارب أن يدخل مصر، قال لسراي إمرأته: «أنا أعلم أنّك إمرأة جميلة المنظر، فيكون ، إذا رآك المصريُّون، أنّهم يقولون: «هذه امرأته» فيقتلونني ويبقونك على قيد الحياة، فقولي إنَّك أختي، حتّى يُحسَن إليّ بسببك وتحيا نفسي بفضلك». ولمّا دخل أبرام مصر، رأى المصريُّون أنّ المرأة جميلة جدّاً، ورآها رؤساء فرعون ومدحوها لدى فرعون فأُخذت المرأة إلى بيته، فأحسن إلى أبرام بسببها فصار له غنم وبقر وحمير وخدّام وخادمات وحمائر وجمال[2]، فضرب الرَّبّ فرعون وبيته ضربات شديدة بسبب ساراي إمرأة أبرام. فاستدعى فرعون أبرام وقال له: «ماذا صنعت بي؟ لِمَ لم تُعلمني أنها امرأتك؟ لِمَ قلت: هي أختي حتى أخذتها لتكون لي امرأة؟ والآن هذه امرأتك: خذها وامضِ». وأمر فرعون قوما فشيّعوه هو وامرأته وكلّ ما له[3]. فانتقل أبرام إلى النقب، وقد صار غنيّاً جدّاً «بالماشية والفضّة والذهب» ومن النقب، عاد إلى حيث كان قد نصب خيمته في أرض كنعان وبنى مذبحاً للرَّبّ، قبل أن ينتقل إلى مصر[4].

ضاقت أرض كنعان، بحسب التوراة، بماشية أبرام ولوط ابن أخيه، فانتقل لوط إلى سهل الأردنّ، بينما بقي أبرام في أرض كنعان، حيث تراءى له الرَّبّ وقال:

---

١ ـ سفر التكوين، ١٢: ٤ ـ ٩.

٢ ـ جاء في حاشية هذا الفصل أن «لهذه الرواية طابع خُلقي غير مكتمل، والضمير لا يستنكر فيه كل كذب، وحياة الزوج تفضل في هذه الاخلاقية على شرف المرأة. فالبشريَّة، بهداية الله، لم تع الشريعة الخلقيَّة إلاّ تدريجياً».

٣ ـ سفر التكوين، ١٢: ١٠ ـ ٢٠.

٤ ـ راجع: سفر التكوين، ١٣: ١ ـ ٤.

«إرفع عينيك وانظر من المكان الذي أنت فيه شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً، إنّ كلّ الأرض التي تراها لك أعطيها ولنسلك للأبد. وأجعل نسلك كتراب الأرض، حتّى إن أمكن أحداً أن يحصي تراب الأرض، فنسلك أيضاً يحصى، قم فامش في الأرض طولها وعرضها فإنّي لك أعطيها[1]» فانتقل أبرام بخيامه وجاء فأقام في بلّوطة مورة التي بحبرون وبنى هناك مذبحاً للرَّبّ[2]. وهكذا تتطور مسألة أرض الميعاد.

بعدما استقرّ أبرام في موطنه الجديد، أغار بعض ملوك البلدان الواقعة حول الفرات على مدن سهل الأردنّ حيث كان يقيم لوط، فأسروا هذا الأخير مع أهل بيته بعد أن استولوا على سدوم[3]. فلمّا بلغ الخبر أبرام سلّح غلمانه وعبيده، وكبس الغزاة ليلاً، فاسترجع لوطا وأملاكه ونساءه وجميع الأسرى وكلّ ما كان لهم، فخرج سدوم لاستقباله، بعد رجوعه. أمّا ملكيصادق[4]، ملك شاليم[5]، «فأخرج خبزاً وخمراً، لأنّه كان كاهناً لله العلي، وبارك أبرام وقال: ـ على أبرام بركة الله العليّ خالق السماوات والارض، وتبارك الإله العليّ الذي أسلم اعداءك إلى يديك ـ، وأعطاه أبرام العشر من كلّ شيء[6]».

---

١ ـ سفر التكوين، ١٣: ٥ ـ ١٨.

٢ ـ حبرون، أو الخليل، او خليل الرحمن، مدينة في اسرائيل هي من أقدم مدن العالم، والخليل كانت محافظة في المملكة الاردنية الهاشمية وكانت قاعدتها مدينة الخليل هذه التي فيها قبر ابراهيم الخليل وزوجته سارة واسحق ويعقوب ورفقة.

٣ ـ سدوم: مدينة قديمة في إسرائيل على شاطىء البحر الميت، وهي التي سيمطرها الله مع مدينة عمورة ناراً قصاصاً على خطايا أهلها.

٤ ـ ملكيصادق: هذا الذي يظهر في الرواية (تكوين ١٤: ١٧ ـ ٢٤) ظهوراً سريعاً وغامضاً كملك أورشليم، حيث يختار الله سكناه، وككاهن العليّ قبل إنشاء الكهنوت اللاّوي، فإنّ المزمور ١١٠/٤ يقدّمه لنا كصورة داود المعد، هو أيضاً، صورة المشيح الملك والكاهن، ويشرح لنا الفصل السابع من الرسالة إلى العبرانيّين كيف أن كل ذلك يطبّق على كهنوت المسيح، ولقد استغلّ التقليد الأبائي هذا التفسير التمثيلي وأغناه، فرأى في الخبز والخمر اللذين قُدِّما لابراهيم صورة سرّ القربان، لا بل ذبيحة حقيقيَّة وصورة للذبيحة القربانية، وقد ذهب بعض الآباء إلى القول بأن ابن الله نفسه قد ظهر في ملكيصادق.

٥ ـ شاليم وشليم هي اورشليم.

٦ ـ وهكذا يظهر ملكيصادق بصورة عظيم الكهنة، وكوريث الامتيازات الملكية ورئيس الكهنوت الذي يستوفي العشر من بني ابراهيم. (راجع سفر التكوين ١٤: ١ ـ ٢٤).

كانت ساراي، زوجة إبراهيم، عاقراً، لذلك فعندما تراءى له الرَّبّ بعد هذه الأحداث وقال له: «لا تخف يا أبرام، أنا ترس لك، وأجرك عظيم جدّاً» قال أبرام: «أيُّها السيِّد الربّ، ماذا تعطيني؟ إنِّي منصرف عقيماً، وقيّم بيتي هو أليعازر الدمشقي[1] وقال أبرام: «إنَّك لم ترزقني نسلاً فهوذا ربيب بيتي يرثني» فإذا بكلمة الرَّب إليه قائلاً: «لن يرثك هذا، بل، من يخرج من أحشائك هو يرثك».. ووعده الرَّبّ بأن يكون نسله بعدد الكواكب التي بوسعه أن يحصيها. وإذ آمن أبرام، قال له الرب: «أنا الرَّبّ الذي أخرجك من أور الكلدانيِّين لأعطيك هذه الأرض ميراثاً لك» وقال له أيضاً: «إعلم يقينا أن نسلك سيكونون نزلاء في أرض ليست لهم، ويستعبدونهم ويذلُّونهم أربع مئة سنة، والأمّة التي يُستعبدون لها سأدينها أنا، وبعد ذلك يخرجون بمال كثير، وأنت تنضمّ إلى آبائك بسلام وتُدفنُ بشيبة طيبة. وفي الجيل الرابع يرجعون إلى ههنا، لأنَّ إثم الأموريِّين لن يكون قد اكتمل عندئذ». وفي ذلك اليوم قطع الرَّبّ مع أبرام عهداً قائلاً: «لنسلك أعطي هذه الأرض، من نهر مصر إلى النهر الكبير، نهر الفرات[2] ...».

بعد هذا العهد، إرتأت ساراي على زوجها أبرام أن يدخل على خادمتها المصريَّة: هاجر، «لعلَّ بيتها يُبنى منها». وإذ سمع أبرام لقول زوجته، ولدت هاجر له ابناً سمّاه إسماعيل[3]، وكان أبرام ابن ستّ وثمانين سنة[4].

لمّا بلغ أبرام التاسعة والتسعين من عمره، تراءى له الرَّبّ وقال له: «أنا الله القدير، فسِر أمامي وكن كاملاً، سأجعل عهدي بيني وبينك، وسأكثرك جدّاً جدّاً» فسقط أبرام على وجهه وخاطبه الله قائلاً: «ها أنا أجعل عهدي معك، فتصير أبا

---

١ - ترجمة تقديرية لنص عبري مشوّه.
٢ - راجع سفر التكوين، ١٥: ١ - ١٨
٣ - اسماعيل من العبريَّة: يشمع ايل yishmâ - êl أي: يسمع الله.
٤ - راجع: سفر التكوين، ١٦: ١ - ١٦.

عدد كبير من الأمم، ولا يكون اسمك أبرام بعد اليوم، بل يكون اسمك إبراهيم[1]، لأنّي جعلتك أبا عدد كبير من الأمم. وسأنمّيك جدّاً جدّاً وأجعلك أمماً، وملوك منك يخرجون. وأقيم عهدي بيني وبينك وبين نسلك من بعدك مدى أجيالهم، عهداً أبديّاً، لأكون لك إلها ولنسلك من بعدك وأعطيك الأرض التي أنت نازل فيها، لك ولنسلك من بعدك، كلّ أرض كنعان، ملكاً مؤبداً، وأكون لهم إلهاً[2] ». وقال الله لإبراهيم: «ساراي امرأتك لا تسمّها ساراي، بل سمّها سارة. وأنا أباركها وأرزقها منك ابناً وأباركها فتصير أمماً، وملوك شعوب منها يخرجون». فسقط إبراهيم على وجهه وضحك وقال في قلبه: «ألابن مئة سنة يولد ولد، أم سارة وهي ابنة تسعين سنة تلد؟» فقال إبراهيم لله: «لو أنّ إسماعيل يحيا أمام وجهك»! فقال الله: «بل سارة امرأتك ستلد لك ابناً وسمّه إسحق[3]، وأقيم عهدي معه، عهداً أبديّاً، لأكون له الهاً ولنسله من بعده، وأمّا إسماعيل فقد سمعت قولك فيه. وهاأنذا أباركه وأنمّيه وأكثره جدّاً جدّاً، ويلد اثني عشر رئيساً وأجعله أمَّة عظيمة. غير أنّ عهدي أقيمه مع إسحق الذي تلده لك سارة في مثل هذا الوقت من السنة المقبلة[4] ».

وقبل أن تلد سارة لإبراهيم ابنه إسحق، كان الله قد أنزل غضبه ناراً على سدوم وعمورة بسبب فساد أهلهما، بعد أن أنذر ملاك الرّب لوطاً وابنتيه بوجوب خروجهما من سدوم، وإذ لم ينجُ من نسل لوط سوى ابنتيه، فقد أقدمتا على مضاجعة والديهما بعد أن سقتاه خمراً كثيراً حتى لا يعي ما هو حاصل، وقد

---

١ - جاء في حاشية التوراة (المشرق ١٩٩١) هنا: «في المفهوم القديم لا يقتصر اسم الكائن على الدلالة على شخصه، بل يحدّد طبيعة شخصيته أيضاً، فإذا حدث تغيير في الاسم، حدث تغيير في المصير (راجع الآية ٥ و ٣٥/١٠) يبدو في الواقع أن أبرام وابراهيم هما صيغتان لهجيّتان لاسم واحد، وأن لهما معنى واحداً هو «عظيم الأب، كريم النسب» لكنَّ كلمة «ابراهيم» تفسَّر هنا بتجانسها مع «أب عمون» أي «الكثرة».

٢ - سفر التكوين، ١٧: ١ - ٨.

٣ - اسحق، من العبريَّة yishaq أي ليبتسم الله (إيل) وقد جاء هذا الاسم، بحسب التفسير، لان ابراهيم ضحك عندما بشرّه الرب بولادته.

٤ - سفر التكوين، ١٧: ١٥ - ٢٢.

حملتا منه «وولدت الكبرى ابناً وسمَّته موآب، وهو أبو الموآبيِّين، والصغرى أيضاً ولدت ابناً وسمّته بَنْعَمِّي وهو أبو بني عمُّون[1] ».

وكان قد وُلد لناحور، أخي إبراهيم، من زوجته مِلكة، ثمانية أبناء، هم: عوص، وبوز، وقموئيل أبو آرام، وكاسد، وحزو، وفلداش، وبدلاق، وبتوئيل؛ كما كان قد وُلد لناحور أيضاً أربعة أبناء هم: طابح، وجاحم، وطاحش، ومعكة[2].

بعد مولد إسحق، تعرَّض إبراهيم لمشكلتين: الأولى جاءت نتيجة رفض سارة لبقاء هاجر وابنها اسماعيل في بيت إبراهيم، والثانية نتيجة امتحان الربّ له إذ أمره بأن يقدّم «ابنه وحيده الذي يحبُّه، إسحق، محرقة»، بيدَ أنّ الله ساعده بالنسبة لإسماعيل إذ قال لإبراهيم: «لا يسوء في عينيك أمر الصبيّ وأمر خادمتك، مهما قالت لك سارة، فاسمع لقولها، لأنَّه بإسحق يكون لك نسل باسمك. وأمَّا ابن الخادمة، فهو أيضاً أجعله أمّة عظيمة، لأنَّه نسلك[3] ». وهكذا مضت هاجر بطفلها إسماعيل، بعد أن أعطاها إبراهيم خبزاً وقربة ماء وجعل الولد على كتفها وصرفها، وقد تاهت في بريَّة بئر سبع[4] بعد أن نفد الماء من القربة، غير أنّ ملاك الرَّب قد كلّمها: «قومي فخذي الصبيَّ وشدّي عليه يدك، فإنِّي جاعله أمّة عظيمة» ففتح الله عينيها فرأت بئر ماء، فمضت وملأت القربة ماءً وسقت الصبيّ» وكان الله مع الصبيّ حتّى كبر فأقام بالبريَّة وكان رامياً بالقوس، وأقام ببرِّيَّة فاران، واتخذت له أمّه امرأة من أرض مصر[5]. وهكذا أُزيل إسماعيل بن إبراهيم من جاريته المصرّية، من حياة العبرانيِّين وتفكيرهم، وفُضّل عليه إسحق[6].

---

١ - سفر التكوين، ١٩: ٣٠ - ٣٨.
٢ - سفر التكوين، ٢٢: ٢٠ - ٢٣.
٣ - سفر التكوين، ٢١: ١٢.
٤ - بئر سبع، بحسب التوراة (تكوين ٢١: ٢٥ - ٣١) سُمِّي كذلك لأن ابراهيم، عندما تعاهد مع أبيملك على عدم الخداع، قدّم سبع نعاج من الغنم «شهادة بأنَّه حفر تلك البئر» كي لا يدّعي أحد ملكيته في ما بعد.
٥ - سفر التكوين، ٢١: ١٥ - ٢١.
٦ - بخروج اسماعيل من تفكير اليهود وتاريخهم، دخل تاريخ العرب، فبزواجه من جرهم الثانية العارية، ومن تناسلهما، جاء العرب المستعربة بنو عدنان، وانتشرت قبائلهم شمالي جزيرة العرب، وفي التوراة، أنّ بني اسماعيل هم: نبايوت، وقيدار، وأدبئيل، ومبسام، ومشماع، ودومة، ومسَّا، وحدار، وتيما، ونافيش، وقدمة. تكوين، ٢٥: ١٢ - ١٥.

أمّا المشكلة الثانية التي واجهها إبراهيم نتيجة أمر الربّ له بتقديم ابنه إسحق محرقة، فقد أنقذه الرَّب منها عندما تأكّد له أن إبراهيم «مُتَّق له، فلم يمسك عنه ابنه وحيده» إذ ناداه ملاك الرَّب في اللحظة التي كان يهمّ فيها بإنزال السِّكين على رقبة وحيده، وقال له: «إبراهيم إبراهيم... لا تمدّ يدك إلى الصبيّ ولا تفعل به شيئاً، فإنِّي الآن عرفت أنَّك مُتّق الله، فلم تمسك عنِّي ابنك وحيدك»[1] ... ونادى ملاك الرَّب إبراهيم ثانية من السماء وقال: «بنفسي حلفت، يقول الرَّبّ، بما أنَّك فعلت هذا الأمر ولم تمسك عنِّي ابنك وحيدك، لأباركنَّك وأُكثرنَّ نسلك كنجوم السماء وكالرَّمل الذي على شاطئ البحر، ويرث نسلك، مدن أعدائه، ويتبارك بنسلك جميع أمم الأرض، لأنَّك سمعت قولي[2]».

وبعد أن ماتت سارة، ودفنها إبراهيم في مغارة تقع ضمن حقل اشتراه بأربع مئة مثقال[3] فضّة من رجل حثّي، وهذه المغارة تقع في «حقل المكفيلة تجاه ممرا، وهي حبرون في أرض كنعان»... كان إبراهيم قد شاخ وطعن في السِّن، فحلّف أكبر خدّام بيته، وهو المولّى على جميع ما له، بألاّ يسمح بزواج ابنه إسحق من بنات الكنعانيِّين، بل يجب أن تكون زوجة وحيده من عشيرته، من مسقط رأسه، آرام النهرين، وهكذا تمَّ زواج إسحق من رفقة بنت بتوئيل ابن مِلكة إمرأة ناحور أخي إبراهيم[4].

أمّا إبراهيم، فرغم شيخوخته، تزوّج بعد موت سارة بامرأة تدعى قطورة، «فولدت له زمران ويقشان ومدان ومدين وبشباق وشوحاً، وولد يقشان شبأ

١ ـ سفر التكوين، ٢٢: ١١ ـ ١٢؛ خروج، ٢٠: ٢٠؛ تثنية، ٦: ٢؛ يهوذا، ٣: ١٦؛ رسالة يوحنا الأول ٤: ٩؛ الرسالة إلى أهل رومية ٨: ٣٢؛ الرسالة إلى العبرانيين، ١١: ١٧.
٢ ـ سفر التكوين، ٢٢: ١٥ ـ ١٨؛ راجع: سفر التكوين، ١٢: ٢ و ١٥: ٥ و ١٦: ١٠ و ٣٢: ١٣ و ٢٤: ٦٠؛ واشعيا، ١٤: ١٢.
٣ ـ المثقال في ذلك العصر كان يساوي ١١,٤ غرام.
٤ ـ راجع سفر التكوين، ٢٤: ١ ـ ٦٦.

ودَدان، وبنو ددان هم الأشوريم واللّطوشيم واللّؤميم، وبنو مدين هم عيفة وعفر وحنوك وأبيداع وألداعة». هذا بحسب التوراة[1].

وعندما مات إبراهيم عن مئة وخمس وسبعين سنة، كان إسماعيل هناك، إلى جانب أخيه إسحق، وقد دفن الأخوان والدهما، أبا الاديان الإبراهيميّة، في مغارة المكفيلة في حقل عفرون بن صوحر الحثّي الذي تجاه ممرا، قرب امرأته سارة[2].

إسحق ويعقوب

لن يكون لإسماعيل ذِكر في التاريخ اليهوديّ بعد ذلك الحين. فلقد انحصرت السّلالة بإسحق، كما ستنحصر لاحقاً بيعقوب الذي، مثلما حوّل الرَّبّ اسم جدّه أبرام إلى إبراهيم، سوف يحوّل اسمه إلى إسرائيل[3].

كان إسحق ابن أربعين سنة حين اتّخذ رفقة بنت بتوئيل من فدّان آرام زوجة له، وقد كانت رفقة هي الأخرى، مثل ساراي، عاقراً، إلاّ أنّ الرَّب استجاب لإسحق، فحملت امرأته توأمَين «واصطدم الولدان في جوفها، فقالت: إن كان الأمر هكذا، فما لي والحياة؟ ومضت تستشير الرَّبّ فقال لها: «في جوفك أمَّتان، ومن أحشائك يتفرَّع شعبان: شعب يقوى على شعب، والكبير يخدم الصغير[4]».

وتحقّقت النبوءة بولادة رفقة لإسحق توأمَين: عيسو، الذي خرج أوّلاً، ويعقوب. وبينما كان إسحق يحبّ عيسو لأنّه كان عارفاً بالصَّيد وكان رجل حقول، وكان إسحق يستطيب صيد ابنه، كانت رفقة تحبّ يعقوب الذي كان «رجلاً مستقرّاً مقيماً في الخيام». وقد عملت رفقة على تعليم يعقوب كيف

---

١ ـ سفر التكوين، ٢٥ : ١ ـ ٤؛ من قطورة تتحدَّر شعوب جزيرة العرب، ومنهم بنو مدين (الخروج، ٢ : ١٥) وبنو سبأ (صموئيل٢، ١٠ : ١ ـ ١٠) وبنو ددَّان (إشعيا، ٢١ : ١٣).

٢ ـ سفر التكوين، ٢٥ : ٧ ـ ١١.

٣ ـ اسرائيل، بالعبرية: yisrê-'êl أو ليحكم إيل، أو إيل يحكم.

٤ ـ سفر التكوين، ٢٥ : ١٩ ـ ٢٣.

يختلس برَكة أبيه إسحق وهو على فراش الموت، كما أنَّ يعقوب كان قد اشترى من أخيه عيسو بكريَّته مقابل «خبز وطبيخ من العدس».

قبل أن يموت إسحق كان قد انتقل إلى أرض جرار، بسبب مجاعة حلَّت بالأرض، وقد أمره الرَّبّ أن يبقى في جرار وألاّ ينتقل إلى مصر، وقد جدّد له الوعد بأن «يكون معه ويباركه، لأنَّ له ولنسله سيعطي هذه البلاد كلَّها، ويفي بالقسَم الذي أقسمه لإبراهيم أبيه، ويكثر نسله كنجوم السماء، ويعطي نسله هذه البلاد كلَّها، وتتبارك بنسله أمم الأرض كلّها، من أجل أنَّ إبراهيم أصغى إلى صوته وحفظ أوامره ووصاياه وفرائضه وشرائعه». فأقام إسحق في جرار[1].

وتتكرّر بجرار مع الفلسطينيين وملكهم أبيملك، قصّة إبراهيم مع المصريّين وفرعونهم، فيعرّف إسحق بزوجته على أنَّها أخته لأنّه «خاف أن يقول هي امرأتي» لئلاّ يقتله أهل المكان بسبب رفقة لأنّها جميلة المنظر». وعندما اكتشف أبيملك الحقيقة تصرَّف مثلما تصرَّف الفرعون مع إبراهيم، وقد اغتنى إسحق «وكان يزداد غنى إلى أن صار غنيّاً جدّاً، وصارت له ماشية غنم وماشية بقر وخدم كثيرون فحسده الفلسطينيُّون[2]»...

غير أنّ الرَّبّ قد أوحى إلى ملك الفلسطينيّين بأنَّ إسحق هو مبارك الرَّبّ، فسارع أبيملك إلى قطع عهد سلام مع إسحق.

كان لا يزال إسحق حيّاً عندما تزوّج ابنه البكر عيسو من يهوديت بنت بئيري الحثّي، ومن بسمة، بنت أيلون الحثّي أيضاً، فكانتا «مرارة نفس لإسحق ورفقة». وبعد أن اختلس يعقوب بركة إسحق بتوجيه أمِّه رفقة ومساعدتها[3]، قالت رفقة لزوجها إسحق وهو على فراش الموت: «قد سئمت حياتي بسبب بنات حثّ، فإن تزوَّج يعقوب بامرأة من بنات حثّ مثل هؤلاء، من بنات البلد، فما لي

---

١ - سفر التكوين، ٢٦ : ١ ـ ٦.

٢ - سفر التكوين، ٢٦ : ٧ ـ ١٤.

٣ - انظر الرواية في سفر التكوين، ٢٧ : ١ ـ ٤٣.

والحياة؟» فدعا إسحق، وهو على فراش الموت، ابنه يعقوب، وباركه، وأوصاه قائلاً: «لا تأخذ امرأة من بنات كنعان. قم وامض إلى فدّان آرام، إلى بيت بتوئيل أبي أمّك، وتزوّج بامرأة من هناك، من بنات لابان خالك، والله القدير يباركك ويكثرك وتكون جماعة شعوب ويعطيك بركة إبراهيم، لك ولنسلك معك، لترث أرض غربتك التي وهبها الله لإبراهيم[1]».

عندما مضى يعقوب إلى فدّان آرام تبعاً لرغبة أمّه ولوصية أبيه، دبّ الحقد في قلب أخيه عيسو، وكانت تلك بداية الانفصال بين الأخوين التوأمين، ذلك الانفصال الذي سيحصر فيما بعد شعب الله المختار بذريّة يعقوب.

في فدّان آرام، أراد يعقوب أن يتزوّج بابنة خاله لابان: راحيل، ولكن راحيل كانت أصغر من شقيقتها ليئة، فاحتال عليه خاله وزوّجه ليئة، لأنّ التقليد كان يقضي بتزويج البنت الكبرى قبل شقيقاتها، وكان يعقوب قد خدم خاله سبع سنوات مقابل أن يزوّجه ابنته راحيل، وعندما اكتشف في الصباح أنّ التي دخل عليها إثر وليمة العرس ليلاً، إنّما كانت ليئة، إضطر إلى أن يخدم خاله سبع سنوات أخرى ليحصل على راحيل أيضاً. وكان لليئة خادمة اسمها زلقة وهبها إياها أبوها، وكان لراحيل هي الأخرى خادمة اسمها بلهة.

بينما راحت ليئة، الدميمة الوجه المتهدّلة العينين، تنجب ليعقوب الولد تلو الولد، ظهر أنّ راحيل الجميلة، المحبوبة من يعقوب، كانت عاقراً، فلم تنجب. وإذ غارت من شقيقتها التي كانت قد أنجبت ليعقوب أربعة بنين، طلبت من زوجها أن يدخل على خادمتها بلهة علّها تلد على ركبتها، ويُبنى بيتها هي أيضاً منها، فولدت بلهة، خادمة راحيل، ليعقوب ولدَين. وإذ رأت ليئة أنّها قد توقّفت عن الولادة، طلبت إلى زوجها يعقوب أن يدخل على خادمتها زلقة لتزيد نسله، فولدت زلقة، خادمة ليئة، ليعقوب ولدَين آخرين، ثم عادت ليئة وولدت له ابنَين

---

١ - سفر التكوين، ٢٨: ١ - ٤.

آخرين، إضافة إلى ابنة أُنثى، قبل أن يستجيب الله لراحيل، ويفتح رحمها، لتحمل وتلد ابناً وتقول: «قد أزال الله عنّي العار»، وسمّته يوسف[1] قائلة: «زادني الرَّبّ ابنا آخر[2]». وفي وقت لاحق، سوف تلد راحيل ولداً آخر على طريق بيت لحم، واذ تعسَّرت الولادة، وشعرت راحيل أنها ميتة لا محالة، سمَّت الطفل «بن أوني» أي «ابن ألمي». غير أنّ يعقوب قد غيّر اسم هذا الطفل الذي ماتت راحيل وهي تلده، وجعل اسمه «بنيامين» أي «ابن اليُمن».

تلك المرأة التي سوف ينمو نسلها من ابنها يوسف ليمثِّل إحدى أشهر ملاحم الشعوب: راحيل، ماتت هناك في طريق أفراتة (وهي بيت لحم) وأقام يعقوب نصبا على قبرها.

عندما ماتت راحيل، كان قد أصبح ليعقوب، إثنا عشر ابناً هم: رأوبين وشمعون ولاوي ويهوذا ويسَّاكر وزبولون من امرأته ليئة، وجاد وأشير من زلقة خادمة ليئة، ودان ونفتالي من بلعة خادمة راحيل، إضافة إلى يوسف وبنيامين من زوجته المفضّلة راحيل، وإلى ابنته دينَة التي ولدتها له زوجته الأولى ليئة.

وبعد مكوثه أكثر من عشرين سنة لدى خاله، والد زوجتيه: لابان، في فدّان آرام، فرَّ يعقوب ومعه زوجتاه وأبناؤه وقطعانه من هناك بسبب تسلّط خاله وطمعه، وقد قال الرَّبّ ليعقوب: «إرجع إلى أرض آبائك ومسقط رأسك وأنا أكون معك[3]».

وبينما كان يعقوب متّجهاً إلى أرض كنعان، كان خاله لابان، يجدّ في إثره ملاحقاً إيَّاه، فأدركه عند جبل جلعاد، لكنّ الله «أتى لابان في الحلم ليلاً وقال له: - إيّاك أن تكلّم يعقوب بخير أو شرٍّ»، لذلك اقتصر الأمر على عتاب بين الرجلين

١ - بالعبرية ياسف yâsaph أي «ليزيد» او «ليضيف» (إيل).
٢ - سفر التكوين، ٣٠: ٢٢ ـ ٢٤.
٣ - سفر التكوين، ٣١: ٣.

لخوف لابان من غضب الله، وانتهت المسألة إلى معاهدة قضت بأن يكون موضع لقائهما في جبل جلعاد، حدّاً فاصلاً بين شعبيهما، ولا يتعدّى أحدهما على الآخر.

هنا، بدأت مسألة العلاقة بين يعقوب وأخيه عيسو، إذ لا بدّ من التذكير بأنّ حقداً كان قد وُلد في قلب عيسو بسبب اختلاس يعقوب منه بركة أبيه، ومع أنّ عيسو قد استقبل أخاه يعقوب إستقبالاً طيّباً، فقد بقي يعقوب حذراً من أخيه، وبينما هو في إحدى الليالي منعزلاً في تلك الصرود «صارعه رجل إلى طلوع الفجر، ورأى أنّه لا يقدر عليه، فلمس حقّ وركه، فانخلع ورك يعقوب في مصارعته له، وقال: «إصرفني» لأنّه قد طلع الفجر، فقال يعقوب: «لا أصرفك أو تباركني» فقال له: «ما اسمك؟» قال: «يعقوب» قال: «لا يكون إسمك يعقوب فيما بعد بل إسرائيل[1]، لانّك صارعت الله والناس فغلبت[2].». وسأله يعقوب عن اسمه، فقال: «لمَ سؤالك عن اسمي»؟ وباركه هناك، حيث سمّى يعقوب المكان فنوئيل قائلاً: «إنّي رأيت الله وجهاً إلى وجه، ونجت نفسي». وأشرقت الشمس عند عبوره فنوئيل، وهو يعرج من وركه. ولذلك لا يأكل بنو إسرائيل عرق النسا الذي في حقّ الورك.... لأنّه لمس حقّ ورك يعقوب على عرق النَّسا[3].

المقصود في هذه الرواية اليهوديّة التي تصوّر مصارعة يعقوب للّه، هو الصراع الجسديّ، حيث يبدو يعقوب الغالب أوّلاً، لكنّه حين يعرف طبيعة خصمه السامية، يغتصب بركته، علماً بأنّ النصّ يتجنّب اسم الرَّبّ، كما أنّ المعتدي المجهول يرفض أن يسمّي نفسه، ويستعمل مؤلّف سفر التكوين قصّة قديمة لتفسير اسم فنوئيل

١ ـ اسرائيل، وبالعبريّة: yisrê-êl أو ليحكم إيل او إيل يحكم، إلاّ أنه جاء في حاشية التوراة (المشرق، ص ١١٩) تعليقاً على هذا المقطع (تكوين، ٣٢: ٢٣ ـ ٢٩) «يفسَّر هنا اسم اسرائيل بأصل شعبي ورد في الترجمة اليونانية والترجمة اللاتينيّة: «لانّك قويت على الله» لذلك يفسِّر بعضهم اسرائيل بـ «ليقو الله».

٢ ـ سفر التكوين، ٣٢: ٢٦ ـ ٢٩

٣ ـ سفر التكوين، ٣٢: ٣١ ـ ٣٣.

«بني إيل» (وجه الله) ولإيجاد أصل الاسم لإسرائيل، وبذلك يُضفي على تلك القصّة معنى دينياً، وهو أنّ يعقوب يتمسّك بالله ويغتصب منه بركة تكون واجباً على الله نحو الذين سيحملون بعده اسم إسرائيل. وبناء على ذلك أصبح هذا المشهد صورة الصراع الروحيّ، وصورة فعاليّة الصلاة الملحَّة[1].

نزل يعقوب، الذي صار اسمه إسرائيل، بعد عودته من فدّان آرام ولقائه أخيه عيسو، في مدينة شكيم[2] من أرض كنعان، ومعه عياله، فاشترى قطعة أرض قرب المدينة وخيّم فيها، إلاّ أنَّ دينة، ابنة إسرائيل، قد تعرَّضت للاغتصاب من قبَل رئيس البلد (شكيم حمور الحويّ)، وإذ حاول إسرائيل أن يستغلّ تلك الحادثة ليقيم عهداً مع أهل شكيم، يقضي بأن يتزوَّج مغتصب ابنته بها، شرط أن يتبع الناس شريعته، وأن يبدأوا ذلك بالاختتان، قبِل أهل شكيم بذلك، واختتنوا في يوم واحد، استغلّ ابنا إسرائيل: شمعون ولاوي، ليلة الاختتان والرجال يتألّمون من جرَّائها، فدخلا المدينة «وقتلا كلّ ذكر بمن فيهم شكيم ووالده حمور، وأخذا دينة، ثم دخل بنو يعقوب وسلبوا ما في المدينة بسبب تدنيس أختهم، وسبوا كل ثروات شكيم وجميع أطفالها ونسائها وكلّ ما في البيوت.. فقال يعقوب لشمعون ولاوي: ـ قد جلبتما الشقاء عليَّ وسوَّدتما وجهي عند أهل البلد من كنعانيِّين وفرزيِّين وأنا نفر معدود، فيجتمعون عليَّ ويضربونني فأهلك أنا وبيتي. ـ فقالا: ـ أكراهية تعامَل أختنا[3]؟».

مرّة ثانية، تراءى الله ليعقوب وقال له: «اسمك يعقوب، لن تسمَّى بعد اليوم يعقوب، بل إسرائيل يكون اسمك... أنا الله القدير، إنمُ وأكثُر، أمَّةٌ وجمهور أمم تخرج منك، وملوك من صلبك يخرجون، والأرض التي أعطيتها

---

١ ـ الكتاب المقدّس، العهد القديم، دار المشرق (بيروت ١٩٩١) ص ١١٨.
٢ ـ تقع اليوم قرب نابلس.
٣ ـ سفر التكوين، ٣٤: ٢٥ ـ ٣١، ٤٩: ٥ ـ ٧.

لإبراهيم وإسحق لك أعطيها، ولنسلك من بعدك أعطي الأرض[1] ». وهكذا يتحوّل عهد إبراهيم إلى إسرائيل الذي كان اسمه يعقوب، دون أن يكون لأحد سواه وذريّته حقّ بها.

حصل ذلك قبل أن يموت إسحق وهو في حبرون عن مئة وثمانين سنة، وقد اشترك في دفنه، إضافة إلى يعقوب، ابنه عيسو.

ومن دون أن تتوسّع المصادر اليهوديّة في موضوع خلاف يعقوب مع عيسو، تذكر أنّه بعد موت إسحق، «أخذ عيسو نساءه وبنيه وبناته وكلّ نفس في بيته وماشيته وكلّ بهائمه وسائر مقتناه الذي اقتنى في أرض كنعان ، وانتقل إلى أرض بعيدة عن وجه يعقوب أخيه، لأنّ مالهما كان أكثر من أن يقيما معاً، ولم تكن أرض غربتهما تسعهما لكثرة مواشيهما، وأقام عيسو بجبل سعير، وعيسو هو أدوم[2] ».

كان عيسو قد اتّخذ نساءه من بنات كنعان، وقد رُزق منهنّ خمسة بنين هم: أليفاز، ورعوئيل، ويعوش، ويعلام، وقورح.

وبانفصال عيسو عن أخيه يعقوب الذي صار اسمه إسرائيل، واستيطانه بين جنوب فلسطين وخليج العقبة، سوف ينشأ من نسل عيسو المعروف بأدوم، الأدوميُّون، الذين سوف ينصرفون للرعاية والنهب، وسوف تكون لهم حروب كثيرة مع الإسرائيليّين، حتى يخضعهم يوحنّا هورقانوس سنة ١٢٦ ق.م. لتأتي منهم سلالة الهيروديّين ملوك فلسطين حتى خراب أورشليم سنة ٧٠ م.

أمّا يعقوب، فقد استوطن نهائياً الأرضَ الذي نزل فيها أبوه: أرض كنعان، بعد أن صار اسمه إسرائيل، وصار اسم أرضه أرض إسرائيل.

---

١ ـ سفر التكوين، ٣٥: ٩ ـ ١٢.

٢ ـ سفر التكوين، ٣٦: ٦ ـ ٨.

يوسف والهجرة إلى مصر

كان يوسف، ابن راحيل، الابن المفضّل لدى أبيه إسرائيل، وتردّ التوراة سبب هذا التفضيل إلى أنّ يوسف كان ابن شيخوخة إسرائيل، مع أنَّ بنيامين كان أصغر بنيه.

على أيّ حال، أبغض بنو إسرائيل أخاهم يوسف الذي كان يرى أحلاماً تنبئ بأنَّه سوف يملك عليهم، وكان يروي لإخوته تلك الأحلام، ممّا زاد في كرههم له، فراحوا يتآمرون عليه بغية قتله للتخلّص منه، إلاّ أنّ أحد إخوته: رأوبين ابن ليئة، خلَّصه منهم قائلا: «لا نقتل نفساً»، واقترح أن يطرحوه في بئر في البرِّيَّة دون أن يقتلوه، وكان مراده أن يخلّصه من أيديهم بعد ذلك. وبعد أن وضعوه في البئر، عادوا فانتشلوه وباعوه لقافلة من الإسماعيليّين كانت مارّة من هناك، بناء على نصيحة أخيه يهوذا ابن ليئة، مقابل عشرين من الفضة. وبينما حمل الإسماعيليُّون يوسف إلى مصر، قام إخوته بذبح تيس ماعز وغمسوا في دمه قميص يوسف الذي كانوا قد انتزعوه عنه، وأوصلوا القميص إلى أبيهم إسرائيل ليؤكّدوا له أنّ وحشاً افترسه، وقد حزن إسرائيل على يوسف كثيراً، بينما باع الإسماعيليُّون يوسف في مصر لفوطيفار، خصيّ فرعون ورئيس الحرس[1].

نجح يوسف في خدمة سيِّده الجديد وحقّق عنده مكانة عالية حتى بات الرجل الأوّل في قصره، ولمّا كان يوسف شاباً جميلاً، مال قلب امرأة سيِّده إليه، إلاّ أنَّه رفض خيانة سيِّده، وعندما تمسَّكت بثوبه بقصد جذبه إليها، فرّ يوسف من بين يديها تاركاً ثوبه، ممّا جعلها تنتقم لكبريائها بأن اتَّهمته بأنَّه جاء يحاول اغتصابها، وإذ صرخت ترك ثوبه بجانبها وفرّ. وقد صدّق فوطيفار ادّعاء زوجته، وغضب على يوسف ورماه في السجن، حيث نال حظوة السجَّان، الذي رأّسه على المساجين. وهناك اشتهر يوسف بتفسير الأحلام، حتّى كان حلم فرعون الشهير

---

١ - سفر التكوين، ٣٧ : ٢ - ٣٦.

بالبقرات السبع الهزيلة، والبقرات السبع السمان، وبالسنابل السبع السمان، والسنابل السبع الهزيلة، وإذ لم يتمكّن أحد من سحرة مصر وحكمائها من تفسير حلم فرعون، الذي كان قد سمع بيوسف وقدرته على تفسير الأحلام، أرسل ودعاه ليفسّر له حلمه، فكان تفسيره الشهير الذي توقّع سبع سنوات فيها شبع عظيم في كلّ أرض مصر، تأتي بعدها سبع سني مجاعة شديدة جدّاً، ونصح يوسف فرعون بأن «يبحث عن رجل فهيم حكيم يقيمه على أرض مصر، وبأن يسعى فرعون ويوكل وكلاء على هذه الأرض ويأخذ خُمس غلّة أرض مصر في سبع سني الشبع، وليجمعوا كلّ طعام سني الخير الآتية ويخزنوا قمحها تحت يد فرعون... فيكون الطعام مؤونة لهذه الأرض بسبع سني المجاعة...».

وإذ حسُن الكلام في عيني فرعون الذي أُعجب بحكمة يوسف، جعله على بيته وأمر شعبه بأن ينقاد إلى كلمته، ولم يعُد فرعون أعظم من يوسف الآ في العرش. وسمّى فرعون يوسف «صفنة فعنئح[1] » وزوّجه أسنات، بنت فوطيفارع كاهن أون[2]، وهكذا صاهر يوسف أرفع أشراف مصر، وبينما راح يوسف يجمع غلال السنوات الخيِّرة، وُلد له ابنان قبل أن تأتي سنة المجاعة، وهما: منسّى، وأفرائيم.

جاءت المجاعة، فكانت مصر مهيّأة لها، ويبدو أنّ تلك المجاعة قد عمّت الأرض، فراحت شعوبها تقصد مصر للحصول على الحبوب، وأرسل إسرائيل أولاده إلى هناك ليشتروا حبّاً. وكانت قصّة لقاء طويلة انتهت بأن طلب يوسف من إخوته، بعد أن عرّفهم بنفسه، أن يعودوا إلى كنعان فيُحضروا أباهم وأموالهم وكلّ ما هو لهم ليقيموا بقربه في أرض جاسان[3]. وكان فرعون، عندما بلغه الخبر، قد

---

١ - «صفنة فعنئح» اسم مصري معناه: «قال الله أنه حي».

٢ - «فوطيفارع» أي «هبة رع» و «رع» هو إله الشمس. أمّا «أون» فهي «هيليوبوليس» مركز عبادة الشمس، وكان لكهنوته دور سياسي هام.

٣ - منطقة الدلتا الشرقية.

أصرّ على تنفيذ رغبة يوسف في مجيء إسرائيل وبنيه إلى مصر، فعاد بنو إسرائيل إلى كنعان ومعهم عربات أُعطيت لهم بأمر فرعون لنقل متاعهم.

جمد قلب إسرائيل عند سماعه بأنّ يوسف لا يزال حيّاً، ولم يتردَّد في أمر الإنتقال إلى مصر ولسان حاله: «حسبي أنَّ يوسف ابني لا يزال حيّاً، أمضي وأراه قبل أن أموت».

حمل بنو إسرائيل أباهم وأطفالهم ونساءهم على العجلات، وأخذوا مقتنياتهم وانتقلوا إلى مصر، ونزلوا في أرض جاسان.

وقبل أن يموت إسرائيل أوصى ابنه يوسف بأن يدفنه في مقبرة آبائه وليس في مصر، وبارك ابنَي يوسف: منسّى وأفرائيم، ومات إسرائيل (يعقوب) تاركاً في مصر أَسباط إسرائيل الإثني عشر. وبعد أن حُنِّط إسرائيل، وبكى عليه المصريّون سبعين يوماً، نُقل إلى أرض كنعان في موكب ملوكيّ كان على رأسه يوسف، ومعه جميع حاشية فرعون وشيوخ بيته، وجميع شيوخ أرض مصر، وجميع آل يوسف وإخوته وآل أبيه، وتركوا عيالهم ومواشيهم في أرض جاسان، وصعدت معه مركبات وفرسان. وكما أوصى يعقوب (إسرائيل) فعل بنوه، فدفنوه في مغارة حقل المكفيلة التي اشتراها إبراهيم مع الحقل، ملْك قبر، من عفرون الحثّي، إزاء ممرا، ثمّ رجع يوسف وإخوته وسائر من صعد معه، لدفن أبيه،إلى مصر.

كان عمْر يعقوب (إسرائيل) عند وفاته مئة وسبعاً وأربعين سنة. وأقام يوسف بمصر هو وبيت أبيه، حتى بلغ المئة وعشر سنين. وعندما وافاه الأجل، قال لإخوته: «هاأنذا أموت، والله سيفتقدكم ويصعدكم من هذه الأرض إلى الأرض التي أقسم عليها لإبراهيم وإسحق ويعقوب». واستحلف يوسف بني إسرائيل وقال: «إنّ الله سيفتقدكم فأصعدوا عظامي من هنا». ومات يوسف، فحنّطوه وجُعل في تابوت بمصر[1].

---

١ - قصة يوسف، راجع: سفر التكوين، فصل ٣٧ إلى ٥٠.

هذا هو تاريخ بني إسرائيل السابق للخروج من مصر، ويبقى أن نشير إلى أنّ يهوذا، أحد أبناء إسرائيل (يعقوب) كان قبْل هجرته مع أبيه وبنيه إلى مصر، قد تزوّج بامرأة كنعانيّة رُزق منها ثلاثة بنين: عير، وأونان، وشيلة. ثم اتّخذ يهوذا لابنه البكر: عير، زوجة اسمها تامارا، إلاّ أنّ عيراً مات قبل أن يُرزق أيّ ولد (لأنّه كان شرّيراً) وكذلك مات ابن يهوذا الثاني: أونان، الذي تمرَّد على رغبة أبيه حين طلب منه أن يدخل على زوجة أخيه عير، كي يقيم نسلاً لأخيه، واحتالت تامارا على يهوذا بالتنكُّر، حتى دخل عليها دون أن يعرفها، فولدت توأمين هما: فارص، وزارح[1] وهما سيكونان أصل نسل يهوذا، أو سبطه، كما سيكون لكُلّ ولد من أبناء إسرائيل سبطه، وعلى هؤلاء، سيقوم تاريخ بني إسرائيل.

---

١ ـ سفر التكوين، ٣٨: ١ ـ ٣٠.

الفصل الثالث

من مصر إلى أرض الميعاد

- موسى
- الضربات العشر لأرض مصر
- الخروج من مصر
- يشوع بن نون والدخول إلى كنعان

كان أبناء إسرائيل الذين دخلوا مصر، والذين سيُنسب إلى كلّ منهم سبط[1]: رأوبين، وشمعون، ولاوي، ويهوذا، ويسّاكر، وزبولون، وبنيامين، ودان، ونفتالي، وجاد، وأشير، إضافة إلى يوسف الذي كان في مصر.

بعد موت يوسف وإخوته، كان قد نما نسل بني إسرائيل بشكل كبير في مصر، وبات الفرعون الجديد[2] «الذي لم يعرف يوسف» يخشى أمر كثرتهم، فشدّد عليهم السخرة والإذلال والأعمال الشاقّة والقسوة، وحاول القضاء على كلّ مولود ذكر لهم، آمراً شعبه «بطرح كلّ ابن يولد لهم في النيل، وباستبقاء كل إبنة[3]».

في هذا الوقت، رُزق أحد أحفاد لاوي ابنا، لمّا رأت أمّه (وهي الأخرى لاويّة) أنّه جميل، أخفته ثلاثة أشهر، ولمّا لم تستطع أن تخفيه بعد، أخذت له سلّة من البردي وطلتها بالحمّر والزفت، وجعلت الولد فيها ووضعتها بين القصب على حافة النهر.. وإذ «نزلت ابنة فرعون إلى النيل لتغتسل مع وصيفاتها، رأت السلّة بين القصب، فأرسلت خادمتها فأخذتها، وقد أشفقت على الطفل الذي تأكّد لها أنّه من أولاد العبرانيّين[4]» فتبنّته، بعد أن سمّته موسى، لأنّها انتشلته من الماء[5].

---

١ ـ السِّبط، ج. أسباط: ولد الولد، وهو مُشتَّق من السَبط، أي الشجرة. والسبط من اليهود، كالقبيلة عند العرب.

٢ ـ الراجح أن هذا الفرعون هو فرعون الثاني الملقَّب بفرعون الظالم (١٢٩٠ ـ ١٢٤٤ ق.م.)

٣ ـ سفر الخروج، ١: ٢٢

٤ ـ سفر الخروج، ٢: ١ ـ ١٠

٥ ـ الأصل الشعبي العبري المشتق منه اسم موسى (في العبرية موشِه) من جذر «مشا» أي «انتشل» غير أن ابنة الفرعون لا تتكلّم العبريَّة، وهكذا يجب ان يكون الإسم مصرياً، يُعرف بصيغته المختصرة «موزيس» أو «موزس» وبصيغته الكاملة «توت موزس» وتعني «الاله وُلد».

كبر موسى، ورأى معاناة العبرانيّين، ولـمّا رأى مصريّاً يضرب عبرانيّاً، لم يتمالك موسى نفسه، فقتل المصريّ وطمره، وإذ شاع الخبر، أمر فرعون بقتل موسى الذي هرب إلى أرض مِدين، حيث تزوّج ابنة كاهن مدين، وسكن عنده، وبقي هناك يرعى غنم حميه مدّة أربعين سنة، إلى أن تراءى له ملاك الربّ في لهيب نار من وسط علّيقة تشتعل بالنّار دون أن تحترق، وأمره الله أن يُخرج شعب إسرائيل من مصر بقوله:

«إنّي قد رأيت مذلّة شعبي الذي بمصر، وسمعت صراخه بسبب مسخّريه، وعلمت بآلامه، فنزلت لأنقذه من أيدي المصريّين وأُصعده من هذه الأرض إلى أرض طيّبةٍ واسعة، إلى أرض تدرّ لبناً طيّباً وعسلاً، إلى مكان الكنعانيّين والحثّيّين والأموريّين والفرزيّين والحويّين واليبوسيّين، والآن هوذا صراخ بني إسرائيل قد بلغ إليّ، وقد رأيت الظلم الذي ظلمهم به المصريّون، فالآن إذهب! أُرسلك إلى فرعون، أخرج شعبي بني إسرائيل من مصر».

عندما تساءل موسى أمام ربّه: «مَن أنا حتّى أذهب إلى فرعون وأُخرج بني إسرائيل من مصر؟» قال الرَّبّ:

«أنا أكون معك، وهذه علامة لك على أنّي أنا أرسلتك: إذا أخرجت الشعب من مصر تعبُدون الله على هذا الجبل».

ولأوّل مرة في التوراة، أوحى الله باسمه عندما سأله موسى عن اسمه إذ قال:

«أنا هو من هو[1] ... كذا تقول لبني إسرائيل، أنا هو أرسلني إليكم... الرَّبّ

---

[1] - في العبريّة: «إهيه أشير إهيه» فالترجمة الحرفية يمكن أن تكون: «أنا هو من أنا هو» أو «أنا هو من هو» أو «أنا هو الذي هو» أي: «أنا الكائن» وبحسب الايلوهي، فإن هذه الآية هي أصل اسم يهوه الذي لم يُكشف إلاّ لموسى، أمّا التقليد اليهوي بالتعبُّد ليهوى فيعود إلى نشأة البشريّة (راجع سفر التكوين، ٤: ٢٦) ويبقى هذا الاسم مستعملاً في تاريخ جميع الآباء.

إله إبراهيم وإله إسحق وإله يعقوب أرسلني إليكم. هذا اسمي للأبد وهذا ذكري من جيل إلى جيل... إذهب واجمع شيوخ إسرائيل وقل لهم: ـ الرَّب إله آبائكم تراءى لي ، إله إبراهيم وإسحق ويعقوب وقال: إنِّي قد افتقدتكم ورأيت ما صُنع بكم في مصر، فقلت إنِّي أُصعدكم من مذلّة مصر إلى أرض الكنعانيِّين والحثِّيِّين والأموريِّين والفرزيِّين والحويِّيّن واليبوسيِّين إلى أرض تدرّ لبناً طيِّباً وعسلاً. فيسمعون لقولك وتدخل، أنت وشيوخ إسرائيل، على ملك مصر، وتقولون له: قد وافانا الرَّبّ إله العبرانيِّين، فدعنا الآن نسير مسيرة ثلاثة أيام في البرِّيَّة ونذبح للرَّبّ إلهنا ، وقد علمت أنَّ ملك مصر لن يدعكم تذهبون، حتَّى ولا بيدٍ قويّة، فأمدّ يدي وأضرب مصر بجميع عجائبي التي أصنعها في وسطها ، وبعد ذلك يطلقكم، وأُوتي الشعب حظوة في عيون المصريِّين. فإذا انصرفتم، فلا تنصرفون فارغين، بل تطلب المرأة من جارتها ومن نزيلة بيتها أواني من فضَّة وذهب وثياباً تجعلونها على بنيكم وبناتكم فتسلبون المصريِّين[1] ـ».

الضربات العشر لأرض مصر

بعد أن أعطى الرَّبُّ موسى القوّة وحوّل عصاه التي كان يرعى بها القطيع إلى عصا سحريَّة، انتقل موسى إلى مصر ومعه زوجته المدينيَّة وبنوه، ومعه «عصا الله بيده».

وأمام فرعون، وقف موسى، ومعه أخوه هارون، يطالب بتحرير شعبه من العبوديَّة، وبإطلاق العبرانيِّين إلى البرِّيَّة ليعبدوا ربَّهم الذي يؤمنون به.

وعندما سأله فرعون عن الذي أرسله ليطلب الحرِّيَّة للعبرانيِّين أجاب موسى: «الرَّبّ إله إسرائيل»... فكان ردّ فرعون بأنَّه لا يعرف هذا الربّ. ولم يكتفِ برفض طلب موسى، بل أمر بزيادة قهر العبرانيِّين وسخرتهم، مما جعل الإسرائيليّين

---

١ ـ سفر الخروج، ٣: ٧ ـ ٢٢.

ينقمون على موسى وأخيه، وجعل موسى يعود إلى ربّه مستغيثاً، فكلّمه الرَّبّ آمراً إيّاه بأن ينفّذ مهمّته. ولم يتمكّن موسى من إقناع فرعون بالسَّماح لشعب إسرائيل بالخروج من مصر، رغم الضربات العشر العجائبيَّة التي أنزلها الرب، بواسطة موسى، على مصر وشعبها، وهي: تحويل مياه النيل الى دم لمدة ثلاثة أيّام. تغطية أرض مصر بالضفادع لمدة ثلاثة أيام. تحويل كلّ تراب مصر إلى بعوض. دخول ذباب كثيف بيت فرعون وبيوت حاشيته وكلّ أرض مصر. ثمّ موت مواشي المصريِّين. ثمّ إصابة جميع المصريِّين بالبثور والحروق. ثمّ سقوط البَرَد على أرض مصر وشبوب نار، وكان البَرَد ثقيلاً جداً فقتل الناس والبهائم وحطّم الشجر والزرع. ثمّ اجتياح الجراد لأرض مصر وأكله لكلّ ما تركه البرد؛ أمَّا الضربة التاسعة التي أنزلها الرَّب على مصر بواسطة موسى لأنَّ الفرعون بقي مصرّاً على عدم السماح للعبرانيِّين بالخروج من أرضها، فكانت هبوط ظلام كثيف على كلّ أرضها لمدّة ثلاثة أيّام، وقد استثنت الضربات التسع بني إسرائيل وأرض جاسان من ويلاتها، إلى أن جاءت الضربة العاشرة التي قهرت الفرعون، وأجبرته على الانصياع لطلب موسى والسماح للعبرانيِّين بالخروج من مصر.

كان موسى قد أنذر الفرعون، بناء على أمر الرَّب، بأنّه منذ منتصف الليل، سيموت كلّ بكر في أرض مصر، من بكر فرعون الجالس على عرشه، إلى بكر الخادمة التي وراء الرحى، وجميع أبكار البهائم؛ إلاَّ أنّ فرعون بقي على عناده، فلمَّا نصف الليل، ضرب الربُّ كلّ بكر في أرض مصر، من بكر فرعون الذي سيجلس على عرشه، إلى بكر الأسير الذي في الجبّ، وجميع أبكار البهائم، فقام فرعون ليلاً هو وجميع حاشيته وسائر المصريِّين، وكان صراخ عظيم في مصر، إذ لم يكن بيت إلاَّ وفيه ميت، فدعا فرعون موسى وهارون ليلاً وقال: «قوما واخرجا من بين شعبي، أنتما وبنو إسرائيل، واذهبوا واعبدوا الرَّبّ، كما قلتم، وغنمكم أيضاً وبقركم خذوها كما قلتم واذهبوا، وباركوني أيضاً [1] ».

---

١ - سفر الخروج، ٧، ٨، ٩، ١٠، ١١، ١٢.

في هذه الأثناء، كان الرَّبّ قد كلّم موسى وهارون قائلاً: «هذا الشهر يكون لكم رأس الشهور، وهو لكم أوّل شهورالسنة[1]. كلِّما جماعة إسرائيل كلّها ومُراهم أن يتَّخذُّوا لهم في العاشر من هذا الشهر كلّ واحد حَملاً بحسب بيوت الآباء، لكلّ بيت حملاً، فإن كان أهل البيت أقلّ من أن يأكلوا حملاً، فليأخذوا هم وجارهم القريب من منزلهم بحسب عدد النفوس، فيكون الحمل بحسب ما يأكل كلّ واحد، حمل تامّ ذكر حوليّ يكون لكم، من الضأن أو الماعز تأخذونه، ويبقى محفوظاً عندكم إلى اليوم الرابع عشر من هذا الشهر، فيطبخه كلّ جمهور جماعة إسرائيل بين الغُرُوبَين، ويأخذون من دمه ويجعلونه على قائمتَي الباب وعارضته على البيوت التي يأكلون فيها، ويأكلون لحمه في تلك الليلة مشويّاً على النار، بأرغفة فطير مع أعشاب مرّة يأكلونه، لا تأكلوا شيئاً منه نيئاً ولا مسلوقاً بالماء، بل مشويّاً على نار مع رأسه وأكارعه وجوفه، ولا تُبقوا شيئاً منه إلى الصَّباح، فإن بقي شيء منه إلى الصباح، فاحرقوه بالنَّار، وهكذا تأكلونه: تكون أحقاؤكم مشدودة ونعالكم في أرجلكم وعصيّكم في أيديكم، وتأكلونه على عجَل فإنَّه فصح للرَّبّ، وأنا أجتاز في أرض مصر في تلك الليلة، وأضرب كلّ بكر في أرض مصر، من الناس إلى البهائم، وبجميع آلهة المصريّين أنفّذ أحكاماً أنا الرَّبّ، فيكون الدم لكم علامة على البيوت التي أنتم فيها، فأرى الدم وأعبر من فوقكم، ولا تحلّ بكم ضربة مهلكة، إذا ضربت أرض مصر، ويكون هذا اليوم لكم ذكرى، فتعيِّدونه، عيداً للرب تعيِّدونه مدى أجيالكم فريضة أبديَّة.. سبعة أيّام تأكلون فطيراً. في اليوم الأوّل ترفعون الخمير من منازلكم، فإنَّ كل من أكل خبزاً خميراً من اليوم الأوّل إلى اليوم السابع، تُفصل تلك النفس من إسرائيل. ويكون لكم في اليوم الأوّل محفل مقدّس، وفي اليوم السابع محفل مقدّس، لا يُعمل فيهما عمل، بل ما

---

١ ـ الشهر الأوّل من الربيع، الموافق آذار ـ نيسان، والمسمَّى «أبيب» في الروزنامة القديمة (تثنية، ١٦: ١) والذي سيسمّي نيسان في الروزنامة اللاحقة للجلاء، وهي الروزنامة البابليّة الأصل.

تأكله كلّ نفس هو وحده يُصنع لكم. وتحفظون عيد الفطير[1]، لأنّي في هذا اليوم عينه أخرجت جيوشكم من أرض مصر، وتحفظون هذا اليوم مدى أجيالكم فريضة أبديَّة، في الشهر الأوّل، في اليوم الرابع عشر منه في المساء تأكلون فطيراً إلى اليوم الحادي والعشرين من الشهر في المساء. سبعة أيّام لا يوجد خمير في بيوتكم، فإنَّ كلّ من أكل خميراً، تُفصل تلك النفس من جماعة إسرائيل، نزيلاً كان أم من أبناء البلد، لا تأكلون شيئاً من المُختمِر، بل في جميع مساكنكم تأكلون فطيراً».

... دعا موسى جميع شيوخ إسرائيل وبلّغهم أمر الرَّب، قائلاً: «إقتطعوا وخذوا لكم غنماً بحسب عشائركم واذبحوا الفصح[2]. ثمَّ تأخذون باقة زوفى وتغمسونها في الدم الذي في الطست، وتمسُّون عارضة الباب وقائمتيه بالدم الذي في الطست. ولا يخرج أحد منكم من باب منزله إلى الصباح، فيجتاز الربُّ ليضرب مصر، فإذا رأى الدم على عارضة الباب وقائمتيه، عبر الرَّب عن الباب ولم

١ - في الواقع، الفصح والفطير عيدان مختلفان في الأصل، فالفطير عيد ريفي لم يُحتفل به إلاّ في أرض كنعان، ولم يُضم إلى عيد الفصح إلاّ بعد الإصلاح الذي قام به يوشيًا (٦٤٠ - ٦٠٩ ق.م) أمّا الفصح، وهو سابق لاسرائيل، فهو عيد سنوي يحتفل به رعاة بدو في سبيل خير ماشيتهم، فعند العرب القدماء واليوم عند بعض البدو في فلسطين، لا نزال نجد أهم أحكام ذبيحة الفصح الاسرائيلي، كوضع الدم وشيّ الضحية والاعشاب المرّة الخ... (الكتاب المقدس، العهد القديم)، (دار المشرق، بيروت ١٩٩١) حاشية صفحة ١٧٠.

٢ - يلاحظ هنا ذكر الفصح دون أي شرح، وهذا يفترض أنّه كان معروفاً، فهو على الأرجح عيد الرَّب «الذي طلب موسى من فرعون أن يأذن في الاحتفال به (راجع سفر الخروج، ٥ : ١) وبناء على ذلك، فالرَّابط بين الفصح والضربة العاشرة والخروج من مصر، ما هو إلاّ رابط عرضيّ، أي أنَّ هذا الخروج حدث في وقت العيد، وعلى أثر الربط التاريخي بين رتب الفصح والفطير وبين حدث الخروج، اكتسبت هذه الرتب معنى دينياً جديداً، لأنّها عبرت نحو الخلاص الذي أمنّه الله للشعب، وهكذا مهّد الفصح اليهودي للفصح المسيحي، فالمسيح، حمل الله، يذبح (يصلب) ويؤكل (العشاء السريّ) في إطار الفصح اليهوديّ (أسبوع الآلام) وهو يؤمِّن الخلاص للعالم، ويصبح التجديد السرِّي لعمل الفداء هذا مركز الليترجيَّة المسيحيَّة، وهي تنظّم حول القدّاس، بصفته ذبيحة ومائدة (الكتاب المقدَّس، العهد القديم)، (دار المشرق، بيروت ١٩٩١) حاشية صفحة ١٧٠

يدع المبيد[1] يدخل بيوتكم ضارباً. وتحفظون هذا الامر فريضة لكم ولبنيكم للأبد. وإذا دخلتم الأرض يعطيكم الرَّبّ إيّاها كما قال، تحفظون هذه العبادة، وإذا قال لكم بنوكم: ما هذه العبادة في نظركم؟ تقولون: هي ذبيحة الفصح للربّ الذي عبر من فوق بيوت بني إسرائيل بمصر، حين ضرب مصر وأنقذ بيوتنا». فانحنى الشعب ساجداً، وذهب بنو إسرائيل ففعلوا كما أمر الرَّبّ موسى وهارون[2]. كذلك فعل بنو إسرائيل جميعهم كما أمر الرَّب موسى وهارون فيما يختصّ بأحكام الفصح[3]، والفطير[4]، والأبكار[5].

وقبل ان يشدّ العبرانيُّون الرِّحال للخروج من مصر، «فعلوا كما أمر موسى، فطلبوا من المصريِّين أواني من فضَّة وأواني من ذهب وثياباً، وأنال الربُّ الشعب حظوة في عيون المصريِّين، فأعاروهم إيَّاها، وهكذا سلبوا المصريِّين[6]».

الخـــروج مـن مـــصـــر

إنّ تحديد مسار خروج العبرانيِّين من مصر وتحديد مراحله أمر صعب، ففي سفر الخروج نفسه بعض التناقضات حول هذا المسار، فبينما ورد فيه أنَّه «لمَّا أطلق فرعون الشعب، لم يسيِّرهم الله في طريق أرض الفلسطينيِّين، مع أنَّه قريب، لأنَّ الله قال: لعلّ الشعب يندم إذا رأى حرباً فيرجع إلى مصر[7]»، ورد عدد من أسماء الأمكنة الواقعة على الطريق الذي سلكه العبرانيُّون عند خروجهم، في مكان

---

١ - في رتبة الفصح السابقة لاسرائيل، «المبيد» هو الشيطان الذي كان يجسّد الأخطار التي تهدّد القطيع والعائلة، وللحماية من ضرباته كان الناس يضعون دماً على أبواب البيوت، وكانت قديماً خيماً - المرجع السابق، ص ١٧٢.

١ - سفر الخروج، ١٢: ١ - ٢٨.

٣ - سفر الخروج، ١٢: ٤٣ - ٥١.

٤ - سفر الخروج، ١٣: ٣ - ١٠.

٥ - سفر الخروج، ١٣: ١١ - ١٦.

٦ - سفر الخروج، ١٢: ٣٥ - ٣٦؛ راجع: سفر الحكمة ١٠: ١٧.

٧ - سفر الخروج، ١٣: ١٧.

آخر من السفر نفسه، من شأنها أن تشير إلى أنّ المسير كان شمالاً، أي باتّجاه أرض الفلسطينيِّين، منها مثلاً أنّهم «رحلوا من أيليم ووصلت جماعة بني إسرائيل كلُّها إلى برِّيَّة سين التي بين إيليم وسيناء في اليوم الخامس عشر من الشهر الثاني، لخروجها من أرض مصر[1]». ممّا جعل المحقِّقين يرجّحون أنّ يكون بنو إسرائيل قد خرجوا من مصر في مجموعتين مختلفتين[2]. إنَّما الثابت أن زمن هذا الخروج، الذي به يبدأ تاريخ بني إسرائيل الحقيقيّ كشعب، قد حصل في الثلث الأخير من القرن الثالث عشر، وتحديداً، على الأرجح، في عهد مرنفتاح بن رعمسيس(١٢٢٤ - ١٢١٥)[3].

وتختلف الأرقام عند المحقِّقين في عدد بني إسرائيل الذين خرجوا من مصر، بين مكثرين يقدِّرون العدد بنحو مليونين ونصف[4]، وبين مقلِّين يقدِّرون هذا العدد بحوالى ستّة آلاف أو سبعة آلاف[5]، بينما التوراة تحدّد العدد «بنحو ست مئة ألف ماشٍ من الرجال ما عدا العيال».

على أيّ حال، تذكر المراجع العبريَّة أن «طريق بني إسرائيل الخارجين من مصر، والذاهبين إلى أرض كنعان التي وعد الله أن يملّكهم إيّاها على لسان إبراهيم، كان على أطراف بلاد العرب التي هي شرقيّ بلاد مصر والبحر الأحمر، ولكي لا يضلُّوا عن الطريق أقام لهم عموداً من سحاب ليرشدهم في مسيرهم نهاراً، وعمود نار يضيء لهم ليلاً. وإذ كانت تلك البراري المقفرة بلا نبات ولا ماء، كان الله يقيتهم بالمنِّ عوض الخبز، وبالسلوى عوض اللحم، ويأتيهم بالماء من وسط الصخرة».

---

١ - سفر الخروج، ١٦: ١.
٢ - راجع: الكتاب المقدس، العهد القديم، دار المشرق (بيروت - ١٩٩١) حاشية ص ١٧٥ (٦) و ص ١٧٩ (١).
٣ - حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ١ ص ١٩٣.
٤ - راجع، يوحنا ابكاريوس، قطف الزهور في تاريخ الدهور، المطبعة الادبيَّة (بيروت ١٩١٢) ص ٣٣.
٥ - حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ١ ص ١٩٤.

وتقول تلك المصادر أنّ بني إسرائيل، عندما وصلوا إلى ساحل البحر الأحمر، المعروف ببحر السويس، والفاصل بين مصر وبلاد العرب، كان الفرعون قد ندم على السماح لهم بالخروج من مصر، فجمع فرسانه وجنوده وتبعهم ليعيدهم إلى الذلّ والعبوديَّة، فأمر الله موسى أن يضرب البحر بعصاه، ولـمَّا ضربه، انفلق إلى قسمين، فعبر بنو إسرائيل على اليابسة حتى انتهوا إلى الشطّ الثاني، ولـمَّا حاول الفرعون أن يعبُر وراءهم، أطبق الله المياه عليه، فغرق هو وجيشه. غير أنّ بني إسرائيل، مع كلّ هذه المراحم، لم يعتبروا إحسانات الله، فعصوا وتمرَّدوا عليه، بعد أن كان قد أنزل وصاياه على موسى، وكثيراً ما تركوا عبادته وعبدوا الأصنام. فبينما كان الله متجلّياً لموسى على جبل سيناء، ألزم الشعبُ هارون، أخا موسى، أن يصنع لهم عجلاً من ذهب ليعبدوه عوضاً عن الخالق الذي أخرجهم وأنقذهم من عبوديَّة المصريِّين... فغضب الله عليهم، وأمات بعضهم بالوباء، وجعل الأرض تنشقّ وتبتلع بعضهم، وأضلّ الآخرين عن الطريق مدّة أربعين سنة، فتاهوا في البرِّيَّة، مع أنَّ المسافة بين مصر وأرض كنعان لا تزيد عن مائتين وخمسين ميلاً، وبذلك لم يدخل أحد من ذلك الجيل إلى أرض كنعان، سوى يشوع بن نون وكالب بن يفنة، أمَّا الباقون فقد ماتوا في البرِّيَّة قبل أن يدخل هذه الأرض أولادهم وأحفادهم، وموسى أيضاً لم يتمكّن من دخولها، إنَّما أراه الله تلك الأرض الواسعة من رأس جبل نبو، وهناك مات ولم يُعرف مكان قبره حتى اليوم[1].

يشوع بن نون والدخول إلى كنعان

بعد موسى، أقام الله، بحسب التوراة، يشوع بن نون للإسرائيليِّين، فقادهم إلى أرض الميعاد وأخضع لهم أهل تلك البلاد بعد قتل ملوكها وإحراق مدنها.

---

١ ـ سفر الخروج، ١٢ : ٣٨؛ قابل: سفر العدد، ١ : ٢١ وما بعده، و ٢ : ٤ وما بعده؛ راجع: سفر الخروج، الفصول ١٤ إلى ٤٠؛ سفر العدد، الفصول ١١ ـ ١٤، ١٦ ـ ١٧ و ٢٠ و ٣٣.

ورد أوّل ذكر ليشوع في التوراة عندما «جاء العمالقة فحاربوا إسرائيل في رفيديم، فقال موسى ليشوع: - إختر لنا رجالاً واخرج لمحاربة العمالقة، وغداً أنا أقف على رأس التلّ وعصا الله في يدي. - ففعل يشوع كما قال له موسى في أمر محاربة العمالقة. أمّا موسى وهارون وحور فصعدوا إلى رأس التلّ. فكان إذا رفع موسى يده، يغلب بنو إسرائيل، وإذا حطّها، تغلب العمالقة، ولمّا ثقلت يدا موسى، أخذا حجراً وجعلاه تحته، فجلس عليه وأسند هارون وحور يديه، أحدهما من هنا والآخر من هناك، فكانت يداه ثابتتين إلى مغيب الشمس، فهزم يشوع عماليق وقومه بحدّ السيف. وقال الرَّب لموسى: - أكتب هذا ذكراً في كتاب، وضع في أذنَي يشوع أنّي سأمحو ذكر عماليق محواً من تحت السماء[١] -».

بعد ذلك الحدث، أصبح ذكر يشوع يرد في التوراة بوصفه مساعداً لموسى، فعندما «قال الرَّبّ لموسى: - إصعد اليّ إلى الجبل وأقم هنا حتَّى أعطيك لَوحَي الحجارة والشريعة والوصيَّة التي كتبتها لتعليمهم. - قام موسى ويشوع مساعده وصعد موسى إلى جبل الله، وقال موسى للشيوخ: - إنتظرونا ههنا حتى نرجع إليكم، وهوذا هارون وحور معكم، فمن كانت له قضيّة فليتقدّم إليهما، - وصعد موسى الجبل[٢]» حيث أقام أربعين يوماً بلياليها قبل أن يكلِّمه الرَّبّ في العهد بين الله وشعبه.

ولقب «مساعد» الذي أطلقته التوراة على يشوع بن نون في بداية أمره، هو اللقب الذي يُطلق عادة للدلالة على الوظائف الطقسيَّة، كما يُطلق أيضاً على موظَّفي الملِك[٣]، وهو لقب أشرف مرتبةً من لقب «عبد» إلاّ في عبارة عبد الله.

وهكذا، فقد كان يشوع، بعد العبور من مصر إلى البرِّيَّة، ملازماً لموسى

---

١ - سفر الخروج، ١٧: ٨ - ١٤.
٢ - سفر الخروج، ٢٤: ١٢ - ١٦.
٣ - راجع: سفر الاخبار الاول، ٢٧: ١.

الذي « إذا رجع إلى المخيَّم، كان مساعده يشوع بن نون الفتى لا يبرح من داخل الخيمة[1] ». وعندما أحلّ الرَّبّ على الشيوخ السبعين من الرُّوح الذي كان على موسى، وجعلهم يتنبَّأون، ومنهم « ألداد » و « ميداد » اللذان راحا يتنبآن في المخيّم « أسرع فتى وأخبر موسى وقال: - إنَّ ألداد وميداد يتنبآن في المخيَّم » فأجاب يشوع بن نون، وهو مساعد موسى منذ حداثته، وقال: - يا سيِّدي، يا موسى، إمنعهما -، فقال له موسى: - ألعلَّك تغار أنت لي؟ ليت كلّ شعب الرَّبّ أنبياء بإحلال الرَّبّ روحه عليهم[2] - ».

وعندما « كلَّم الرَّبّ موسى قائلاً: - أرسل رجالاً يستطلعون أرض كنعان التي أنا معطيها لبني إسرائيل، رجلاً واحداً من كلّ سبط من أسباط آبائهم ترسلون، كلّ واحد يكون رئيساً من بينهم » كان هوشع بن نون، هو الرجل الذي أرسله موسى عن سبط أفرائيم مع الأحد عشر رجلاً عن باقي الأسباط[3].

حتّى ذلك التاريخ، كان اسم يشوع: هوشع، إلاَّ أنَّ موسى يومها « أطلق على هوشع بن نون إسم يشوع[4] ».

ولمَّا عاد المستطلعون الإثنا عشر من استطلاع أرض الأردنّ بعد أربعين يوماً، وقدّموا إلى بني إسرائيل تقريرهم الذي أفاد عن أنَّ الأرض تدرّ بالحقيقة لبناً وحليباً وعسلاً، وثمرها طيّب وكريم، « غير أنَّ الشعب السَّاكن فيها قويّ والمدن محصنَّة جدّاً،... والعماليق يقيمون بأرض النقب، والحثِّي واليبوسيّ والأموريّ بالجبل، والكنعانيّ عند البحر وعلى ضفّة الأردنّ... رفعت الجماعة كلُّها صوتها

---

١ - سفر الخروج، ٣٣: ١١.

٢ - سفر العدد، ١١: ٢٥ - ٢٩.

٣ - سفر العدد، ١٣: ٢ - ١٥.

٤ - سفر العدد، ١٣: ١٦؛ معنى اسم يشوع: « يهوه يخلّص ». وقد أطلق هذا الاسم على شخصيات أخرى في الكتاب المقدّس، فأصبح في زمن العهد الجديد « يسوع » عند اليهود الناطقين باليونانيَّة (راجع: الرسالة إلى العبرانيّين، ٤ - ٨) وهذا ما ساعد المسيحيين الأولين على المقارنة بين عمل يسوع كمخلّص وعمل يشوع الذي قاد شعبه إلى أرض الميعاد.

وصرخت، وبكى الشعب في تلك الليلة، وتذمّروا على موسى وهارون وقالوا لهما: يا ليتنا متنا في أرض مصر.. يا ليتنا متنا في هذه البرِّيَّة! لماذا أتى الرَّبّ بنا إلى هذه الأرض حتى نسقط تحت السيف وتصير نساؤنا وأطفالنا غنيمة؟ أليس خيراً لنا أن نعود إلى مصر؟... وقال بعضهم لبعض: ـ لنُقم رئيساً ونعد إلى مصر ـ وهنا سقط موسى وهارون على وجهيهما أمام جمهور جماعة بني إسرائيل كلّه، وأمَّا يشوع بن نون وكالب بن يفنا ممَّن استطلعوا الأرض، فمزَّقا ثيابهما، وكلَّما جماعة بني إسرائيل كلَّها قائلين: ـ إنَّ الأرض التي مررنا بها لنستطلعها أرض جيِّدة جداً جداً. فإن كان الرَّبّ راضياً عنَّا، فإنَّه يدخلنا إلى هذه الأرض ويهبها لنا أرضاً تدرّ لبناً حليباً وعسلاً. لكن على الرَّبّ لا تتمرَّدوا، ولا تخافوا شعب هذه الأرض، فإنَّه طعام لنا وقد زال عنه ظلّ حمايته، والرَّبّ معنا فلا تخافوا ـ». إلاَّ أنَّ ردّ الجماعة كلِّها كان بالمطالبة برجم يشوع وكالب، مما أغضب الرَّبّ وجعله يقرّر ضرب بني إسرائيل بالوباء[1]، وأبلغ إلى موسى أنَّه في «هذه البرِّيَّة تسقط جثثكم، كلّ المحصين منكم بحسب عددكم، من ابن عشرين سنة فصاعداً... لن تدخلوا الأرض التي رفعت يدي مقسماً أن أسكنكم فيها، إلاَّ كالب بن يفنا ويشوع بن نون وأطفالكم الذين قلتم أنَّهم يصيرون غنيمة، إيَّاهم، أُدخل الأرض التي رذلتموها، وهم سيعرفونها، وأمَّا جثثكم أنتم فستسقط في هذه البرِّيَّة، وبنوكم يكونون رعاة في البرِّيَّة أربعين سنة ويحملون زناكم إلى أن تفنى جثثكم فيها[2]...».

ثمّ لمَّا قررَّ الرَّبّ وضع نهاية لحياة موسى نفسه، إذ قال له: «إصعد إلى جبل العباريم هذا، وانظر إلى الأرض التي أعطيتها لبني إسرائيل، فإذا رأيتها، انضممت إلى أجدادك أنت أيضاً، كما انضمَّ هارون أخوك، لأنَّكما عصيتما أمري

---

١ - راجع سفر العدد، ١٣: ٢٥ ـ ٣٣، ١٤: ١ ـ ١٢.
٢ - سفر العدد، ١٤: ٢٦ ـ ٣٣.

في برِّيَّة صينَ عند خصومة الجماعة، ولم تعلنا قداستي بالمياه على عيونهم»، انصاع موسى لكلام الربِّ، وردّ قائلاً: «ليوكّل الرَّبّ، إله أرواح كلّ بشر، رجلاً على الجماعة، يخرج أمامهم ويدخل أمامهم ويخرجهم ويدخلهم لئلاّ تبقى جماعة الرَّبّ كغنم لا راعي لها». وإذ أشار موسى بهذا الكلام إلى تعيين الرئيس في قلب الجماعة، قال الرَّبّ لموسى: «خذ لك يشوع بن نون، فإنَّه رجل فيه روح، وضع يدك عليه، وأوقفه أمام ألعازار الكاهن والجماعة كلّها وأوصه بحضرتهم واجعل عليه من مهابتك، لكي تسمع له جماعة بني إسرائيل كلّها، يقف أمام ألعازار الكاهن، فيطلب له قضاء الأوريم[1] أمام الرَّب، فبأمره يخرجون وبأمره يدخلون، هو وجميع بني إسرائيل معه وكلّ الجماعة». وفعل موسى كما أمره الرَّبّ، فأخذ يشوع وأوقفه أمام ألعازار الكاهن، وكلّ الجماعة، ووضع عليه يديه وأوصاه كما قال الرَّب[2]».

ومن تدابير موسى الأخيرة قبل وفاته، أنَّه «مضى وكلّم إسرائيل كلّه، فقال: «أنا اليوم ابن مئة وعشرين سنة، فلم أعد أستطيع الخروج والدُّخول، وقد قال لي الرَّبّ: إنَّك لن تعبر هذا الأردن، فالرَّبّ إلهك يعبر أمامك، وهو يبيد تلك الأمم من أمامك فترثها، ويشوع هو يعبر أمامك، كما قال الرَّبّ...»

ثمَّ دعا موسى يشوع وقال له أمام عيون إسرائيل كلّه: «تشدَّد وتشجَّع، فإنَّك أنت تُدخل هذا الشعب الأرض التي أقسم الرَّبّ لآبائهم أن يعطيهم إيّاها، وأنت تورثهم إيّاها...» وكتب موسى الشريعة، وسلّمها إلى الكهنة بني لاوي، حاملي تابوت عهد الرَّبّ، وسائر شيوخ إسرائيل... لتُقرأ على مسمع من إسرائيل كلّه بعد سبع سنوات[3].

---

١ - الاوريم: كلمة غامضة المعنى، تشير إلى أدوات كانت تستعمل لمعرفة إرادة الله. راجع: سفر صموئيل الاول، ٢٨ : ٦؛ سفر الخروج، ٢٨ : ٣٠؛ سفر الاحبار، ٨:٨.

٢ - راجع: سفر العدد، ٢٧ : ١٢ - ٢٣.

٣ - راجع: سفر تثنية الاشتراع، ٣ : ٢١، ٣١ : ٧ - ٨ و ١٤ و ٢٣.

«وبعد أن قرأ موسى على إسرائيل نشيده الذي أنزله عليه الرَّبّ، صعد إلى جبل نبو، إلى قمَّة الفسجة، تجاه أريحا، فأراه الرَّبّ الأرض كلّها: من جلعاد إلى دان ونفتالي كلّها وأرض أفرائيم ومنسّى، وأرض يهوذا كلَّها، إلى البحر الغربيّ[1] والنقب وناحية وادي أريحا، مدينة النخل، إلى صوعر[2] ...» وبحسب التوراة أنّ الرَّبّ قال لموسى هناك: «هذه هي الأرض التي أقسمت لإبراهيم وإسحق ويعقوب قائلاً: لنسلِك أُعطيها، قد أَريتُك إيَّاها بعينيك ولكنَّك إلى هناك لا تعبر». وهناك مات موسى.

أمَّا يشوع بن نون، فمُلئ روح حكمة، لأنَّ موسى وضع عليه يديه، فأطاعه بنو إسرائيل، وعملوا كما أمر الرَّب موسى[3].

هذا هو يشوع بن نون، الذي «كلَّمه الرَّبّ بعد وفاة موسى، قائلا: إنَّ موسى عبدي قد مات، فقُم الآن واعبر الأردنّ هذا، أنت وكلّ هذا الشعب، إلى الأرض التي أنا معطيها لبني إسرائيل من البرِّيّة ولبنان هذا إلى النهر الكبير، نهر الفرات، كلّ أرض الحثِّيِّين، وإلى البحر الكبير الذي في جهة مغارب الشمس، تكون أراضيكم[4]».

ما أن آلت قيادة إسرائيل إلى يشوع بن نون حتّى أمر الشعب بإعداد الزاد لعبور الأردنّ بعد ثلاثة أيّام، وأمر الرأوبينيِّين والجاديِّين ونصف سبط منسّى بأن يعبروا مسلَّحين أمام باقي الأسباط لأنّ أرض عبر الأردنّ ستكون لهم، وكان عدد مقاتلي هؤلاء نحو أربعين ألفاً، ساروا مباشرة خلف الكهنة حاملي تابوت العهد،

---

١ - البحر الابيض المتوسط.

٢ - جنوبي البحر الميت. راجع سفر التكوين، ١٩: ٢٢.

٣ - راجع: سفر تثنية الاشتراع، ٣٤: ١ - ٥ و ٩.

٤ - سفر يشوع، ١: ١ - ٥؛ إنَّ الحدود المعيَّنة للارض التي ستفتح (راجع: سفر التكوين، ١٥: ١٨؛ سفر التثنية ١: ٧ و ١١: ٢٤؛ سفر القضاة ١: ١ وما بعدها) هي الحدود «المثالية لأرض الميعاد»، من الزاوية الاسرائيلية، وهي تفوق كثيراً حدود الارض التي ذكرت في فصول أخرى، (راجع: سفر يشوع، الفصول ١٣ - ١٩).

واجتازوا النهر في مقدّمة سائر الأسباط، وقد توقّف مجرى نهر الأردنّ حتّى «انتهى كل الشعب من العبور[1]».

وبعد أن حصل هؤلاء على محطّ رجل في الأرض المزروعة، ما لبثوا أن حاصروا أريحة، بالتطواف حولها، خلف تابوت العهد، وسط الشعائر الدينيّة، فسقطت المدينة بين أيديهم بعد سبعة أيام، فأبادوا أهلها وأحرقوها، ولم ينجُ من أهل أريحة سوى امرأة زانية اسمها راحاب، هي وأهلها، فقد أمر يشوع بن نون بالعفو عنها لأنّها أسعفت جاسوسَين إسرائيليَّين كان قد أرسلهما يشوع إلى أريحة قبل الفتح.

بعد أريحة، هاجم بنو إسرائيل مدينة العيّ، بقيادة يشوع، فأسروا ملكها الأموريّ، وأبادوا شعبها بحدّ السيف[2]، ثمّ أُعدم الملك مشنوقاً على شجرة، وأحرقوا المدينة «وجعلوها ركاماً إلى الأبد[3]».

أمام هذا الواقع، تحالف ضدّ العبرانيّين ملوك الحثّيّين[4] والأموريّين[5] والكنعانيّين والفرزيّين والحويّين[6] واليبوسيّين[7]، إلاّ أنّ بني إسرائيل قد أمّنوا أهل جبعون[8]

---

١ ـ سفر يشوع، ٤: ١١ ـ ١٨.
٢ ـ العيّ، ومعناها «الخراب» هي بلدة «تلّ» اليوم. ويذكر سفر يشوع أن عدد الذين أبادهم بنو إسرائيل في العيّ، كان اثني عشر ألفاً من الأموريّين وهم جميع أهل العيّ (يشوع، ٨: ٢٥) وقد سقط لبني إسرائيل نحو ستة وثلاثين رجلاً (يشوع، ٧: ٥).
٣ ـ سفر يشوع، ٨: ٢٨ ـ ٢٩.
٤ ـ الحثّيُون، هنا، هم شعب من آسية الصغرى يُطلق اسمه في غير محلّه، على مجموعة فلسطينيّة غير ساميَّة.
٥ ـ الأموريُّون موجة سامية لاحقة للكنعانيّين، قدمت إلى هذه المنطقة في أواخر الألف الثالث ق.م.
٦ ـ الفرزيُّون والحويُّون لهم، في التوراة، منزلة وضيعة. وهم من الشعوب الساميَّة التي كانت قد استوطنت هذه الأرض.
٧ ـ اليبوسيُّون هم سكان أورشليم الاقدمون.
٨ ـ مدينة قديمة تقع شمالي أورشليم يرجَّح أن موقعها في مكان بلدة الجبّ الحالية، وقد اشتهرت ببئرها العميقة.

واستعبدوهم، مما أثار حفيظة سائر الملوك الأموريّين فتحالف خمسة منهم: أدوني صادق ملك أورشليم، ومعه ملوك حبرون (الخليل) ويرموث ولاكيش وعجلون، وهاجموا جبعون التي استنجدت بيشوع بن نون الذي لبّى طلب النجدة، وقد انهزم الملوك الخمسة أمام القائد الإسرائيليّ الذي تمكّن من أسرهم جميعاً، ثمّ أعدمهم بحدّ سيفه بعد أن أمر «قوّاد رجال حربه بأن يضعوا أقدامهم على رقابهم» وهم أحياء «فهكذا يفعل الرَّبّ بجميع أعدائكم الذين أنتم تحاربونهم[1]».

ومع أنّ سفر يشوع ينسب إلى ابن نون أنّه «ضرب المنطقة كلّها، الجبل والنقب والسهل والسفوح، وجميع ملوكها، ولم يبقِ باقياً... من قادش برنيع إلى غزّة، مع كلّ أرض غوشن إلى جبعون[2]»، فإنَّ بعض المحقّقين يرون أنّه «لا يمكن أن يُنسب فتح حبرون ودبير إلى يشوع، وأنّ لبنة ولاكيش وعجلون لم تصبح في حوزة الأسباط الاّ بعد ذلك بوقت طويل[3]».

ويظهر من دراسة التوراة أنّ سفر يشوع قد أعطى يشوع بطولة فتح جنوبيّ أرض الميعاد كلّه، ثم فتح شماليها كلّه، مع أنَّ هذا لا يتّفق مع بعض المقاطع من السفر نفسه، ولا مع الجدول الذي في سفر القضاة، حيث يظهر أنّ الفتح كان بطيئاً، وغير كامل، وأنّ كلّ سبط كان له عمل مستقلّ، وهذه الرؤية أكثر موافقة للتاريخ.

فبعد أن نسب سفر يشوع إلى يشوع فتح كلّ الجنوب، ينسب إليه فتح الشمال، ومنه: حاصور[4] التي «ضرب كلّ نفس فيها بحدّ السيف... ولم تبقَ نسمة، إلاّ وأحرقها بالنار[5]»، وكذلك فعل بمادون، وشمرون، وأكشاف، وسائر

١ - سفر يشوع، ١٠: ٢٥.
٢ - سفر يشوع، ١٠: ٤٠ - ٤٢.
٣ - الكتاب المقدّس، العهد القديم، دار المشرق (بيروت ١٩٩١) حاشية ص. ٤٣٨ (٤).
٤ - جنوب غربي بحيرة الحولة. وقد دلّت الحفريات في تلّ حاصور على أنّ هذه المدينة الكبيرة قد دمّرت تماماً وأُحرقت في زمن وصول العبرانيّين إليها.
٥ - سفر يشوع، ١١: ١٢.

مدن الشمال في الجبل وفي العربة وفي جنوبيّ كنروت، وفي السهل وفي سفوح دور غرباً، وإلى الكنعانيّ شرقاً وغرباً، والأموريّ والحثّيّ والفرزيّ واليبوسيّ في الجبل، والحويّ تحت حرمون في أرض المصفاة... بعد تحالف ملوك جميع هذه الممالك ضدّ العبرانيّين، وخرجوا بكلّ جيوشهم وعسكروا عند مياه ميروم[1] لمحاربة إسرائيل. وقد تمكّن يشوع بحسب سفره، من الاستيلاء على جميع مدن أولئك الملوك مع ملوكها « وضرَبهم بحدّ السيف، وحرَّمهم. فأمَّا المدن الواقعة على تلالها فلم يحرقها إسرائيل بالنار، إلاَّ حاصور وحدها فأحرقها يشوع، وجميع غنائم تلك المدن وبهائمها، اغتنمها بنو إسرائيل لأنفسهم. وأمَّا البشر، فضربوهم جميعاً بحد السيف حتَّى أبادوهم ولم يُبقوا نسمة[2] ».

وقد اعتبرت التوراة أنّ أسباب هذه الإبادة، إنَّما تعود إلى أنّ الفتح حرب مقدَّسة، ويجب تطهير أرض الرَّبّ من كلّ وجود وثنيّ[3].

ولـمَّا شاخ يشوع وطعن في السنّ، لم يكن قد تمكَّن من إدخال بني إسرائيل إلى كامل أرض الميعاد، إلاَّ أنَّه تبعاً لأمر الربّ، قسّم كامل أرض الميعاد بين أسباط إسرائيل الأحد عشر بالقرعة، وأبقى على قبيلة لاوي الكهنوتيّة موزَّعة بين سائر القبائل لتهتَّم بشؤونها الدينيَّة. وهكذا سكنت قبيلتا يهوذا وبنيامين في الأراضي المرتفعة، حول أورشليم، بينما استقرَّت القبائل الأخرى في السهول الأكثر خصباً في الشمال[4].

وكان بعد أن سيطر العبرانيّون على تلك المناطق بقيادة يشوع، قد انضمّ إليهم أقاربهم الذين كانوا لا يزالون في تلك البلاد، ولم يهاجروا إلى مصر، وقبل

---

١ - قد تكون تلّ الخريبة الواقعة غربي حاصور.
٢ - سفر يشوع، ١١: ١٠ - ١٤.
٣ - راجع: سفر تثنية الاشتراع، ٧: ٢ وما بعدها، ٢٠: ١٦ - ١٨.
٤ - راجع: سفر العدد، ٣٢: ١ - ٤٢؛ سفر تثنية الاشتراع، ٣: ١٢ - ٢٠؛ و ٣٣: ٦ و ٢٠؛ سفر يشوع، ١: ١٢ - ١٨ و ١٣: ٨ - ٣٢.

أن يُنهي يشوع أيّامه، جمع كامل أسباط بني إسرائيل في شكيم، التي كان إبراهيم قد بنى فيها مذبحاً[١]، واكتسب فيها يعقوب حقوقاً بشرائه حقلاً فيها[٢]، ودفن فيها الأصنام التي جاءت من بلاد ما بين النهرين[٣]، إضافة إلى أنّ موقعها المركزيّ يُعَدُّ مكاناً مناسباً لتجمُّع الأسباط.

في ذلك الإجتماع الكبير، عرض يشوع على بني إسرائيل تدخّلات الرَّبّ لخير المؤمنين به[٤]، فأعلنت جماعة إسرائيل أنّها مع الرَّبّ على الآلهة الغريبة[٥]. وإذ كان من بين الحاضرين جماعات لم تكن قد سمعت بالربّ، لأنّها لم تكن في مصر، ولم تستفد من معجزات الخروج ووحي جبل سيناء، وهذه الجماعات يجب أن تكون أسباط الشمال، فقد قطع الحاضرون العهد الذي دُوِّنت شريعته[٦]، فأصبحت هذه القبائل بذلك «جزءاً من شعب الله».

بعد الاجتماع الكبير، صرف يشوع بن نون الشعب «كلَّ واحد إلى ميراثه»، ولم يلبث «يشوع أن مات وهو ابن مئة وعشر سنين، فدفنوه في أرض ميراثه، في تمنة سارح التي في جبل أفرائيم، إلى شمال جبل جاعش[٧]».

وقبل أن تنتهي حياة يشوع بن نون، كان بنو إسرائيل قد دفنوا رفاة يوسف التي نقلوها معهم من مصر، في شكيم، بحسب وصيّته. وكان قد مات ألعازر بن هارون، فدفنوه في جبعة[٨].

وهكذا، فقبل موت يشوع، كانت قد اكتملت عودة بني إسرائيل من مصر تماماً.

---

١ - سفر التكوين، ١٢ : ٦ - ٧.
٢ - سفر التكوين، ٣٣ : ١٨ - ٢٠.
٣ - سفر التكوين، ٣٥ : ٢ - ٤.
٤ - سفر يشوع، ٢٤ : ٢ - ١٣.
٥ - سفر يشوع، ٢٤ : ١٤ - ٢٤.
٦ - سفر يشوع، ٢٤ : ٢٥ - ٢٨.
٧ - سفر يشوع، ٢٤ : ٢٩ - ٣٠.
٨ - سفر يشوع، ٢٤ : ٣٢.

الفصل الرابع

عصر القضاة

- مَنْ هم القضاة؟
- الفلسطينيّون
- أخبار القضاة
- شمشون

إنّ انتقال القيادة الذي حصل من موسى إلى يشوع، بالطريقة الربّانيّة، التي أدّت إلى تسمية خليفة قائد بني إسرائيل قبل موته، لم تحصل عند وفاة يشوع بن نون، الذي اكتفى بتوصية شعبه باتّباع التوراة وعدم خيانة الربّ بعد أن جعل لكلّ من أسباطه نوعاً من الحكم الذاتيّ. لذلك فإنّ المرحلة الواقعة بين نهاية قيادة يشوع المقدّر تاريخها بحوالى سنة ١٢٠٠ ق.م.، وتاريخ قيام النظام الملكيّ عند العبرانيّين في حوالى ١٠٢٠ق.م.، تُعتبر من أشدّ مراحل تاريخ الشعب الإسرائيليّ غموضاً، وهي المرحلة التي عُرفت، إصطلاحاً عند العبرانيّين، بعصر القضاة.

ويبقى سفر القضاة، بالرغم من الغموض القائم حول تأليفه، المرجع الوحيد لهذه الحقبة الزمنيّة عبرانيّاً. وفي هذا السفر، نجد أننا أمام قصص جماعات بشريّة تظهر فيها صلات قرابة أو عداوة بين بعض الأسباط، وأمام أخبار معارك دارت للمحافظة على الأراضي التي تمّ الحصول عليها. وبالرغم من تقطّع تلك القصص وعدم مراعاة كتّابها لأيّ ترتيب زمنيّ، فإنّ ما فيها من أخبار يساعدنا على تكوين فكرة معيّنة عن زمن القضاة، وهي لوحة تاريخيّة لبعض الأسباط، ليس فيها ما يسمح بالجزم بوجود وحدة سياسيّة فيما بينها، ولو بشكل تحالف بين الأسباط الإثني عشر.

وقبل الدخول في «زمن القضاة» لا بدّ من التساؤل: من هم القضاة؟ ولماذا سُمّوا بالقضاة؟ وهل كان هؤلاء قضاة بالمعنى الذي نفهمه اليوم من الكلمة؟

يتّضح من دراسة سفر القضاة، عدم ورود لقب «القاضي» في النصوص، لقباً للواحد من «القضاة»، حتّى إنّ هذا اللفظ لم يرد في صيغة الجمع: «قضاة» إلاّ في فصل واحد للدلالة على الذين اختارهم الله ليخلّصوا شعبَه[١]. ولكنّ الحقبة السابقة

---

١ ـ سفر القضاة، ٢ : ١٦ ـ ١٨

للملكيّة، قد وُصفت في التقليد الكتابيّ بـ «زمن القضاة» في غير سفر من التوراة[1]. ومع ذلك، فإذا كان لقب «القاضي» غير وارد في الروايات، فكثيراً ما نجد فعل «قضى» لوصف ما يعمله «القضاة»[2] دون أن يعني هذا الفعل «إجراء العدل» فقط، بل «القيادة والحكم» أيضاً[3].

ويرى بعض المحققين[4] في سفر القضاة، أنّه «إذا صحّ أنّ بعض الأشخاص قد أجروا القضاء في إسرائيل، فليس من الثابت أنّ جميع من تُروى مآثرهم كان لهم هذا المنصب، فهناك فعل آخر يصف عمل الذين نسمّيهم قضاة، وهو فعل «خلّص[5]»، وبحسب هذه النظرة، يُسمّى عتنيئيل وأهود، وهما من القضاة، «مخلّصَين[6]». فالله، وعلى وجه أعمّ، هو الذي يخلّص شعبه باختياره رجلاً يحقّق هذا الخلاص فعلاً[7]. فلدينا إذاً هنا ازدواج لعبارتين من الراجح جدّاً أنّه يشير إلى إزدواج لنظريّتين تُبرزهما قراءة «سفر القضاة» المرجع الوحيد لزمن القضاة.

فلقد كان هؤلاء القضاة في الواقع أبطالاً وحكّاماً «وطنيّين» ظهروا بصورة عفويّة في أيّام الشدّة، وقادوا شعبهم ضدّ الأعداء المجاورين والحكّام الأجانب[8]. وقد شملت عهدَهم، فترة الاستيطان في أرض كنعان، حيث كان الفلسطينيّون أقوى المنافسين الذين كان على العبرانيّين أن يقاتلوهم في تلك الحقبة لامتلاك البلاد.

---

١ - سفر صموئيل الثاني، ٧ : ١١؛ سفر الملوك الثاني، ٢٣ : ٢٢؛ سفر راعوت، ١ : ١

٢ - سفر القضاة، ٣ : ١٠ و ٤ : ٤ و ١٠ : ١ - ٥ و ١٢ : ٧ و ٨ : ١٥ و ١٥ : ٢٠ و ١٦ : ٣١

٣ - الكتاب المقدّس، العهد القديم، دار المشرق، (بيروت ١٩٩١) مدخل إلى سفر القضاة، ص ٤٦٣ - ٤٦٤

٤ - المرجع السابق، ص ٤٦٤

٥ - سفر القضاة، ٣ : ٣١ و ٦ : ١٥ و ١٠ : ١

٦ - سفر القضاة، ٣ : ٩ و ١٥

٧ - سفر القضاة، ٣ : ٩ و ٦ : ٣٦ - ٣٧ و ٧ : ٧ و ١٠ : ١٣

٨ - حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ١، ص ١٩٥

كان الفلسطينيّون أشدَّ الشعوب التي كان على العبرانيّين أن يقاتلوها للسيطرة على البلاد. أصل الفلسطينيّين من «كفتور»، والرّاجح أنّها كُريت الحاليّة. وهم ينتمون إلى «شعوب البحر» التي تدفّقت إلى أبواب مصر حيث صدّها رعمسيس الثالث (نحو ١١٩٨- ١١٦٦ ق.م.)، وبعد أن فتح العبرانيّون المرتفعات الوسطى بقليل، سيطر الفلسطينيّون على البلاد الساحليّة، التي صارت تسمّى «فلسطيا Philistia». واستقرّت مجموعة أخرى من جماعات المهاجرين من البلاد الإيجيّة، تسمّى «التجكر Tjeker» في «دور» جنوبيّ جبل الكرمل.

سيطرت هذه الشعوب بصورة دائمة على الساحل الممتدّ من غزّة حتّى جنوبيّ يافة. ومن أهمّ المدن التي استوطنوها أنذاك: غزّة، وعسقلان، وأشدود، وعقرون، وجتّ، وكان الكرمل الحدّ الفاصل بين بلادهم الساحليّة وبلاد الفينيقيّين في الشمال. وبينما اقتصرت مستعمرات الفلسطينيّين على مدينتَي اللدّ وصقلغ، فقد توسّعوا إلى داخل البلاد باستيلائهم على عدد من المدن الكنعانيّة ونزع سلاح أهاليها. أمّا اختيارهم لمدن الساحل والتلال المشرفة عليها لتكون مقرّاً دائماً لسكناهم، فسببه يعود إلى أنّهم كانوا من الشعوب التي تستند في أساس نشاطاتها إلى القرصنة البحريّة.

وتدلّ الرسوم التي وجدت في بعض آثارهم، وكذلك نماذج الخزف الذي أدخلوه معهم لدى قدومهم من جزيرة كريت، على أن الفلسطينيّين أوربيّو الأصل.

كانت السيادة بين المدن الفلسطينيّة لمدينة أشدود، التي كانت ترئس اتّحاد مدنهم. وبلغ الفلسطينيّون ذروة قوّتهم في النصف الثاني من القرن الحادي عشر، إذ «كسروا العبرانيّين حوالى سنة ١٠٥٠ ق.م. وأخذوا منهم تابوت العهد وحملوه إلى أشدود[١]» وخضع بعض العبرانيّين لحكم الفلسطينيّين أربعين سنة[٢].

---

١ ـ سفر صموئيل الاول، ٥ : ١

٢ ـ سفر القضاة، ١٠ ـ ٧ و ١٣ ـ ١

ويذكر بعض المحقّقين أنّ «الذي جعل الفلسطينيّين متفوّقين بصورة خاصّة على أعدائهم في هذه الحقبة من التاريخ، هو تفوّق سلاحهم الذي كان مصدره معرفة الصَّهر واستخدام الحديد لأجل أسلحة الدفاع والهجوم... وقد استثمر الفلسطينيّون معرفتهم في صهر الحديد واستخدامه حتّى إنّهم احتكروها. وكان الإسرائيليّون الذين يريدون تحديد آلاتهم الزراعيّة وأدواتهم القاطعة يضطرّون إلى أن يذهبوا إلى حدّادين فلسطينيّين. وكان هذا العائق الكبير في أيّام الحرب كما اتّضح مما جرى في عهد شاول[1]». إلاّ أنّ الكنعانيّين الذين تعلّموا من الفلسطينيّين استخدام المركبات الحديديّة، هم الذين سوف يتفوّقون تفوّقاً حاسماً على الغزاة الاسرائيليّين فيما بعد[2].

أما الإسرائيليّون فلم يحصلوا على معرفة صهر الحديد المعقّدة إلاّ في حوالى منتصف القرن العاشر ق.م. أيّام حكم داود، حين ضعفت سلطة الفلسطينيّين على البلاد[3].

ذاب الفلسطينيّون مع الزّمن بأهل البلاد من كنعانيّين وأموريّين، حتّى لم يعد بالإمكان تمييزهم عنهم. وفي منتصف القرن الخامس، لم يعد للفلسطينيّين ذكر كشعب مستقلّ عن الساميّين، وإن ورد في بعض المدوّنات العائدة لتلك الحقبة ذكر لـ «الأشدوديّين» الذين كانوا يتكلّمون بلسان أشدوديّ[4].

أخبار القضاة

يُستفاد من نصُوص التوراة أنّ بني إسرائيل، بعد موت يشوع، لم يعودوا موحّدين مثلما كانوا في عهدَي موسى ويشوع، بل تفرّقوا أسباطاً، وأصبحت حروبهم حروب أسباط لا حرب أمّة.

---

١ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ١، ص ١٩٨؛ راجع: سفر صموئيل الاول، ١٧ : ٧ و ١٣ : ١٩ ـ ٢٢

٢ ـ راجع: سفر يشوع، ١٧ : ٢؛ سفر القضاة، ١ : ١٩

٣ ـ راجع: سفر أخبار أيام الاول، ٢٢ : ٣

٤ ـ راجع: سفر نحميا، ٤ : ٧ و ١٣ : ٢٤

وبغياب الرّجل الوسيط بين الربّ وشعبه، تراجع بنو إسرائيل عن عبادة الربّ، وتحوّلوا إلى الوثنيّة، فعبدوا البعل. كما أنّهم اندمجوا مع الشعوب الوثنيّة، «فأقاموا بين الكنعانيّين والحثّيّين والأموريّين والفرزيّين والحويّين واليبوسيّين، واتّخذوا بناتهم زوجات لهم، وأعطوا بناتهم لبنيهم، وعبدوا آلهتهم[١]». وهكذا كاد بنو إسرائيل يفقدون تلك الميّزة الأساسيّة التي جمعتهم في عهدَي موسى ويشوع: ميّزة الوحدة القوميّة والدينيّة، التي مكّنتهم من فتح بلاد كنعان. فقام من بينهم قائد اسمه عتنيئيل بن قناز، عدُّوه «مخلّصاً أقامه الربّ... فخلّصهم[٢]» إذ تمكّن من إحراز النصر للعبرانيّين على ملك أدوم. فعاد الإسرائيليّون إلى عبادة الربّ.

عتنيئيل بن قناز هذا، هو أوّل القضاة، الذي بعد وفاته، عاد بنو إسرائيل إلى سيرتهم الأولى، ممّا مكّن أعداءهم من استعبادهم مدّة ثماني عشرة سنة، إلى أن قام ثاني القضاة: أهود بن جيرا البنياميني، الذي بدأ كفاحه باغتيال ملك موآب الذي كان شعب إسرائيل يدفع له الجزية. ثم قاد شعبه الذي استولى على معابر الأردنّ إلى موآب، حيث قطعوها، وراحوا يصرعون كل موآبيّ يمرّ من هناك، حتّى بلغ عدد من قتلوا من الموآبيّين، بحسب التوراة، نحو عشرة آلاف رجل[٣].

خلف أهود، في سلسلة القضاة، شمجر بن عنات، الذي حارب الفلسطينيّين وأوقع منهم «ستّ مئة رجل بمنخس البقر[٤]». وإذ عاد بنو إسرائيل إلى ضلالهم، تغلّب عليهم «يابين ملك كنعان.. الذي ضيّق عليهم حوالى عشرين سنة[٥]». كان ذلك في عهد «دبورة، وهي نبيّة، وزوجة لفيدوت، وكانت متولّية قضاء بني

١ - سفر القضاة، ٣: ٥ - ٦
٢ - سفر القضاة، ١: ٩
٣ - سفر القضاة، ٣: ٢٩
٤ - سفر القضاة، ٣: ٣١
٥ - سفر القضاة، ٤: ٢ - ٣

إسرائيل، وكانت تجلس تحت نخلة دبورة، بين الرامة وبيت إيل، في جبل أفرائيم، وكان بنو إسرائيل يصعدون إليها لتقضي لهم. فأرسلت ودعت بارق بن أبينوعم، من قادش نفتالي، وقالت له: ـ أليس أنّ الربّ إله إسرائيل قد أمر أن: إمضِ وجنّد في جبل تابور وخذ معك عشرة آلاف رجل من بني نفتالي ومن بني زبولون؟ وأنا أستدرج إليك سيسَرا، قائد جيش يابين ومركباته وجنده إلى نهر قيشون، وأسلّمه إلى يدك. ـ فقال لها بارق: ـ إن أنت انطلقت معي انطلقت، وإن لم تنطلقي فلا أنطلق. ـ فقالت له: أنطلق معك، غير أنّه لا يكون لك فخر في الطّريق الذي أنت سالكه، فإنّ الربّ إلى يد امرأة يسلّم سيسَرا. وقامت دبورة فانطلقت مع بارق الى قادش، ودعا بارق زبولون ونفتالي إلى قادش، وصعد وراءه عشرة آلاف رجل، وصعدت دبورة معه[١] ».

هكذا بدأت دبورة، مع بارق، قيادة ستّ قبائل من بني إسرائيل للنصر على الكنعانيّين في الشّمال. وتنسب التوراة إلى دبورة وبارق نشيداً أنشداه في ذلك اليوم، يُعرف بنشيد دبورة، وهو من أقدم مقاطع الكتاب المقدّس الشعريّة، هو نشيد ظفَر يشيد بعمل من أعمال «الحرب المقدّسة» فيها «يحارب الربّ اعداء شعبه» و «هم أعداؤه أيضاً». ويشيد النشيد بأسباط إسرائيل التي لبّت دعوة دبورة، ويوبّخ الأسباط التي لم تخرج للقتال[٢]. وهذا ما من شأنه أن يدلّ بوضوح على تفكّك أسباط إسرائيل في ذلك التاريخ.

بعد دبورة، عاد بنو إسرائيل إلى تفكّكهم وتقهقرهم، فغزتهم قبائل بدويّة، منها المدينيّون الذين كان مركزهم شماليّ شرقيّ سيناء؛ وبنو أبيملك الذين كانوا يقيمون في جنوب فلسطين؛ وبنو المشرق، من القبائل البرّيّة التي كانت في شرقيّ الأردنّ. وكانت هذه القبائل تنهب الغلال والمواشي، ممّا أحلّ الفقر بالإسرائيليّين.

---

١ ـ سفر القضاة، ٤ : ٤ ـ ١٠

٢ ـ نشيد دبورة وبارق: سفر القضاة، ٥ : ١ ـ ٣١

هنا، يظهر الخامس من القضاة: جدعون بن يوآش الأبيعزريّ من سبط منسّى، الذي تمكّن من صدّ أولئك الغزاة ومعه ثلاثماية رجل من أسباط أشير وزبولون ونفتالي ومنسّى، وكان المدينيّون والعمالقة وبنو المشرق كالجراد كثرة، و«لم يكن لجِمالهم عدد، لأنّها كانت كالرّمل على شاطئ البحر كثرة[1]» بالرّغم من أنّ العبرانيّين لم يكونوا قد عرفوا بعد ذلك السلاح الجديد: الجمل.

في هذه الحقبة، برز أبيملك، ابن جدعون من امرأة من شكيم، إختاره كنعانيّو شكيم ملكاً، فجمع حوله بعض المناصرين، وقام بقتل إخوته السبعين ليستأثر وحده بالملك، فلم ينجُ منهم إلاّ الأصغر: يوتام، الذي تمكّن من الاختباء، فوبّخ أهل شكيم على «قتلهم أبناء أبناء (كذا) من قاتل عنهم وخاطر بنفسه في المقدّمة وأنقذهم من يد مديَن» ثم هرب بعيداً عن وجه أخيه أبيملك، الذي تبعه الإسرائيليّون (أو بعضهم). وعندما ثار أهل شكيم على أبيملك بعد وقت قصير، أقدم هذا الطاغية على تدمير المدينة وإحراقها وإبادة شعبها. ثمّ هاجم مدينة تاباص[2]، حيث قُتل «إذ ألقت امرأة رحى طاحون من أعلى برج المدينة على رأسه»، فتفرّق الإسرائيليّون الذين كانوا يتبعونه «وانصرف كلّ واحد إلى بيته[3]».

بالرّغم من أنّ التوراة تذكر أنّ «أبيملك ملَك على إسرائيل ثلاث سنوات[4]»، فإنّ التقليد الإسرائيليّ والتوراتيّ لا يعدّه من بين القضاة. أمّا الذي يعقب جدعون من بين هؤلاء، فهو «تولع»، من يسّاكر، الذي كان مقيماً بشامير بجبل أفرائيم، وهناك مات ودُفن. وقام بعده يائير الجلعاديّ الذي «كان له ثلاثون ابناً يركبون ثلاثين جحشاً، وكان لهم ثلاثون مدينة تسمّى مزارع يائير... وهي

---

١ - راجع: سفر القضاة، ٥ : ٨
٢ - هي توباص الحاليّة، على مسافة ١٥ كلم شمالي شكيم.
٣ - سفر القضاة، ٩ : ٥٥
٤ - سفر القضاة، ٩ : ٢٢

في أرض جلعاد ... ومات يائير ودُفن في قامون[١] » . إلاّ أنّ بعض المصادر يقول بأنّ هذا القاضي قد اختُلق من قبل عشيرة يائير المقيمة في جلعاد الشماليّة[٢] .

في هذه الحقبة، عاد بنو إسرائيل إلى التقهقر، فتخلّوا عن ديانتهم، وعبدوا الآلهة الوثنيّة: «البعل والعشتاروت وآلهة أرام وآلهة صيدون وآلهة موآب وآلهة بني عمّون وآلهة الفلسطينيّين»، وسيطر عليهم الفلسطينيّون والعمونيّون مدة ثماني عشرة سنة، حتّى برز يفتاح الجلعاديّ «وهو ابن امرأة زانية[٣] » اختاره القوم زعيماً لهم بسبب بسالته، وتمكّن يفتاح فعلاً من قهر العمونيّين. غير أنّ سبط أفرائيم قد حارب يفتاح من أجل سيادة إسرائيل، فتمكّن يفتاح من قهر أفرائيم برجال جلعاد . إثر هذه المعركة نصب الجلعاديّون الحواجز عند معابر الأردنّ، وراحوا يذبحون كلّ من يحاول العبور من أَفرائيم، حتّى قتلوا منهم حوالى أثنين وأربعين ألفاً[٤]، قبل أن يموت يفتاح الذي تولّى القضاء ستّ سنين، ليُدفن في مدينته جلعاد .

تولّى القضاء بعد يفتاح « إبصان من بيت لحم[٥]، وكان له ثلاثون ابناً وثلاثون ابنة، فزوّج بناته الثلاثين إلى غرباء ، وأدخل ثلاثين كنّة زوجات لبنيه. وكانت مدّة قضائه في إسرائيل سبع سنوات. ومات ودُفن في بيت لحم[٦] . ولم يذكر لنا سفر القضاة أيّ شيء عن أعمال تاسع القضاة، ولا عن نشاط خلفه « أيلون الزّبولونيّ، الذي كانت مدّة قضائه عشر سنين، وقد دُفن في أيّالون في أرض زبولون[٧] . وكذلك الأمر بالنسبة لعبدون، القاضي الحادي عشر بحسب الترتيب

---

١ - راجع: سفر العدد، ٣٢ : ٤١

٢ - سفر القضاة، ١٠ : ٦

٣ - سفر القضاة، ١١ : ١

٤ - سفر القضاة، ١٢ : ٥ ـ ٦

٥ - لم يُعرف إذا كانت بيت لحم يهوذا أم بيت لحم زبولون بالقرب من أورشليم (راجع: سفر يشوع، ١٩ : ١٥)

٦ - سفر القضاة، ١٢ : ٨ ـ ١٠

٧ - سفر القضاة، ١٢ : ١١ ـ ١٢

التوراتيّ، وهو «عبدون بن هلّيل الفرعتونيّ، الذي كان له أربعون ابناً وثلاثون حفيداً، وكانوا يركبون سبعين جحشاً، وكانت مدّة قضائه في إسرائيل ثماني سنين، وقد دُفن في فرعتون في أرض أفرائيم في جبل العمالقة[1]».

شمشون

المرجع الوحيد لتاريخ القضاة: سفر القضاة، أعطى القاضي الثاني عشر، وهو الأخير، ما لم يعطه لأيّ قاضٍ آخر. فروى سيرته كاملة، من مولده إلى موته، فجاءت سيرته بحسب السفر، لتصفه بأنّه قويّ كالجبّار، وضعيف كالولد. يفتن النساء وهنّ يخدعنه. يحتال على أهل فلسطين ولا يخلّص البلاد منهم. ويتميّز شمشون بأنّه نُذر لله من بطن أمّه، وبأنّ نذره هو مصدر قوّته[2]. وهذا ما جعله في عداد القضاة.

قبل شمشون، كان الفلسطينيّون قد حكموا بني إسرائيل مدّة أربعين سنة.

وعندما بشّر الملاك امرأة منوح من عشيرة دان، بأنّها، رغم أنّها عاقر، ستلد ابناً يكون نذيراً لله من البطن، لم يقل لها بأنّه سيخلّص إسرائيل، إنّما قال إنّه «يبدأ بخلاص إسرائيل من يد الفلسطينيّين[3]».

وُلد شمشون، وشبّ، وتزوّج من امرأة فلسطينيّة، بسببها بدأ صراعه مع الفلسطينيّين، لأنّها لم تخلص له تجاه بني قومها. وقد وردت مبالغات كثيرة في قصّة نزاعه مع الفلسطينيّين، منها أنّه أحرق حصادهم إذ «قبض على ثلاث مئة ثعلب، وأخذ مشاعل، فجعل الثعالب ذنباً إلى ذنب، وجعل بين كلّ ذنبين مشعلاً، وأوقد المشاعل وأرسلها في زرع الفلسطينيّين، وأحرق الحزم والزرع، حتى كروم

---

١ ـ كانت فرعتون في جنوبيّ غربيّ شكيم، في جبل أفرائيم الذي يقال له: جبل العمالقة؛ راجع: سفر القضاة، ١٢ : ١٣ ـ ١٥

٢ ـ سفر القضاة، ١٣ : ٤ ـ ٥

٣ ـ سفر القضاة، ١٥ : ٤ ـ ٥

الزيتون». وفي فصل آخر، إذ تجمّع عليه الفلسطينيّون يريدون قتله وهو موثوق بالحبال «إنقضّ عليه روح الربّ، فإذا الحبلان اللذان على ذراعيه كأنّما هما كتّان أُحرق بالنار، فانحلّت القيود عن يديه، ووجد فكّ حمار طريئاً، فمدّ يده وتناوله وقتل به ألف رجل[1]».

وعندما دخل على زانية في غزّة، كمنَ له أهل غزّة عند باب المدينة «وصمتوا الليل كلّه وقالوا: عند ضوء الصبح نقتله، فرقد شمشون إلى نصف الليل، إذ قام فأخذ مصراعي باب المدينة بدعامتيه، وقلعهما من المزلاج، وحمل كلّ ذلك على منكبيه وصعد به إلى رأس الجبل الذي قبالة حبرون[2]».

ولمّا أوهم المرأة التي أحبّها: دليلة، بأنّ قوّته تضعف إذا أُوثق بسبعة حبال طريئة لم تجفّ بعد، وأخبرت دليلة أقطاب الفلسطينيّين بسرّ الضعف المزعوم، جاؤوها بتلك الحبال، فأوثقته بها وهو نائم «والكمين رابض عندها في المخدع، ثمّ قالت له: الفلسطينيّون عليك يا شمشون... فقطّع الحبال كما يُقطع المشاقّة إذا أُحرق بالنار[3]». وكذلك فعل عندما أوهم دليلة بأنّ قوّته تضعف إذا أوثق بحبال لم تستعمل قطّ[4].

إلاّ أنّه في النهاية أطلع دليلة على سرّ قوته إذ قال لها: «لم يعلُ رأسي موسى، لأنّي نذير لله من بطن أمّي. فإن حُلق رأسي، فارقتني قوّتي وضعفت وصرت كواحد من النّاس». وهكذا قبض الفلسطينيّون على شمشون بعد أن حلقوا شعر رأسه وهو نائم على ركبتَي دليلة، ففقأوا عينيه ونزلوا به الى غزّة، حيث كان يدير الرّحى في السجن وهو موثوق بسلسلتين من نحاس[5].

---

١ - سفر القضاة: ١٥ : ١٤ - ١٥
٢ - حبرون على بعد ٦٠ كلم من غزّة. راجع سفر القضاة، ١٦ : ١ - ٣
٣ - سفر القضاة، ١٦ : ٦ - ٩
٤ - سفر القضاة، ١٦ : ١٠ - ١٢
٥ - سفر القضاة، ١٦ : ١٥ - ٢١

ولّما عاد شعر شمشون فنَبت، دعا الفلسطينيّون شمشون من السّجن ليسلّيهم في عيد داجون، عظيم الآلهة في منطقة الفرات الأوسط، الذي انتشرت عبادته في سورية وفلسطين، وقد تبنّى الفلسطينيّون هذا الإله ونسوا عباداتهم القديمة. وإذ كان شمشون بين الأَعمدة، وكان البيت غاصّاً بالرجال والنساء، بمن فيهم جميع أقطاب الفلسطينيّين، وعلى السطح نحو ثلاثة آلاف نسمة، تلمّس شمشون العمودَين اللذين في الوسط، والقائم البيت عليهما «وأتكأ عليهما، آخذاً أحدهما بيمينه والآخر بشماله، وقال: ـ لتمُت نفسي مع الفلسطينيّين ـ ودفع بشدّة، فسقط البيت على الأقطاب وعلى كلّ الشعب الذي فيه. فكان الذين قتلهم في موته أكثر من الذّين قتلهم في حياته[1]».

بدفن شمشون بين صرعة وأشتاؤول في قبر منوح أبيه على يد إخوته، بعد أن تولّى القضاء في إسرائيل عشرين سنة، دُفن آخر القضاة الكبار، ليطلّ على بني إسرائيل عهد جديد: المملكة المتّحدة.

---

١ ـ سفر القضاة، ١٦: ٢٢ ـ ٣٠

الفصل الخامس

المملكة العبرانيّة

- نشوء المملكة
- داود: المؤسّس الحقيقي للمملكة
- سليمان: أوّل حكماء إسرائيل

نشــوء المملكة العــبــرانية

قبل أن تنشأ الملَكيّة في إسرائيل، كان هذا الشعب يختلف عن سواه من الشعوب التي كانت تحيط به في أنّ تلك الشعوب كانت بأكثريَّتها قد عرفت نظام الملَكيّة، مثل الأدوميّين والموآبيّين والعمونيّين، أو أنّها كانت تولّي عليها أقطاباً أو أسياداً يحافظون على شكل ضعيف من أشكال الاتّحاد كما كان حال الفلسطينيّين، أو أنّها كانت منظّمة في ممالك مدن، وكان بعضها مثل بيبلوس وصيدا وصور قد تطوّر وصار يشكّل أمماً... بينما كان للعبرانيّين حتّى هذا الحين قضاة وزعماء يظهرون عندما تدعو الحاجة كما ذكرنا في الفصل السابق.

إلاّ أنّ مشكلة أساسيّة كانت تُعيق قيام نظام ملكيّ في إسرائيل. ذلك أنّ القيادة في هذا الشعب، كانت تنحصر في البداية بالأنبياء الذين كلّفهم الربّ مباشرةً تولّي تلك القيادة. هؤلاء الأنبياء، انتهوا مع يشوع بن نون، ولم تنته مع هذا الأخير عقيدة إسرائيل القائلة بأنّ لإسرائيل ملكاً، وهو الربّ. فكيف يمثّله إذاً ملك بشريّ؟

في هذا الوقت، كان لا بدّ لإسرائيل من أن يواجه الحاجة الى القيادة المركزيّة، في مواجهة الشعوب المحيطة به، وبشكل خاص، في مقاومة الفلسطينيّين الأقوياء، الذين باتوا يشكّلون الخطر الأكبر على إسرائيل.

أمام هذا الواقع، كيف تمكّن العبرانيّون من إنشاء المملكة؟

من متابعة التاريخ السابق لإسرائيل، يتبيّن أنّ عملاً كهذا، لا يمكن أن يتقبّله المجتمع إلاّ إذا كان صادراً عن الربّ، إله إبراهيم وإسحق ويعقوب، وآمر موسى ويشوع، وملهم القضاة وموجّههم أحياناً.

وإذ لم يعيّن الربّ بعد ذلك الحين قائداً، كان لا بدّ من وسيط يخاطبه الربّ ليتعيّن الملك. ذلك الوسيط، كان صموئيل[1].

---

[1] - صموئيل: إسم إيل (الله)

صموئيل هذا الذي يُذكّرنا مولده بشمشون، ابنُ وهبه الله لعاقر، هي حنّة زوجة رجل صوفيّ من الرامتائيم، أو الرامة، من جبل أفرائيم، يقال له: ألقانة بن يروحام بن أليهو بن توحو بن صوف الأفرائيمي. وكانت حنّة قد نذرت للربّ نذراً وقالت: «يا ربّ القوّات، إن أنت نظرت إلى بؤس أمَتك وذكرتني ولم تنسَ أمتك وأعطيت أمَتك مولوداً ذكراً، أُعطِه للربّ لكلّ أيّام حياته ولا يعلو رأسه موسىً[1]». فكان صموئيل يخدم الربّ منذ صغره، وراح يتسامى في الحظوة والقامة عند الله والناس، وكانت كلمة الربّ نادرة في تلك الأيّام، ولم تكن الرؤى متواترة. إلاّ أنّ صموئيل كان مميّزاً بأن ائتمنه الربّ نبيّاً، وقد علم كل إسرائيل بذلك، من دان إلى بئر سبع، فصار الربّ يتراءى لصموئيل في شيلو[2]، حيث كان يخدم الربّ.

في هذه الأثناء، كان الإسرائيليّون في الشمال ينهزمون أمام الفلسطينيّين، ولمّا نقلوا تابوت العهد من موضعه في شيلو إلى أرض المعركة، تبرّكاً، انقضّ الفلسطينيّون عليهم وقتلوا منهم عشرات الألوف وأخذوا تابوت العهد إلى أشدود، ثم نقلوه إلى بيت الإله داجون، وبعد حين نقلوه إلى جتّ، ثم إلى عقرون، فكان حيث وُضع التابوت تنزل الضربات بالناس، حتّى اضطر الفلسطينيّون إلى إعادته لأهله، فسلّموه الى كهنة بيت شمس الذين وضعوه في حقل يشوع هناك، بعد أن بقي لدى الفلسطينيّين سبعة أشهر[3]. ثم نقل الإسرائيليّون التابوت الى يعاريم، ووضعوه في بيت أبيناداب.

كان قاضي إسرائيل في هذا الوقت كاهن شيلو، واسمه عالي[4]، وكان عمره

---

١ - سفر صموئيل الاوّل، ١ : ١١

٢ - شيلو: هي اليوم على مسافة ٢٠ كلم من نابلس. فيها وضع تابوت العهد أيّام القضاة. راجع: سفر صموئيل الاوّل، ٢ : ١ ، ١٨ ، ٢٦ ؛ ٣ : ١و ١١ و ١٤؛ ٤ : ١

٣ - سفر صموئيل الاوّل، ٤ : ٤ ـ ١١؛ ٥ : ١ ، ٦ ، ١٠ ؛ ٦ : ١٣ ـ ١٩

٤ - سفر صموئيل الاوّل، ٤ : ١٥ ـ ١٨

ثماني وتسعين سنة. وقد مات عالي فور سماعه بخبر أخذ الفلسطينيّين تابوت العهد. فتولّى القضاء بعده صموئيل، الذي يبدو أنّ عهده كان عهد نصر لإسرائيل على الفلسطينيّين، الذين «ذلّهم صموئيل، ولم يعودوا يدخلون أرض إسرائيل... كل أيّام صموئيل، ورُدّت إلى إسرائيل المدن التي أخذها الفلسطينيّون منهم، من عقرون إلى جتّ... وكان بين إسرائيل والأموريّين سلم في عهد قضاء صموئيل الذي استمرّ طيلة حياته، وكان مقرّ إقامته في بيته بالرّامة، حيث كان يقضي لإسرائيل[1].

ولّما شاخ صموئيل أقام ابنيه: يوئيل وأبيّا قاضيَين لإسرائيل، إلاّ أنّهما أساءا السيرة[2]... ممّا جعل شيوخ إسرائيل جميعاً يجتمعون وينتقلون بالتالي إلى مقابلة صموئيل، لمطالبته بأن «يقيم عليهم ملكاً يقضي بينهم كسائر الأمم[3]».

هنا تبرز المشكلة، إذ يبدو أنّ بني إسرائيل قد نسوا أنّهم ليسوا كسائر الشعوب، فإنّ ملكهم الحقيقيّ هو الربّ. لذلك، ساءَ كلام شيوخ إسرائيل في عينَي صموئيل...

غير أنّ المخرج يظهر فجأة، فبعد أن صلّى صموئيل إلى الربّ، «قال الربّ لصموئيل: ـ إسمع لكلام الشعب في كلّ ما يقولون لك، فإنّهم لم ينبذوك أنت، بل نبذوني أنا من ملكي عليهم ـ». وبرغم محاولات صموئيل شرح مساوئ الملكيّة لشيوخ إسرائيل: فإنّ «المَلِك يأخذ بنيكم لمركبته وخيله، ولحرثه وحصاده وخدمته، ويتّخذ من بناتكم عطّارات وخبّازات وطبّاخات... ويأخذ أفضل حقولكم وكرومكم وزيتونكم ويعطيها لعبيده... ويأخذ عشوراً من زرعكم... وأفضل خدّامكم وخادماتكم وشبّانكم... وحميركم... ويعشّر غنمكم وأنتم تكونون له عبيداً...» فإنّ الشعب أبى أن يسمع لكلام صموئيل، وأصرّ على مطالبته بملِك

---

١ ـ سفر صموئيل الاول، ٧ : ٦ ؛ ١٣ ـ ١٧

٢ ـ سفر صموئيل الأوّل، ٨ : ١ ـ ٣

٣ ـ سفر صموئيل الاول، ٨ : ٤ ـ ٥

«يملك علينا، ونكون نحن كسائر الأمم، فيقضي لنا ملكنا، ويخرج أمامنا ويحارب حروبنا». فقال الربّ لصموئيل: «إسمع كلامهم وولّ عليهم ملكاً [1]».

وهكذا يتّضح أن فكرة الملكيّة عند العبرانيّين، جاءت من مصادر خارجيّة، فهم يريدون أن يكونوا «كسائر الأمم» ملكهم «يقضي لهم، ويخرج أمامهم ويحارب حروبهم». وإذ يأمر الله صموئيل بأن «يسمع كلامهم» وبأن «يولّي عليهم ملكا» لم يعد على صموئيل سوى أن ينفّذ.

بإيحاء من الله، دعا صموئيل جميع أسباط إسرائيل لاختيار سبط بالقرعة ليكون الملك من إحدى عشائره، فجاءت القرعة لمصلحة سبط بنيامين، وهو «من أصغر أسباط إسرائيل»؛ وبالقرعة أيضاً إختار سبط بنيامين من عشائره، مطريّ، وهي أصغر جميع عشائر سبط بنيامين ليكون الملك منها؛ واختارت عشيرة مطريّ بالقرعة ملك إسرائيل، فجاء إسم الملك: شاول بن قيس بن أبيئيل بن صرور بن بكورت بن أفيح [2]، وعليه، عرض صموئيل على الشعب «أحكام الملك [3]» التي هي كناية عن معاهدة تربط بين الملك والشعب.

لم يُجمع الأسباط على الاعتراف بملك شاول، بل «احتقره بعضهم ولم يهدِ إليه هدايا، فتصامّ عنهم»، إلى أن كانت معركة شاول الأولى مع العمونيين الذين حاصروا يابيش جلعاد من بني إسرائيل، وقد سجّل شاول وأنصاره نصراً ساحقاً على العمونيّين، فأقرّ جميع شعب إسرائيل بملك شاول بعد أن جدّد الأسباط له الولاء. وتنازل له صموئيل عن كلّ السلطة أمام شعب إسرائيل بعد أن نال منه براءة ذمّة لعهده، وقال: «هذا الآن ملككم الذي اخترتموه وطلبتموه قد أقامه الربّ عليكم ملكاً [4]».

١ـ سفر صموئيل الاوّل، ٨ : ٧ ؛ ١١ ـ ٢٢

٢ ـ سفر صموئيل الاوّل، ٩ : ١ و ٢١ ؛ ١٠ : ٢٠ ـ ٢٥

٣ ـ سفر صموئيل الاوّل، ٨ : ١١ ـ ١٣ ؛ ١٠ : ٢٥ ؛ صموئيل الثاني، ٥ : ٣ ؛ الملوك الاوّل، ١٢ : ١ ؛ الملوك الثاني، ١١ : ١٧

٤ ـ سفر صموئيل الثاني، ١٠ : ٢٧ ؛ ١١ : ١١ ـ ١٥ ؛ ١٢ : ٥ ، ١٢.

لم يكن عهد شاول مماثلاً لتلك المعركة الظافرة التي انتصر فيها على العمونيّين والتي رسّخت ثقة الشعب به، ولكن ذلك الملك العبرانيّ الأوّل قد خيّب الآمال لأنّه كان فاشلاً. فقد كانت أخلاقه وطباعه ضعيفة، وكان يعيش كشيخ بدويّ في خيمة ببلدته جبعة[1]. ولم تتعدّ حدود مملكته الصغيرة في الواقع منطقة قبيلته بنيامين في بداية الأمر. وبعد قتال طويل ضدّ الفلسطينيّين قتل هؤلاء في معركة جلبوع[2] ثلاثة من أولاد شاول، وأُصيب الملك نفسه بجرح خطر، مما جعله يفضّل الانتحار. وبعد أن قطع الفلسطينيّون رأسه، سمّروا جسده وأجساد أبنائه على سور بيت شان، وحوّلوا سلاحه كغنيمة حرب إلى معبد عشتروت[3].

من مراجعة التقصّيات التاريخيّة، يترجّح أنّ شاول قد بقي ملكاً على إسرائيل نحو ستة عشر عاماً (١٠٢٠ ـ ١٠٠٤ ق.م.) وكانت مدّة ملكه حافلة بالحروب مع الفلسطينيّين[4].

داود: المؤسّس الحقيقيّ للمملكة

لم تكن العلاقة بين صموئيل وشاول الذي نصّب ملكاً على إسرائيل علاقة طيّبة، بسبب سخط النبيّ على الملك الذي خرج عن تعاليم الربّ.

لم يقتصر الأمر على القطيعة التي وقعت بين نبيّ إسرائيل وملكه، بل تعدّاها

---

١ ـ جبعة: هي على مسافة ٦ كلم شمالي أورشليم، وتُعرف اليوم بـ «تل الغول»؛ راجع سفر صموئيل الاوّل، ١٠: ٢٦؛ ١١: ٤.

٢ ـ جلبوع: تقع في المرتفع الشمالي الشرقي لجبل افرائيم، الذي يشكّل مكان انفصال المياه بين حوض قيشون ووادي الأردن، وهي المنطقة التي تُعرف اليوم بـ «جبل الفقوعة»، وفيها قرية تُدعى «جلبون» وقد يكون الإسم تحويراً لـ «جلبوع» هذه.

٣ ـ راجع سفر صموئيل الاوّل، ٣١: ١ ـ ١٠؛ سفر أخبار الأيّام الأول، ١٠: ١ ـ ١٠؛ قابل مع: سفر صموئيل الثاني، ١: ٦ ـ ١٠.

٤ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ١، ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣.

إلى قيام صموئيل بمسح شابّ فتيّ، ليكون الملك المقبل لإسرائيل. ذلك الشابّ، كان الابن الأصغر لرجل اسمه يسّى من بيت لحم يهوذا، كان يرعى غنم أبيه، أمّا اسمه هو فكان «داود[١]». ويبدو أنّ أمر مسح داود ملكا من قبل صموئيل، بقي سرّاً لم يعلم به شاول.

إلتحق داود، بعد ذلك الحدث الكبير الذي بقي سرّاً، بشاول الملك الذي «أحبّه حبّاً شديداً»، وسرعان ما أصبح حامل سلاحه وقت الحرب، وبقي راعي غنم أبيه وقت السّلم. وكان ثلاثة من إخوة داود يحاربون أيضاً مع شاول[٢].

بقي داود ذلك الفتى العاديّ في جند شاول، إلى أن كانت مبارزته الشهيرة مع جوليت الفلسطينيّ، إذ تمكّن داود من قتل ذلك المحارب الجبّار، بالحجر والمقلاع[٣]. ونشأت تلك الصداقة القويّة، إثر ذاك، بينه وبين يوناثان بن شاول، الذي قطع مع داود عهداً في ذلك اليوم لأنّه أحبّه حبّه لنفسه. وما لبث داود أن أصبح قائداً على رجال الحرب، فأحرز منزلة رفيعة في عيون ضبّاط شاول وجميع الشعب[٤]. وبالرّغم من أنّ شاول كان قد بدأ يحذَر داود، الذي بنظره «لم يبق له إلاّ المملكة» فقد زوّجه بابنته ميكال لقاء «مئة قلفة من الفلسطينيّين». ويبدو أنّ شاول قد وضع هذا المهر من باب إرادته بالايقاع بداود في أيدي الفسطينيّين. بيدَ أنّ الشابّ الممسوح قد قبل التحدّي، «فقام وذهب هو ورجاله وقتل من الفلسطينيّين مئتي رجل وجاء داود بقلفهم، فزوّجه شاول ميكال ابنته[٥]».

وتفاقم الشرّ في قلب ملك إسرائيل الاوّل، فقرّر القضاء على داود[٦]، إلاّ أنّ ابنه يوناثان نبّه داود إلى أنّ أباه يريد قتله، وأقنع أباه بعدم جواز قتل داود بلا

---

١ - سفر صموئيل الاوّل، ١٦ : ١ - ١٢؛ ١٧ : ١٢

٢ - سفر صموئيل الاوّل، ١٦ : ٢١؛ ١٧ : ١٣ - ١٥

٣ - سفر صموئيل الاوّل، ١٧ : ٤ - ١١؛ ٤٠ - ٥١

٤ - سفر صموئيل الاوّل، ١٨ : ١ - ٥؛ صموئيل الثاني، ١ : ٢٦

٥ - سفر صموئيل الاوّل، ١٨ : ١٧ - ١٩؛ ٢١ - ٢٧

٦ - سفر صموئيل الاوّل، ١٨ : ٢٩؛ ١٩ : ١ - ٦؛ ٩ - ٢٤

سبب. ولكنّ شاول عاد وحاول قتل داود الذي أنقذته هذه المرّة زوجته ميكال، ابنة شاول. وإذ لجأ داود إلى صموئيل في الرّامة، عجز شاول عن القبض عليه. ولّما تدخّل يوناثان مرّة ثانية مع أبيه الذي وعد مجدّداً بعدم التعرّض لداود، عاد هذا الأخير وتعرّض لمحاولة القتل مرّة ثالثة من قبل شاول، غير أنّ يوناثان برّ بوعده، وأنقذ داود الذي فرّ منذ ذلك اليوم من معسكر شاول، وراح يتنقّل متخفّياً من مكان إلى آخر، حتّى إنّه تظاهر بالخبل كي لا يعرفه أحد «فجعل يخطّ على مصاريع الباب، وهو يُسيل لعابه على لحيته[1]» حتّى حسبوه مجنوناً. وإذ كان شاول يلاحق داود ورجاله أينما لجأوا، إضطر داود والستّ مئة رجل الذين معه إلى اللجوء الى أرض الفلسطينيّين. وكان مع داود امرأتاه: أحينوعم اليزراعيليّة وأبيجائيل أرملة نال الكرمليّة، اللتان تزوّجهما تباعاً بعد أن زوّج شاول ابنته ميكال امرأة داود لرجل آخر[2].

في أرض الفلسطينيّين، إتفق داود مع آكيش بـ «جتّ» على أن يعطي آكيش لداود وصحبه: صقلاج، الواقعة على حدود فلسطين في شمال بئر سبع إلى الشرق، حيث سكن داود سنة وأربعة أشهر، كان بخلالها يغزو أراضي الجشوريّين والجرزيّين والعمالقة، ويبيد مع رجاله سكّانها لأنّها من أرض الميعاد، و «يأخذ الغنم والبقر والحمير والجمال والثياب ويرجع الى «آكيش» الفلسطينيّ موهماً إيّاه بأنه غزا أراضي إسرائيليّة[3]. وعندما شنّ الفلسطينيّون حربهم على شاول وقتلوا أبناءه وجرحوه، كان داود لا يزال في أرضهم.

قبل ذلك التاريخ بقليل، كان صموئيل قد مات. وبنهاية شاول، أصبح إسرائيل بلا ملك ولا قاض.

---

١ - سفر صموئيل الاوّل، ٢١ : ١٤

٢ - سفر صموئيل الاوّل، ٢٥ : ٤٣؛ ٢٧ : ١ - ٣

٣ - سفر صموئيل الاوّل، ٢٧ : ٥ و ٨ - ١٠

فور وصول نبأ موت شاول وأبنائه إلى داود، انتقل هو وصحبه من صقلاج في أرض الفلسطينيّين إلى المنطقة الخاضعة لحبرون[1]. وهناك، تمّ مسح داود ملكاً على بيت يهوذا هذه المرّة من قبل رجال يهوذا. إلاّ أنّ رئيس جيش شاول: أبنير ابن نير، سارع إلى فرض إشبعل، الابن الناجي لشاول، ملكاً، بعد أن عبر به إلى محنائيم، إحدى مدن عبر الأردنّ. وهكذا انقسم العبرانيّون بين ملكين: داود ملك يهوذا، وإشبعل ملك إسرائيل[2].

كان شعبا إسرائيل ويهوذا منفصلَين منذ الأساس. «فقد كان اقتصاد كلّ منهما يختلف عن الآخر. فالشعب الذي يسكن الشمال كان مزارعاً يعيش على القمح والزيتون والكروم وسائر محاصيل أراضيه الخصبة، وكان يفضّل في مسائل العبادة «الألوهيم[3]» وتعبّدها بطقوس شمسيّة مأخوذة من الطقوس الكنعانيّة القديمة، بسبب تأثّر قبائل الشمال بالتراث الكنعانيّ، وإنّ قبائل هذا الشعب، هي التي تنتسب إلى إسرائيل، أمّا الشعب الجنوبيّ الذي تنتسب قبائله إلى يهوذا، فكان يعيش خاصّة على الرعيّ في المرتفعات الصالحة للأغنام وسائر القطعان. وكانت قبيلتا يهوذا وبنيامين في الجنوب تفضّلان «يهوه» الذي كان مسكنه في هيكل أورشليم، والذي كانت عبادته أكثر بساطة[4]».

وهكذا، وقعت الحرب بين العبرانيّين عندما هاجم إسرائيل بقيادة أبنير بن نير يهوذا في جبعون بقيادة داود، وسقط في اليوم الأوّل من تلك الحرب التي طال أمدها، عشرون رجلاً لداود، وثلاث مئة وستون رجلاً من رجال بنيامين ورجال أبنير، وكان كلّ يوم ينقضي من عمر تلك الحرب، تزيد فيه قوّة داود على خصومه.

---

١ - سفر صموئيل الثاني، ٢ : ٣
٢ - سفر صموئيل الثاني، ٢ : ٨ - ١١
٣ - ألوهيم: جمع إيل
٤ - حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ١، ص ٢٠٨

لقد كان داود سياسيّاً بارعاً، متمتّعاً بروح قياديّة مميّزة، وببراعة وحكمة نادرتين. فعرف كيف يُضيف الى بطولاته الحربيّة أرصدة في عيون إسرائيل، إذ راح يعامل خصومه على أنّهم قادة كبار ومحترمون. فعندما قتل أحد رجال معسكره قائد المعسكر المناهض: أبنير، أظهر داود بالغ التأثّر عليه، ورثاه شعراً، وقال لرجاله: «ألا تعلمون أنّه قد سقط في هذا اليوم رئيس عظيم في إسرائيل[1]؟» وعندما قام شابّان من البنياميّين باغتيال الملك الخصم لداود: إشبعل بن شاول، وبقطع رأسه وحمله إلى الملك داود، أمر داود بقتل القاتلَين وبتقطيع أيديهما وأرجلهما وتعليقهما عند بركة حبرون، ليكونا عبرة للشعب... وليخبرا عن مدى سخط داود لقتل غريمه الملك العبرانيّ الثاني. وأمّا رأس هذا الملك، فأُخذ، بناء على أمر داود، ودُفن في قبر أبنير في حبرون[2].

وهكذا، أصبح داود ملكاً على جميع العبرانيّين، بعد أن أقبل جميع أسباط إسرائيل إليه في حبرون، ومسحوه ملكا على إسرائيل[3].

اعتبر المؤرّخون داود «المؤسّس الحقيقيّ للمملكة العبرانيّة». فإنّ هذا الرجل الذي كان راعياً للغنم، وحامل السلاح لشاول، بدأ حكمه تحت سيادة الفلسطينيّين، في وقت كان مطارَداً من قبل شاول، وكان العبرانيّون منقسمين إلى شعبين، ولكنّه نجح في توحيد الشعب العبرانيّ في ظلّ مملكة واحدة. وفي النهاية، «لم تقتصر إنجازاته على تحقيق الاستقلال التامّ فحسب، بل حقّق توسّعاً لحدود المملكة إلى أبعد ممّا بلغته في أيّ وقت آخر. قام داود بسلسلة العمليّات الحربيّة التي أدّت الى التخلّص من نير الفلسطينيّين، والى جعل أدوم وموآب وعمون تحت حكمه، كما حققت له ما هو أغرب من ذلك، وهو حكم سورية المجوّفة الآراميّة

---

١ - راجع: سفر صموئيل الثاني، ٣ : ٢٧ و ٣٢ و ٣٦و ٣٨

٢ - راجع: سفر صموئيل الثاني، ٤ : ٥ - ١٢ .

٣ - راجع: سفر صموئيل الثاني، ٥ : ١ - ٣؛ سفرالأخبار الأول، ١١ : ١ - ٣

حتّى حدود مملكة حماة كما يُظنّ[١]. ووصل جنوده إلى دمشق. وكانت المملكة التي أسّسها أقوى دولة محلّيّة ظهرت في فلسطين في أيّ عصر. وقُدّر له، بنتيجة فتح أدوم، السيطرة على طريق التجارة العظيم بين سورية والجزيرة العربيّة... وكان داود قد اختار حصن أورشليم اليبوسيّ ليكون عاصمة له، وكان قد انتزعه من أيدي سكّانه اليبوسيّين، وقد كان هذا الاختيار موفّقاً؛ فالمدينة تقع خارج المراكز القبليّة الأصليّة، على الحدود بين القسم الشماليّ والجنوبيّ للمملكة، وتسيطر على طريق من أهمّ الطرق الداخليّة، وهو الطريق الذي يتّجه شمالاً وجنوباً في القسم المرتفع الواقع غربيّ وادي الأردنّ، ومع ذلك فالدفاع عنها كان سهلاً. في هذه المدينة أقام داود مقرّه الملكيّ، وهو قصر بُني بالحجارة وخشب الأرز من لبنان، بناه معماريّون ونجّارون صوريّون أرسلهم صديقه الفينيقيّ الملك حيرام[٢] (٩٨١ - ٩٤٧ ق.م.). وكانت الصداقة بين صور وإسرائيل مبنيّة على المنفعة المتبادلة: فصور كانت فقيرة بالمحاصيل الزراعيّة، بينما كانت إسرائيل بحاجة إلى المواد التي تنقلها التجارة البحريّة. وقد شيّد داود بالإضافة إلى قصره، معبداً وطنيّاً ليَهْوَه، في العاصمة الجديدة، وهكذا جعل اليهويّة الديانة الرسميّة في الدولة الموحّدة. وأصبح داود الملك المثاليّ بالنسبة للعبرانيّين[٣]»، الذين نقل داود تابوت عهدهم إلى بيته في مدينته، ذلك البيت من أرز، وكان أوّل بيت يسكن فيه «تابوت الربّ» الذي لم يسبق له أن سكن إلاّ في خيمة[٤].

لم تقتصر إنجازات الملك العبريّ الثّاني على الانتصارات الحربيّة والبناء، ولكنّه اهتمّ، على ما يبدو، بالشؤون الأدبيّة والفنّيّة، إذ في زمن حكمه بدأ ظهور الأدب العبريّ، الذي اعتُبر أنّه «من أغنى وأرفع ما تركه الشرق القديم من مظاهر

---

١ - راجع: صموئيل الثاني، ٨؛ ١٠؛ ١٢: ٢٦ - ٣١؛ قارن مع: سفر العدد، ٣٤: ٧
٢ - راجع: سفر صموئيل الثاني، ٥: ١١
٣ - حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ١ ص ٢٠٢ - ٢٠٤
٤ - راجع: سفر صموئيل الثاني، الفصلين ٦ و ٧

حضاريّة » . وظهر « المذكر mazkir » الذي كانت مهمّته الرسميّة تدوين الحوادث الهامّة وحفظ الحوليّات الملكيّة[1] . وقد « استعاروا الكتابة من الفينيقيّين[2] » . ويُظنّ أنّ الكهّان بدأوا فيما بعد بإعداد كتب مشابهة للوثائق الرسميّة. ومن مثل هذه المدوّنات استُخلص تاريخ الملكيّة الأولى، وأُدخل جانب منه في العهد القديم. كذلك بدأت مجموعات من المؤلّفات الشعريّة في عصر داود الذي كان هو نفسه شاعراً له مكانته. وفي الواقع، فإنّ الأثر الذي تركته مواهبه الشعريّة والموسيقيّة كان عظيماً، حتّى إنّ الأجيال نسبت إليه وضع عدد من المزامير التي بلغ من قيمتها الإنسانيّة العامّة وأهمّيّتها الدائمة أنّها لا تزال تُستخدم كمصدر وحي وكوسيلة لرفع القوى الروحيّة[3] .

ومات داود ودُفن في مدينته بعد أن أوصى وريثه سليمان بأن يتشدّد ويكون رجلاً وبأن يحفظ أوامر الربّ.

سليمان: أول حكماء إسرائيل

إذا كان داود المؤسّس الحقيقيّ للمملكة العبرانيّة، فإنّ ابنه سليمان (حوالى ٩٦٣ ـ ٩٢٣ ق.م.) يُعتبر موصل تلك المملكة إلى ذروة فائقة من المجد والأبّهة.

ليس في أخبار الملوك العبرانيّين ما يشبه مشاريع سليمان الاقتصاديّة من تجاريّة وصناعيّة وعمرانيّة، بما في ذلك استخراج المعادن وصهرها، ممّا أحلّ في إسرائيل مستوى رفيعاً جدّاً من الترف. وقد تميّز سليمان عن سائر القادة الإسرائيليّين بطريقة عيشه التي كانت ملكيّة فخمة، بكلّ ما فيها من مظاهر الاستبداد والشهوانيّة والأبّهة والجلال. وقد جعل نهج عيشه هذا العبرانيّين يتحوّلون بصورة ثابتة في تيّار الحياة والمدنيّة الشرقيّتين.

١ ـ راجع؛ سفر صموئيل الثاني، ٨: ١٦؛ سفر الملوك الثاني، ١٨: ١٨ و ٣٧

٢ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ١، ص ٢٠٤

٣ ـ المرجع السابق، ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥

ومن إنجازات سليمان العظمى، قصره الذي بناه معماريّون فينيقيّون مُستخدِمين في بنائه أرزاً من لبنان. وقد استغرق بناء هذا القصر ثلاث عشرة سنة. أمّا الهيكل الشهير في مدينة أورشليم الذي بُني في الأصل ليكون معبداً ملكيّاً ملحقاً بالقصر، ثمّ تحوّل إلى معبد لعبادة الله، فقد استغرق بناؤه سبع سنوات، وكلّف إنجازه أموالاً جزيلة نظراً لعظمته وفخامته، وكانت أخشابه من شجر الأرز والسرو الذي استجلبه من لبنان. وزُيّنت جدرانه وسقوفه بأنواع النقوش والتماثيل المطليّة بالذهب، ممّا جعله من عجائب الدنيا. ومن الثابت أنّ الصوريّين هم الذين بنوا هذا الهيكل، يعاونهم ثلاثون ألف عبرانيّ سخّرهم سليمان ليعملوا بالنّوبة، فيعمل عشرة آلاف منهم شهراً في لبنان مع رجال حيرام، وشهرين في بيوتهم حيث يتابعون أعمالهم المعتادة[١].

إنّ ما نقله البحر من صور إلى يافة، ومنها إلى أورشليم، لم يكن فقط أخشاب الأرز التي كانت تُقطع من غابات لبنان، ولكنّ زخرفة الهيكل وطقوسه وذبائحه تظهر أنّها كانت جميعها مستوحاة من التراث الكنعانيّ، حتّى إنّ عبيد الهيكل كانوا كنعانيّين، لا بل كلمة «هيكل» نفسها كانت مستعارة من المفردات الكنعانيّة (Hêkallu)، التي أتت مباشرة من السومريّة (ê-gal) التي تعني البيت الكبير[٢]. وقد بلغ تأثّر سليمان بجيرانه أنّه سقط بالعبادة الوثنيّة، واتّخذ لنفسه نساء كثيرات، فتألّف حريمه من ٧٠٠ زوجة و ٣٠٠ سريّة، ومن بين زوجاته بنت فرعون ملك مصر التي أغدق عليها القصور والمدن. إلاّ أنّه عاد وتاب إلى الله. وإنّ في قصّة انتقال الحكم إلى سليمان من أبيه داود بعض الجوانب الهامّة بالنسبة الى تطوّر التاريخ العبريّ.

لم يكن الشرع قد نظّم شروط الخلافة على العرش عندما كان داود في

---

١ - راجع سفر الملوك الاوّل، ٥ : ١٣

٢ - حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ١، ص ١٤٩

أواخر أيّامه. فإنّ الملكَين الأوّل والثاني: شاول وداود، كان قد اختارهما الله للشعب بواسطة النبيّ صموئيل، أمّا الآن، فقد أصبح الأمر مختلفاً، ومن هنا جاءت مأساة بيت داود.

كان لداود عدد كبير من الأبناء والبنات، منهم من وُلد في حبرون وهم: بكره أمنون من أحينوعم اليزراعيليّة، ثم كلآب من أبيجائيل أرملة نابال الكرمليّ، وأبشالوم ابن معكة بنت تلماي ملك جشور[1]، وأدونيّا ابن حجيّت، وشفطيا ابن أبيطال، ويترعام من امرأته عجلة. أمّا في أورشليم، فبعد أن تزوّج داود نساء أخريات، منهنّ السراري ومنهنّ الزوجات، وُلد له أيضاً بنون وبنات، هم: شمّوع، وشوباب، وناتان، وسليمان، ويجار، وأليشوع، ونامج، ويافيع، وأليشاماع، وألياذاع (أو بعلياداع)، وأليفاط[2]. أمّا سليمان، فهو ابن بتشابع، التي دبّر داود قتل زوجها أوريّا ليتزوّجها[3]، وبذلك ارتكب خطيئته الكبرى التي ستتطلّب غفراناً من الربّ.

وفي التنظيم الذي وضعه داود لإدارة شؤون المملكة، وزّع المهامّ الرسميّة والإداريّة على عدد من الأشخاص المنتمين إلى مختلف الأسباط، وجعل حرسه من المرتزقة الغرباء الذين أصلهم من الفلسطينيّين، أمّا أبناؤه، فجعلهم كهنة[4]، يساعدونه أو يحلّون محلّه في وظائفه الكهنوتيّة التي كان يقوم بها الملك بصورة شرعيّة[5]. وقد «أحبّ الله سليمان» رغم مسألة خطيئة أبيه، «فأرسل على لسان ناتان النبيّ وسمّاه ـ يديديا ـ أي: حبيب الربّ [6]». فقد اعتبر التقليد أنّ مولد سليمان، هو ضمان لغفران الله.

---

١ ـ جشور: تقع شرقي بحيرة طبريّا.
٢ ـ سفر صموئيل الثاني، ٣ : ٢ ـ ٥؛ ٥ : ١٣ ـ ١٦
٣ ـ راجع: سفر صموئيل الثاني، ١١ : ٢ ـ ٢٦؛ ١٢ : ٤
٤ ـ سفر صموئيل الثاني، ٨ : ١٥ ـ ١٨
٥ ـ راجع: سفر صموئيل الثاني، ٦ : ١٣ ـ ٢٤
٦ ـ سفر صموئيل الثاني، ١٢ : ٢٥

أمّا خطيئة أمنون، الابن البكر لداود، فكانت أعظم من خطيئة أبيه، كون أمنون قد اغتصب أخته تامار، شقيقة أخيه أبشالوم، ممّا جعل هذا الأخير يقدم على قتله انتقاماً لشقيقته[١].

وبعد أن حزن داود حزناً عميقاً على ابنه البكر أمنون، عاد وغفر لأبشالوم الذي راح يدسّ الدسائس على أبيه، ويعمل في الوقت نفسه على استمالة قلوب رجال إسرائيل إليه، إلى أن حاك مؤامرة واسعة للاستيلاء على الملك، مما اضطر داود إلى الهرب من قصره خوفاً من انقضاض ابنه أبشالوم عليه، بعد أن كان هذا الأخير قد جمع حوله أكثر رجال إسرائيل[٢].

تمكّن أبشالوم من احتلال قصر أبيه في أورشليم، فسارع داود وأنصاره إلى التوغّل في الهرب، فعبروا الأردنّ، حيث نظّم صفوف أنصاره في محنائيم، وابنه أبشالوم ورجاله يجدّون في أثره. فكانت الواقعة في غابة أفرائيم، حيث أنكسر جيش إسرائيل التابع لابن داود، وقُتل أبشالوم، إضافة إلى ما يقارب العشرين ألفاً من رجاله[٣].

عاد داود إلى قصره، مُحكماً قبضته على المملكة العبرانيّة. إلاّ أنّه لمّا شاخ في آخر أيّامه، طمع ابنه الرابع: أدونيّا[٤] ابن حجّيت، بالمُلك، فسلك مسلك أخيه أبشالوم في استمالة الشعب إليه، وفي إحاطة نفسه بالمركبات والخيل والجنود، ولم يلبث أن راح يتصرّف تصرّف الملِك، مما جعل أمّ سليمان: بتشابع، تسارع إلى الملك داود مدّعية أنّ أدونيّا قد أعلن نفسه ملكاً، وطالبت داود بأن يفي بوعده فينصّب سليمان ملكاً قبل وفاته. وسرعان أن انصاع داود لرغبة امرأته المحبوبة، وقام بجميع التدابير الطقسيّة والرسميّة التي جعلت الخلافة لسليمان، وقبل أن

---

١ ـ راجع: سفر صموئيل الثاني، الفصل ١٣
٢ ـ راجع: سفر صموئيل الثاني، ١٥ : ١ ـ ٢٣
٣ ـ راجع: سفر صموئيل الثاني، ١٦ : ٢٢؛ ١٧ : ٢١ ـ ٢٢ و ٢٤؛ ١٨ : ١ و ٦ ـ ١
٤ ـ سفر الملوك الاوّل، الفصلان ١ و ٢

يموت داود، كان ابنه سليمان قد جلس على العرش، وبعد قليل أمر بقتل أخيه الذي نافسه عليه: أدونيّا، وكذلك فعل بالقادة العسكريّين والدينيّين الذين تحزّبوا لأخيه يوم حاول أن ينال المُلك، وبكلّ من حاول عصيانه في بداية عهده.

أحكم سليمان قبضته على كامل المملكة العبرانيّة التي جعل عليها اثني عشر محافظاً، كان على كلّ واحد أن يموّن الملك وبيته شهراً من السنة من محافظته. وكان «طعام سليمان وخدّامه ومدعوّيه وجيوشه في كلّ يوم ثلاثين كرّا من السّميد، وستّين كرّا من الدقيق، وعشر بقرات مسمّنة، وعشرين بقرة من المرعى، ومئة من الضّأن، هذا غير الأيائل والظباء واليحامير وسمان الطير[1]».

من خلال هذا النظام الشبيه بالنظام الفدراليّ الإقطاعيّ، حكم سليمان المملكة العبرانيّة، فكانت أعماله العمرانيّة تضمّ تحصينات وثكنات وعنابر، وكانت إسطبلات خيله تتّسع لأربعمائة وخمسين حصاناً، حصل على بعضها من مصر وكيليكية[2]. وزوّد سليمان مملكته باسطول بحريّ تجاريّ بمساعدة صديقه الفينيقيّ الملك حيرام، وجعل قاعدة أسطوله في عصيون غابر في رأس خليج العقبة[3]. وكان أسطول سليمان يبحر من هذا الميناء، بإدارة ضبّاط صوريّين، حول ساحل الجزيرة العربيّة وإفريقية الشرقيّة[4]. وكانت بواخره تصدّر الحديد والنحاس المنقّيين في عصيون غابر، وتستورد البخور والعاج والذهب والحجارة الكريمة. وكانت القوافل الآتية من الجزيرة العربيّة والمحمّلة بالتوابل من تلك البلاد خاضعة لدفع الرسوم عندما كانت تمرّ بأراضي مملكة سليمان[5].

وكان سليمان شاعراً مثل أبيه، وهو أوّل «حكماء إسرائيل»، وله مؤلّفات

---

١ ـ سفر الملوك الاول، ٤ : ٧؛ ٥ : ٢ ـ ٧

٢ ـ راجع: سفر الملوك الاوّل، ١٠ : ٢٦، ٢٨ ـ ٢٩

٣ ـ هي اليوم ايلات. راجع: NELSON Glueck, "the first campaign at tell el-kheleifeh" Bulletin: American schools of oriental Research, No. 72 (1938) PP. 3 - 18

٤ ـ سفر الملوك الاول، ٩ : ٢٧ ـ ٢٨؛ ١٠ : ١١؛ أخبار الأيام الثاني، ٩ : ١٠

٥ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ١، ص ٢٠٧

في الفلسفة الأدبيّة، ونُسبت أمثال كثيرة الى سليمان الحكيم التي أصبح بعضها قسماً من الكتاب المقدس، وقد قضى كلّ مدّة ملكه في هدوء تامّ مع المملكات المجاورة، وقد حيكت حول شخصيّته أساطير كثيرة، منها أنّه كان صاحب فراسة حادّة، وأنّه كان يكلّم الجن الذي كان يأتمر بأمره.

بعيداً عن الأساطير، حكم سليمان المملكة العبرانيّة التي ورثها عن أبيه داود، والتي كانت تمتدّ إلى حدود مصر وقسم من ساحل البحر الأحمر جنوباً وغرباً، وإلى الفرات شمالاً وشرقاً. إلاّ أنّ المملكة التي تسلّمها سليمان من أبيه، سوف يسلّمها لخلفه: رحبعام، أصغر. ولكنّه نقل تابوت العهد من مدينة «داود التي هي صهيون» إلى محراب الهيكل العظيم الذي بناه، ولم يكن في التابوت إلاّ لوحا الحجر اللذان وضعهما فيه موسى في حوريب[1].

وقبْل أن تنتهي أيّام سليمان، جرت محاولة تمرّد فاشلة على ملْكه من قبل أسباط الشمال قادها ياربعام، ولكنّ سليمان قمع المحاولة بقوّة، فهرب ياربعام إلى مصر، ولم يعد إلى المملكة العبرانيّة إلاّ بعد موت سليمان[2].

بموت سليمان، ودفنه بقرب أبيه، دُفنت الوحدة العبرانيّة التي أسّسها من خلال المملكة، الملك الثاني داود، وحافظ عليها أوّل حكماء إسرائيل الملك العبرانيّ الثالث، إبن داود: سليمان.

---

١ ـ سفر الملوك الاوّل، ٨ : ١ و ٦ و ٩

٢ ـ سفر الملوك الاوّل، ١١ : ٢٦ ـ ٤٠

الفصل السادس

المملكتان

- الإنقسام إلى مملكتين
- آسا يهوذا وملوك إسرائيل
- يوشافاط يهوذا وآحاب إسرائيل
- أليشاع ، وإعادة عبادة يهوه
- نهاية مملكة إسرائيل
- نهاية مملكة يهوذا

كانت محاولة الانقلاب الفاشلة التي قام بها أحد أقطاب إسرائيل: ياربعام، في آخر عهد سليمان، إيذاناً بانشقاق المملكة العبرانيّة، وبنهاية الوحدة العبرانيّة التي حقّقها، بصورة مؤقّتة، داود وابنه سليمان. فلقد سئم عبرانيّو الشمال، الذين يشكّلون أسباط إسرائيل، حكم قبيلة يهوذا التي استقرّ المُلك بسلالة ابنها داود. وكانت مناسبة تنصيب رحبعام وهو ابن سليمان من زوجته نعمة العمّونيّة، ملكاً على العبرانيّين في حوالى ٩٣٣ ق.م. مناسبة في الوقت نفسه لبداية ذلك الانشقاق. فإنّ الملك القويّ قد مات، وآن لأسباط إسرائيل الذين عانوا من ثقل الضرائب وأعمال السخرة طيلة مدّة الحكم الصارم لسليمان، أن ينتفضوا.

وهكذا، فعندما اجتمع ممثّلو الأسباط الإثني عشر في شكيم ليمسحوا رحبعام ابن سليمان، ملكاً، كان ياربعام قد سارع الى العودة من مصر، ليحضر الاجتماع على رأس أسباط الشمال الذين خاطبوا ابن سليمان قائلين: «إنّ أباك قد ثقّل نيرنا، وأنت خفّف الآن من عبوديّة أبيك الشاقّة ونيره الثقيل الذي وضعه علينا فنخدمك». وبعد أن استمهل رحبعام القوم ثلاثة أيّام لإعطائهم الجواب، استشار بخلالها الشيوخ الذين كانوا مستشاري أبيه، فنصحوه باللّين، واستشار أصدقاءه الذين من جيله، فنصحوه بالشدّة، فضّل رحبعام مشورة الشباب، فجاء جوابه لأسباط إسرائيل في اليوم الثالث: «إنّ أبي ثقّل نيركم، وأنا أزيد على نيركم. أبي أدّبكم بالسياط، وأنا أؤدّبكم بالعقارب».

كانت نتيجة هذا الرّد العنيف أن امتنع إسرائيل عن مبايعة رحبعام الذي اقتصر تأييده على يهوذا. وعندما أرسل الملك الجديد عامله إلى الشمال، رجمه أبناء إسرائيل بالحجارة حتى الموت. وتنادت أسباط إسرائيل وأقامت ياربعام ملكاً على كلّ إسرائيل «ولم يبقَ منهم تابعاً لبيت داود إلاّ سبط يهوذا وسبط بنيامين[1]».

---

١ ـ سفر الملوك الاول، ١٢ : ١ ـ ٢٠

لم يقتصر الانفصال بين العبرانيّين على السياسة والمُلك، بل تعدّاه إلى أمور الدّين، إذ سارع الملك الثائر إلى إنشاء معبد جديد على اسم إيل، ذلك أنّ عبرانيّي الشمال كانوا أكثر تعرّضاً للتأثير الكنعانيّ، وكانوا من الألوهيم، وطقوسهم في عبادة الإيل شمسيّة مأخوذة من الطقوس الكنعانيّة. لذلك صنع ياربعام عِجلين من ذهب، لتُقدَّم لهما الذبائح في بيت إيل، الذي دشّنه في عيد الأكواخ، وهو العيد الذي دشّن فيه سليمان هيكل الربّ. وطاولت ثورة ياربعام مسألة رجال الدين، فأقام كهنة من عامّة الشعب كان يكرّسهم هو شخصيّاً، ضارباً عرضَ الحائط أمر تخصيص أبناء لاوي بموضوع الخدمة الدينيّة في إسرائيل[١]. ممّا جعل اللاويّين ينتقلون إلى أورشليم ملتحقين برحبعام[٢].

بانقسام المملكة العبرانيّة بين ياربعام ورحبعام، أصبح للعبرانيّين مملكتان: شماليّة، ملكها ياربعام، وعاصمتها شكيم، وهي مملكة إسرائيل؛ وجنوبيّة، ملكها رحبعام، وعاصمتها أورشليم، وهي مملكة يهوذا. وقد ضمّت هذه الأخيرة قبيلتَي يهوذا وبنيامين، بينما ضمّت الأولى سائر الأسباط العشرة. وأصبحت المملكتان متنافستين، وأحياناً متعاديتين. وكان توازن القوى يميل تارةً لمصلحة إسرائيل، وطوراً لمصلحة يهوذا. وكانت مدّة ولاية الملك الأوّل لإسرائيل بعد الانشقاق: ياربعام، إثنتين وعشرين سنة (٩٣٣ ـ ٩١١ ق.م.) بينما كانت مدّة ولاية ندّه على يهوذا: رحبعام، سبع عشرة سنة (٩٣٣ ـ ٩١٦ ق.م.) قضاها جميعاً في الحرب مع يربعام[٣].

كان انقسام المملكة الإسرائيليّة سبباً كافياً لضعفها، ممّا جعل الممالك المجاورة تستغلّ هذا الضعف لغزو العبرانيّين. وكان أوّل الغزاة، المصريّين، الذين

---

١ ـ سفر الملوك الاوّل، ١٢ : ٢٦ ـ ٣٣

٢ ـ سفر الأخبار الثاني، ١١ : ١٣

٣ ـ سفر الملوك الاوّل، ١٤ : ١٩ ـ ٢٠؛ ٢٩ ـ ٣٠

استولوا على مدن يهوذا ووصلوا إلى أورشليم، فنهبوا كنوز الهيكل والقصر الملكيّ الفخم، قبل أن يعودوا إلى ديارهم[1].

كان ذلك في السنة الخامسة من ملك رحبعام، الذي كان «ترك شريعة الربّ» هو الآخر، كما فعل ندّه ياربعام، وقد حذا شعبه حذوه[2]. واتّخذ رحبعام «ثماني عشرة زوجة وستّين سريّة، وولد ثمانية وعشرين ابناً وستّين بنتاً». وكانت معكة، بنت أبشالوم، زوجته المفضّلة التي «أحبّها على جميع زوجاته وسراريه». ومن الطبيعيّ أن يقيم رحبعام، الابن البكر لزوجته المفضّلة، واسمه أبيّا، رئيساً متقدّما على إخوته، تمهيداً لجعله خليفته، تماماً مثلما اختار داود سليمان. أمّا باقي بنيه، فقد فرّقهم في أرض يهوذا وبنيامين «وأغدق عليهم الزّاد، وأخذ لهم جمهوراً من النساء[3]». أمّا رحبعام نفسه، فقد أقام في أورشليم، وبنى مدناً محصّنة في يهوذا: بيت لحم، وعيطم، وتقوع، وبيت صور، وسوكو، وعدلاّم، وجتّ، ومريشة، وزيف، وأدورائيم، ولاكيش، وعزيقة، وصرعة، وأيّالون، وحبرون يهوذا. وزوّد تلك المدن المحصّنة بالسّلاح والمؤن والجنود من بنيامين ويهوذا[4]. وكان القصد من هذه التحصينات صدّ الهجومات المحتملة لمملكة إسرائيل، وسواها من الأعداء الخارجيّين.

عندما مات رحبعام في السنة السابعة عشرة لملكه، كان ندّه ملك إسرائيل يربعام، لا يزال مالكاً سعيداً، وكانت العداوة بين المملكتين المنفصمتين على أشدّها. وبدفن رحبعام مع آبائه في مدينة داود، لم تُدفن تلك العداوة، ولكنّها استمرّت شرسة بين العبرانيّين.

خلَف رحبعام على مملكة يهوذا ولده، ابن امرأته المفضّلة، أبيّا، الذي كان والده يحضّره للملك. أمّا والدته معكة (ميكايا) فقد لُقّبت بـ «الملكة الأمّ[5]».

---

١ ـ سفر الأخبار الثاني، ١٢: ٢ ـ ٤؛ ٩ ـ ١٣

٢ ـ سفر الأخبار الثاني، ١٢: ١

٣ ـ سفر الأخبار الثاني، ١١: ٢١ ـ ٢٣؛ قابل مع: سفر الملوك الاول، ١٥: ١١ ـ ١٢

٤ ـ سفر الأخبار الثاني، ١١: ٥ ـ ١٢

٥ ـ سفر الأخبار الثاني، ١٥: ١٦

فأكمل أبيّا مسيرة أبيه، وسار على خطاه في حربه مع ياربعام وأتباعه، فشنّ عليه هجوماً حاشداً أدّى إلى معركة طاحنة وقعت في جبل صمارائيم من أعمال أفرائيم، كان النصر فيها ليهوذا على إسرائيل، فوسّع أبيّا حدود مملكته إذ ضمّ إليها على حساب أسباط إسرائيل مدناً، هي: بيت إيل عاصمة ياربعام وتوابعها، إضافة إلى يشانة وعفرائين وتوابعهما. إلاّ أنّ هذا الملك كان قصير العمر، فاقتصرت مدّة ملكه على سنتين[1] (٩١٥ ـ ٩١٣ ق.م.) قضاهما في الحرب مع ياربعام. ولكنّه في حياته، «تشدّد أبيّا وتزوّج أربع عشرة امرأة وولد اثنين وعشرين ابناً وستّ عشرة بنتاً... واضطجع أبيّا مع آبائه وقُبر في مدينة داود[2]».

آسا يهوذا وملوك إسرائيل

خلف أبيّا ابنُه آسا، الذي نُسبَت إليه جملة إصلاحات دينيّة واجتماعيّة تمكّن من إجرائها في عهده الطويل الذي امتدّ إحدى وأربعين سنة (٩١٢ ـ ٨٧١ ق.م.) عايش بخلالها سبعة ملوك على إسرائيل.

كان ملك إسرائيل (المنقسمة) الأوّل ياربعام، في السنة العشرين لملكه عندما تسنّم آسا عرش يهوذا في أورشليم. فكان أوّل ما أقدم عليه من إجراءات أنّه حطّم الأصنام، وأعاد طقوس عبادة الربّ، حتّى إنّه «نزع لقب الملكة الأمّ عن جدّته معكة، لأنّها صنعت فظاعة لوتد مقدّس، فحطّم آسا فظاعتها وأحرقها في وادي قدرون[3]». كما أنّه هادن الجوار، فتوقّفت الحروب بين العبرانيّين ولو إلى حين، ممّا جعله ينصرف إلى بناء المزيد من المدن المحصّنة، وإلى تحديث جيش يهوذا[4]. وهكذا فعندما حاول الكوشيّون[5] غزو مدنه مثلما فعلوا في عهد جدّه رحبعام، طاردهم إلى جرار، حيث أبادهم تماماً، وغنم ما كان معهم[6].

---

١ ـ سفر الملوك الاوّل، ١٥ : ٦

٢ ـ سفر الأخبار الثاني، ١٣ : ٢١، ٢٣

٣ ـ سفر الملوك الأوّل، ١٥ : ١٣

٤ ـ سفر الملوك الاوّل، ١٥ : ٩ ـ ١٢؛ سفر الاخبار الثاني، ١٤ : ١ ـ ٧؛ ١٥ : ٨ ـ ١٩

٥ ـ تدلّ «كوش» عادة على بلاد الحبشة. كما يمكن أن تدلّ على بدو النقب.

٦ ـ سفر الأخبار الثاني، ١٤ : ٨ ـ ١٤

وكان بعد سنتين من ملك آسا قد توفّي ملك إسرائيل: يربعام، الذي لم يكن بينه وبين آسا أيّة واقعة.

ومثلما أصبح المُلك في يهوذا لسلالة داود، كذلك أصبحت أسرة ياربعام، الأسرة المالكة في إسرائيل. فعندما توفّي ياربعام (٩١١ ق.م.) خلفه ابنه ناداب، الذي سار في طريق أبيه، ديناً ودنيا. إلاّ أنّ بيت ياربعام لم يتمكّن من المحافظة على المُلك كما فعل بيت داود، إذ لم يقدر ناداب على إنهاء السنة الثانية لملكه، قبل أن يقتله متآمر من بيت يسّاكر، ليستولي بعده على المُلك، وينهي به سلالة ياربعام المالكة، بقتل جميع أفرادها[١].

كان اسم الذي قتل ناداب: بعشا بن أحيّا، من قبيلة يسّاكر[٢]. ولمّا جلس على عرش إسرائيل، (٩١٠ ق.م.) كان آسا يملك يهوذا للسنة الثالثة. ولا تطالعنا المدوّنات بأي حرب بين يهوذا وإسرائيل قبل مضيّ ثلاث وثلاثين سنة على ذلك التاريخ، إذ «في السنة السادسة والثلاثين من ملك آسا، صعد بعشا، ملك إسرائيل، على يهوذا» وحاصرها، فاستنجد آسا بملك دمشق الآراميّ لقاء «فضّة وذهب من خزائن بيت الربّ وبيت الملك. فسارع الآراميّ إلى مهاجمة مدن إسرائيليّة شماليّة، ممّا حتّم على بعشا فكّ الحصار عن يهوذا ليعود إلى مدنه مدافعاً. غير أنّ بعض العبرانيّين قد لاموا آسا على استنجاده بالآراميّين ضدّ أبناء جلدته، إذ، برأيهم، كان عليه أن يستنجد بالربّ عوضاً عن طلب النجدة من الآراميّين[٣]».

أمّا بعشا، فقد مات إثر هذه المحاولة الفاشلة للاستيلاء على يهوذا، وخلفه ابنه إيلة (٨٨٧ ـ ٨٨٦ ق.م.). وكانت عاصمة إسرائيل قد انتقلت من شكيم التي احتلّها يهوذا، إلى ترصة، في عهد بعشا. وهناك دُفن بعشا، وقد جعلها ابنه إيلة عاصمة ملكه[٤].

---

١ ـ سفر الملوك الاول، ١٥ : ٢٥ ـ ٣٠

٢ ـ سفر الملو ك الاول، ١٥ : ٣٣

٣ ـ سفر الأخبار الثاني، ١٦ : ١ ـ ١٠ ؛ نشك في صحّة التاريخ المحدّد لهذه الحرب، التي قد تكون وقعت في السنة الثالثة والعشرين لحكم آسا وليس في السنة الثالثة والثلاثين.

٤ ـ سفر الملوك الاول، ١٦ : ٦، ٨

مثلما استولى بعشا على المُلك بقتله ناداب بن ياربعام قبل إكماله السنة الثانية لملكه، كذلك فعل بابنه رجل اسمه زمري، كان ضابطاً في جيش الملك، قتله وأباد ذريّة أبيه تماماً، حتّى إنّه أباد جميع أصدقائه. إلاّ أنّ مُلك زمري، لم يدم أكثر من سبعة أيّام، إذ رفض جيش إسرائيل هذا الواقع، ونادى بقائده: عُمْري، ملكاً. ولّما قصد عمري ترصة لينتزع المُلك من زمري، قام هذا الأخير بالدخول الى بيت المُلك، وأقفله من داخل، وأضرم فيه النار مُنتحراً[١].

واجه عمري (٨٨٦ ـ ٨٧٥ ق.م.) في بداية عهده رفضاً قويّاً من قِبَل بعض أسباط إسرائيل، إذ بالمناداة به ملكاً من قبل الجيش، إنقسم إسرائيل إلى فئتين، إحداهما نادت بتبْني بن جينَتَ ملكاً في مقابل الفئة التي تبعت عمري. لكنّ هذا الملك المميّز من ملوك إسرائيل، تمكّن من حسم الوضع لمصلحته بسرعة[٢].

لا شكّ في أنّ عمري كان ملكاً عظيماً. وإذا كانت المدوّنات لم تعطه كامل حقّه من التفاصيل. فهي قد دلّت على أنّه كان أشهر ملوك إسرائيل. وكان الأثر الأهمّ الذي تركه، والذي نوّهت به الأسفار، مدينة السامرة[٣] التي أسّسها وحصّنها ونقل إليها مركز الحكم من ترصة.

بنى عمري في عاصمته الجديدة قصراً كبيراً، سوف يزخرفه ابنه ووريثه آحاب، وهو القصر الذي عُرف بـ «بيت العاج[٤]»، وقد أظهرت فيه الحفريّات الحديثة أثاثاً منزّلاً بالعاج، ويبدو أنّ جانباً كبيراً منه كان مكسوّاً بالذهب. وكانت أهمّ جماعة من نحّاتي العاج يومها تزدهر في الشمال: في سورية، حيث كانت توجد منازل غنيّة ذات غرف مخطّطة بخشب الأرز المنزّل بألواح من العاج.

---

١ ـ سفر الملوك الاوّل، ١٦ : ١٥ ـ ١٨

٢ ـ سفر الملوك الاوّل، ١٦ : ٢١ ـ ٢٢

٣ ـ سفر الملوك الاوّل، ١٦ : ٢٤. تقع السامرة على ستة أميال شمالي غربي شكيم، وموقع ترصة لم يعرف بعد. أنظر «ترزة» في John D. Davis, the west minster Dictionary of the Bible, Rev. Henry S. Gehman (Philadelphia, 1944), Abel, vol. II, P. 485.

٤ ـ سفر الملوك الاوّل، ٢٢ : ٣٩؛ سفر عاموس، ٣ : ١٥؛ ٦ : ٤؛ J.W. Crowfoot and Grace M. Crowfoot, Early Ivories from Samaria (London, 1938), PP. 1 - 6

وكان في قصور داود وسليمان في أورشليم على الغالب مثل هذه الغرف المخطّطة بخشب الأرز. والقصر الملكيّ في السّامرة هو المثل الوحيد لقصر تأكدّ العلماء من وجوده من أيّام العهد القديم. وقد بلغ من الأثر الذي تركه عمري في معاصريه أنّه لمدّة قرن بعد انتهاء سلالته، استمرّت الحوليّات الأشوريّة على الإشارة الى السّامرة باسم «بيت حمري» وهي تحريف لـ «بيت عُمْري[1]».

وعندما مات الملك الإسرائيليّ عمري سنة ٨٧٥ ق.م. بعد اثنتي عشرة سنة من الحكم، كان مَلك يهوذا: آسا، يطوي السنة الثامنة والثلاثين من عهده. وانقضت أربع سنوات من مُلك آحاب بن عمري، قبل أن ينتهي عمر آسا (٨٧١ ق.م.) ليُدفن مع آبائه في مدينة داود، وليخلفه ابنه يوشافاط.

يوشافاط يهوذا
وآحاب إسرائيل

يُعدُّ يوشافاط من الملوك العظام الذين اعتلوا عرش يهوذا. فقد سار من الناحية الدينيّة على خُطى أبيه آسا[2]، أمّا لناحية السياسة أو القيادة، فقد «تقوّى على إسرائيل» بعد أن حصّن مملكة يهوذا، بتقوية الجيش، وإقامة المحافظين في مدن أفرائيم الإسرائيليّة التي سبق لأبيه أن ضمّها لمملكته، وقد أعطى هذا الملك لاسمه: يوشافاط، أي: الملك يَدين، معناه الحقيقيّ، فكان حكمه حازماً وصارماً في الداخل، وملقيا الرهبة في جوار يهوذا، بحيث سالمه إسرائيل، واتّقاه الفلسطينيّون الذين دفعوا له جزية قيّمة، وكذلك فعلت قبائل البدو العربيّة التي كانت قد تسلّلت إلى مناطق أدوم وموآب، حتى بلغ من الجاه والعظمة والغنى منزلةً رفيعة[3]. ولأوّل مرّة في تاريخ المملكتين العبرانيتيّن، تتمّ مصاهرة بينهما، إذ يزوّج يوشافاط

---

١ - حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ١، ص ٢٠٩
٢ - سفر الملوك الاوّل، ٢٢ : ٤٣؛ سفر الاخبار الثاني، ٤ : ٣ - ٤
٣ - سفر الأخبار الثاني، ١٧ : ١٠ - ١٢

ابنه يورام، عَتَلْيا، ابنة (أو أخت) آحاب، ملك إسرائيل. وعندما زار يوشافاط ندّه الإسرائيليّ آحاب في السامرة، جرى له استقبال عظيم، وجرى بخلال هذا اللقاء ما يشبه المعاهدة بين الملكين العبرانيّين على غزو جلعاد الآراميّة[1].

كان آحاب بن عمري بدوره سياسيّاً مبرّزاً في عصره، إلاّ أنّه لم يكن مخلصاً في عبادته اليهويّة، بل عَبد البعل، خاصة بعد أن تزوّج إيزابل بنت أتُبعل ملك صيدون، الذي كان من كهنة عشتروت، وقد تولّى المُلك على صور وصيدا في الوقت الذي مَلك عمري في إسرائيل. وقد توسّعت العلاقات الإسرائيليّة الفينيقيّة في عهد الرجلين، ممّا أدّى إلى مزيد من التقارب الدينيّ، أسفر عن إقامة الملك الإسرائيليّ مذبحاً للبعل في السامرة[2].

لقد كان زواج آحاب من إيزابل، ذات الشخصيّة القويّة التي سيطرت على زوجها وتمكّنت من فرض عبادة البعل على إسرائيل، سبب نزاع مرير وطويل للسيادة على حياة إسرائيل الدينيّة بين عبادة البعل وعبادة يهوه. ويبدو للمدّقق في أخبار تلك الحقبة، أنّه بينما كان آحاب ينحو باتجاهه الدينيّ نحو الفينيقيّين والبعل، كان يوشافاط، ملك يهوذا، يحاول التقرّب من إسرائيل، في محاولة لتغليب عبادة يهوه فيها.

في هذه الأثناء، وقع جفاف قاس في إسرائيل، أدّى الى مجاعة كبرى، فردّ بعض الناس ذلك إلى غضب الربّ، بسبب عبادة إسرائيل للبعل، وقيام إيزابل بإبعاد رجال الدين والأنبياء اليهويّين، وإحلالها مكانهم ثماني مئة وخمسين كاهناً للبعل.

كان على رأس الإسرائيليّين الغاضبين، النبيّ إيليّا. (نحو ٨٨٠ ـ ٨٥٠ ق.م.) الذي راح يتصدّى لعبادة البعل في إسرائيل، ويتزعّم ما يشبه الثورة الشعبيّة ضد الملك «الضالّ» وزوجته «الدّخيلة». وقد اضّطر إيليّا إلى الهرب من وجه الملكة

---

١ ـ الإسم الذي كان يُطلق على البلاد الجبليّة الواقعة بين الأردن والبادية العربيّة.
٢ ـ راجع: سفر الملوك الاول، ١٦ : ٢٩ ـ ٣٢؛ سفر الأخبار الثاني، ١٨ : ٢ ـ ٣

مرّتين إلى صرفة صيدا حيث أقام ابن الأرملة بعد موته، وإلى صحراء سيناء. إلاّ أنّه في النهاية خذل كهنة البعل التابعين لإيزابل، وأمر الشعب الثائر بقتلهم، فذُبحوا عند نهر قيشون[1]. لكنّ ردّة فعل إيزابل كانت عنيفة، فقمعت ثورة الشعب، وأقسمت بآلهتها على الانتقام من إيليّا الذي اضطر إلى الهرب الى سيناء. ولكنّه عاد منها سرّاً، واختلس مقابلة مع آحاب، ويبدو أنّ هذه المرّة أثّر النبيّ بالملك الذي «مزّق ثيابه وجعل على بدنه مسحاً وصام[2] ... »، رغم أنّه كان قد حقّق انتصاراً ساحقاً على الآراميّين الذين حاولوا غزو عاصمة ملكه بقيادة بنهدد ملك دمشق[3].

في هذه الأجواء، كانت المعاهدة بين مَلك يهوذا المستقرّ: يوشافاط، ومَلك إسرائيل القلق: آحاب. أمّا عنوان تلك المعاهدة فكان: الحملة على راموت جلعاد الآراميّة. وبينما تنبّأ كهّان البعل لآحاب بالنصر في تلك الحملة، كان قد بقي كاهن يهويّ واحد في إسرائيل، اسمه ميخا، محجوز في السجن، تنبّأ لآحاب بالموت في هذه الحملة. وقد صدقت نبوءة ميخا، إذ أُصيب الملك برمح وهو يحارب إلى جانب ملِك يهوذا في راموت جلعاد، فَنُقل إلى السامرة حيث دُفن[4]. أمّا يوشافاط، فرجع بسلام إلى بيته في أورشليم[5]، حيث راح يُجري الإصلاحات الدينيّة والتنظيميّة، فأنشأ سلطة قضائية مركزيّة في يهوذا الى جانب السلطة القضائيّة البلديّة، التي كانت تقضي «باسم الرب[6]». وقد كان هذا الملك موفّقاً في ملكه حتّى النهاية، إذ تمكّن من صدّ غزوات بني موآب وبني عمّون ومن معهم من أهل جبل سعير الذين حاولوا غزو أورشليم، وغنم منهم مغانم عظيمة. وينسب محرّرو التوراة هذا النصر

---

١ - راجع: سفر الملوك الاوّل، الفصلين ١٧ و ١٨
٢ - سفر الملوك الاوّل، ٢١ : ٢٧
٣ - سفرالملوك الاوّل، الفصل ٢٠
٤ - راجع: سفر الملوك الاوّل، الفصل ٢٢؛ سفر الأخبار الثاني، الفصل ١٨.
٥ - سفر الأخبار الثاني، ١٩ : ١
٦ - راجع: سفر الاخبار الثاني، ١٩ : ٤ - ١١

إلى «تدخّل الربّ» الذي «نصب لهؤلاء الغزاة كميناً... فأهلك بعضهم بعضاً» قبل أن يصلوا إلى أرض يهوذا[1].

وكان هذا آخر إنجاز لملك يهوذا الرابع بعد الانقسام: يوشافاط بن آسا، الذي كان أوّل من سعى، ليس إلى وقف الحرب بين يهوذا وإسرائيل فحسب، بل إلى التحالف والتعاهد بين المملكتين. فبالإضافة إلى ما حقّقه من هذا القبيل مع ندّه الإسرائيليّ آحاب، حالف يوشافاط أَحَزْيا الذي خلف أباه آحاب على عرش إسرائيل، قبل أن يموت يوشافاط ويُدفن مع آبائه في أورشليم. كما آزر يورام، خليفة أحزيا، في محاولة قمعه لتمرّد ملك موآب[2]، وإن كان مشكوكاً بصحّة هذا الحدث الأخير[3].

إليشاع، وإعادة عبادة يهوه

قبل أن يخلف يوشافاط على عرش يهوذا ابنه يورام، (٨٤٨ ـ ٨٤١ ق.م.) خلف آحاب على إسرائيل ابنُه أحزيا الذي لم يدم ملكه سوى سنتين (٨٥٣ ـ ٨٥٢ ق.م.)، وقد سار في طريق أبيه وأمّه الفينيقيّة إيزابل في عبادة البعل. ولم يكن قد أتمّ السنة الثانية من ملكه عندما سقط من نافذة علّيّة قصر السّامرة، فمات بعد أيّام، دون أن يترك عقباً، فخلفه أخوه يورام (٨٥٢ ـ ٨٤١ ق.م.) ليصبح بعد سنوات، على كلٍّ من عرشي يهوذا وإسرائيل، ملك اسمه يورام[4]. وفي الحقبة نفسها، خلف النبيّ إيليّا، تلميذُه النبيّ إيليشاع، بعد أن «صعد إيليّا في العاصفة نحو السماء[5]».

---

١ - راجع: سفر الأخبار الثاني، الفصل ٢٠

٢ - راجع: سفر الملوك الاوّل، ٢٢: ٤٩؛ سفر الأخبار الثاني، ٢٠: ٣٥؛ سفر الملوك الثاني، ٣: ٦ ـ ٨

٣ - راجع: الكتاب المقدّس، العهد القديم، دار المشرق (بيروت ١٩٩١) ص ٦٨١، ح (٣)

٤ - راجع: سفر الملوك الاوّل، ٢٢: ٥٢ ـ ٥٤؛ سفر الملوك الثاني، ١: ١٧؛ ٣: ١؛ سفر الأخبار الثاني، ٢١: ١

٥ - سفر الملوك الثاني، ٢: ١١

أبرز ما واجهه يورام إسرائيل في بداية عهده، كان تمرّد ملك موآب: ميشا. وتذكر النصوص التوراتيّة أنّ يورام إسرائيل، قد استنجد لقمع هذا التمرّد «بيوشافاط ملك يهوذا[1] ». غير أنّ التسلسل الزمنيّ يثبت أن هذا التمرّد قد حصل على عهد يورام يهوذا بن يوشافاط.

على أيّ حال، فإنّ مَلكَي العبرانيّين، قد استنجدا أيضاً بملك أدوم ليتمكّنا من مهاجمة موآب من الجنوب، بالدوران حول البحر الميت، وباجتياز أرض أدوم. ورغم هذا التحالف، موآب صمدت، وإن تلقّت من جيوش الملوك الثلاثة ضربة كبيرة.

وكما تمرّد الموآبيّون على يورام إسرائيل، كذلك تمرّد الأدوميّون على يورام يهوذا «وأقاموا عليهم ملكاً[2] ». ومن شأن تمرّد موآب على إسرائيل، وتمرّد أدوم على يهوذا، أن يدلاّ على ضعف تينك المملكتين.

في هذه الأثناء، كانت قوّة وريث إيليّا النبيّ: إليشاع، تنمو وتتّسع، وتؤذن بقرب تمكّن تحقيق إليشاع ما فشل به معلمّه إيليّا: الثورة. وكان أهمّ ما قام به إليشاع على هذا الصعيد، أنّه مسح ضابطاً في الجيش، اسمه ياهو، ملكاً على إسرائيل، وحرّضه على أن «يبيد كلّ بيت آحاب ويقرض من آحاب كلّ بائل على حائط... وأمّا إيزابل، فتأكلها الكلاب في حقل يزراعيل، ولا يدفنها دافن[3] ». وإذ قام هذا الضابط المحرَّض من النبيّ بثورته، قضى على السلالة المالكة في إسرائيل. فبعد قتْله يورام بن آحاب، ورميه الملكة الأم إيزابل الفينيقيّة من نافذة قصرها، حتّى أكلت جثّتها الكلاب[4]، «قتل ياهو جميع أبناء بيت آحاب وجميع عظمائه ومقرّبيه وكهنته، حتّى لم يُبقِ له باقياً[5] » وقتل من طالت يده من إخوة ملك يهوذا... ثمّ دبّر مكيدة جمع بواسطتها كهنة البعل في إسرائيل وجميع عبّاده في المعبد، مدّعياً

---

١ ـ سفر الملوك الثاني، ٣ : ٧

٢ ـ سفر الملوك الثاني، ٨ : ٢٠

٣ ـ سفر الملوك الثاني، ٩ : ٨ ـ ٩

٤ ـ سفر الملوك الثاني، ٩ : ٣٣ ـ ٣٥

٥ ـ سفر الملوك الثاني، ١٠ : ١١

أنّه من عبّاد البعل ويريد إقامة ذبيحة عظيمة له. وعندما غصّ المعبد بالكهنة والعبّاد، أعمل جنوده السيف برقابهم حتّى أبادوهم، وخرّبوا بيت البعل وحوّلوه إلى مرحاض. واستولى ياهو على المُلك في إسرائيل[1]، حوالى سنة ٨٤١ ق.م.

لقد جاءت ثورة ياهو في وقت كانت مملكة إسرائيل ومملكة يهوذا في حال من التقارب الواضح، فكان يورام يهوذا قد تزوّج بأخت يورام إسرائيل. وإذ مات يورام يهوذا قبل ثورة ياهو بقليل، وخلفه ابنه أحزيا، الذي حاول مساعدة خاله ملك إسرائيل ضدّ ثورة ياهو، كان مصيره مصير خاله يورام، فردّت أمّه عتليا بأن أبادت كلّ النسل الملكيّ من بيت يهوذا، واستأثرت بالملك. إلاّ أنّ حفيدها يوآش، الذي خلّصته عمّته يوشبعت من مجزرة عتليا، وخبأته عندها ستّ سنوات، أُعيد إلى العرش إثر ثورة قام بها الكاهن يوياداع، صهر الأسرة المالكة، قُتلت بخلالها عتليا. وبقي هذا الكاهن الثائر مسيطراً على العرش بمؤازرة اللاّويّين وأكثرية زعماء يهوذا، إلى أن شبّ الملك يوآش، فتسنّم العرش، وأكمل مشروع وصيّه الكاهن بإعادة عبادة يهوه في يهوذا، ثم جدّد بناء هيكل الربّ في أورشليم[2].

بانتقال المُلك في إسرائيل إلى ياهو (٨٤١ ـ ٨١٤ ق.م.) وأسرته من بعده، وبعودته إلى سلالة داود في يهوذا، مع تسنّم العرش من قبل يوآش (٨٣٥ ـ ٧٩٦ ق.م.) عمّت عبادة يهوه المناطق العبرانيّة التي أخذت تضعف مملكتاهم مع الأيّام. فإنّ يوآش، إشترى أمن أورشليم ويهوذا بجمعه «جميع الأقداس التي قدّسها يوشافاط ويورام وأحزيا، آباؤه ملوك يهوذا، وأقداسه وكلّ الذهب الموجود في خزائن بيت الربّ وبيت الملك، وأرسلها إلى حزائيل، ملك أرام» الذي كان يهدّد أورشليم بجيشه بعد أن استولى على جتّ[3]. وكان هذا الملك الأراميّ نفسه: حزائيل، قد خرّب جميع أراضي مملكة إسرائيل «من الأردنّ جهة مشرق الشمس

---

١ ـ سفرالأخبار الثاني، ٢٢ : ١٠ ـ ١٢؛ سفر الملوك الثاني، ١١ : ١ ـ ٣

٢ ـ راجع: سفر الأخبار الثاني، الفصلين ٢٣ و ٢٤؛ سفر الملوك الثاني، ١١ : ٤ ـ ٢٠؛ ١٢ : ١ ـ ١٣

٣ ـ سفر الملوك الثاني، ١٢ : ١٨ ـ ١٩

ضرب كلّ أرض جلعاد، من الجاديّين والرّأوبينيّين والمنشيّين، من عروعير التي على وادي أرنون وجلعاد وباشان[1] ». وهكذا خسر بنو إسرائيل في عهد ياهو جميع ممتلكاتهم في عبر الأردنّ.

وقبل أن يموت النبيّ الذي كان له فعل إحداث ثورة يهوه ضدّ البعل في إسرائيل، وانتقال الملكيّة إلى أسرة ياهو، كان قد خلف ياهو ابنُه يوآحاز (٨٢٠ - ٨٠٣ ق.م.) الذي بلغت مملكة إسرائيل في عهده تقهقراً شنيعاً أمام حزائيل ملك أرام، وبنهدد الثالث. وخلف يوآحاز على إسرائيل ابنُه يوآش (٨٠٣ - ٧٨٧ ق.م.) الذي عاصر يوآش ملك يهوذا سبع سنوات (٨٠٣ - ٧٩٦ ق.م.) لكنّه تحارب مع ابنه أمصيا بن يوآش يهوذا (توفّي ٧٨٢ ق.م.) الذي تسلّم المُلك بعدما قام بعض ضباط الجيش بقتل أبيه، فانتقم منهم أمصيا بأن أبادهم[2].

ومات أليشاع في عهد يوآش، حفيد ياهو الذي مسحه أليشاع ملكاً على إسرائيل كي يقوم بثورته على بيت آحاب وإيزابل، ولينصر عبادة يهوه على عبادة البعل في إسرائيل.

عاد التناحر بين المملكتين العبرانيتين بين نهاية القرن التاسع وبداية القرن الثامن ق.م. وقد بدأ النزاع بين يوآش إسرائيل وأمصيا بن يوآش يهوذا «في بيت شمس التي ليهوذا، فانكسر يهوذا من وجه إسرائيل، وهرب كلّ واحد الى خيمته» إلى أن قبض يوآش على أمصيا، وأتى أورشليم، وهدم سورها على مسافة أربع مئة ذراع، وأخذ كلّ الذهب والفضّة وجميع الآنية التي وجِدت في بيت الربّ وفي خزائن بيت المُلك، إضافة إلى الرهائن، ورجع إلى السّامرة[3].

خلف عزريا أباه أمصيا على عرش يهوذا (٧٨١ - ٧٤٠ ق.م.) وخلف ياربعام الثاني أباه يوآش على عرش إسرائيل (٧٨٧ - ٧٤٧ ق.م.). وفي حين لم

---

١ - سفر الملوك الثاني، ١٠ : ٣٢ - ٣٣

٢ - راجع: سفر الملوك الثاني، ١٢ : ١؛ ١٣ : ٣؛ ١٤ : ١ - ٥

٣ - سفر الملوك الثاني، ١٤ : ١١ - ١٤؛ سفر الأخبار الثاني، ٢٥ : ٢١ - ٢٤

يتمكّن عزريا من القيام بدور الملك بسبب برصه، وقيامه في بيت منفرد، فكان ابنه يوتام يتصرّف بشؤون المملكة[1]، أبدى يربعام الثاني مظاهر غير منتظرة للقوّة بعهده في إسرائيل، إذ تمكّن من توسيع الحدود الشماليّة على حساب الآراميين[2]، «وكشفت الحفريّات عن بقايا السور المزدوج الذي أعاد به تحصين السامرة، وتُظهر هذه البقايا أن عرض السور يبلغ ثلاثة وثلاثين قدماً في بعض الأماكن[3]». وكان هذا الملك آخر عظيم حكم إسرائيل قبل نهايتها.

نهاية مملكة إسرائيل

في غضون ثلاث وعشرين سنة، (٧٤٧ ـ ٧٢٤ ق.م.) تعاقب على مُلك إسرائيل، بعد ياربعام الثاني، ستّة ملوك[4]، وسط صراع على الملك والسلطة أضاع على إسرائيل ما كان يمكن أن يتمتّع به من هدوء «خاصّةً لأنّ أشور لم تكن حينذاك في وضع يسمح لها بمتابعة سياسة الاعتداء. كذلك كانت مصر متوارية عن الأنظار[5]».

فإنّ زكريّا الذي خلف أباه يربعام (٧٤٧ ق.م.) لم يتمكّن من الصمود على عرش إسرائيل أكثر من ستّة أشهر، «إذ تآمر عليه شلوم بن يابيش وضربه أمام الشعب فقتله وملك مكانه[6]». ومثلما قتل شلوم زكريّا، قتله منَحيم بن جادي الذي لم يدعْه يُكمل الشهر الأوّل من ملكه (٧٤٦ ق.م.) وقد لجأ منحيم إلى فرض سيطرته بالعنف على إسرائيل، فضرب كلّ من لم يخضع لحكمه الذي دام تسع سنوات (٧٤٦ ـ ٧٣٧ ق.م.[7]) إلاّ أنّ الأشوريّين كانوا في هذا الوقت قد انتعشوا

١ ـ راجع: سفر الملوك الثاني، ١٤: ٢٣؛ ١٥: ١ ـ ٥؛ سفر الأخبار الثاني، ٢٥: ٢٥
٢ ـ سفر الملوك الثاني، ١٤: ٢٥
٣ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ١، ص ٢١١
٤ ـ راجع: سفر الملوك الثاني، الفصول: ١٥، ١٦، ١٧
٥ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج١ ص ٢١٣
٦ ـ سفر الملوك الثاني، ١٥: ٨ ـ ١٠
٧ ـ سفر الملوك الثاني، ١٥: ١٣ ـ ١٦.

بعهد تجلت فلآسر الثالث (٧٤٥ ـ ٧٢٧ ق.م.) الذي جدّد سلطة أمبراطور أشور. وقد نجح بسلسلة حملات في إخضاع دمشق وجلعاد والجليل وسهل صارونة وتحويلها إلى مقاطعات أشوريّة[١]. وكان منحيم أوّل ملك إسرائيلي تعرّض لحملات تجلت فلآسر الثالث الذي تذكره التوراة باسم «فول»، فاضطر الإسرائيلي إلى أن يعطي فول «ألف قنطار فضّة» ليبقى المُلك بيده، «وحصّل مناجم الفضّة من أصحاب الثروات في مملكته[٢]».

خلف منحيم ابنُه: فقحيا، الذي لم يملك على إسرائيل سوى سنتين (٧٣٧ ـ ٧٣٥ ق.م.) إذ تآمر عليه أحد ضبّاطه: فاقح بن رمليا، وقتله، وملك مكانه (٧٣٥ ـ ٧٣٢ ق.م.) وبعهد هذا الملك الذي مات بدوره قتلاً على يد هوشع بن إيلة الذي اغتصب المُلك أيضاً (٧٣٢ ـ ٧٢٤ ق.م.) عاد تجلت فلآسر ملك أشور وجدّد غزوه لإسرائيل «فأخذ عيون وآبل وبيت معكة ويانوح وقادش وحاصور وجلعاد والجليل وكلّ أرض نفتالي وجلاهم إلى أشور[٣]» فكان هذا جلاء الإسرائيليّين الأوّل.

وتابع شلمنآسر الخامس (٧٢٦ ـ ٧٢٢ ق.م.) خطى سلفه تجلت فلآسر الثالث، فاستعبد ما تبقّى من إسرائيل وملكها هوشع، وعندما توقّف هذا الأخير عن دفع الجزيّة، قبض عليه الملك الآشوريّ وأودعه السجن مقيّداً[٤]، ثمّ أقام حصاراً على السامرة دام ثلاث سنوات بسبب قوّة حصونها[٥]. وسقطت المدينة بين ٧٢٢ و٧٢١ ق.م. في يد سرجون الثاني، خليفة شلمنآسر الخامس، الذي سبى أحسن رجال إسرائيل، وعددهم ٢٧٢٨٠ شخصاً، إلى ميديا[٦]، شرقيّ بلاد ما بين النهرين، وإلى حَلاحَ وعلى الخابور ونهر جوزان، بالقرب من حاران في الشمال

١ ـ سفر الملوك الثاني، ١٧ : ٦
٢ ـ سفر الملوك الثاني، ١٥ : ١٩ ـ ٢٠
٣ ـ سفرالملوك الثاني، ١٥ : ٢٧ ـ ٣٠
٤ ـ سفرالملوك الثاني، ١٧ : ٣ ـ ٤
٥ ـ سفر الملوك الثاني، ١٧ : ٥
٦ ـ راجع: سفر الملوك الثاني، ١٧ : ٦؛ Julices Oppert in: Records of the Past. vol. VII (London, 1876), P. 28

الأقصى لبلاد ما بين النهرين. وقد حلّ الإسرائيليّون في هذه المناطق محلّ بعض أهل البلاد الذين جلاهم تجلت فلآسر عنها. وتلاشت مملكة إسرائيل إلى الأبد. وأسكن الأشوريّون مكان الشعب العبرانيّ قوماً من بابل وكوتَ وعوّا وحماة وسَفَرْوائيم في مدن السامرة. وقد امتزج هؤلاء بمن تبقّى من بني إسرائيل، ليشكّلوا «السامريّين» الذين أصبحوا من أتباع ديانة يهوه[1].

نهـاية مملكة يهـوذا

في الوقت الذي كانت مملكة إسرائيل تشهد نهايتها، كان المَلك على يهوذا؛ آحاز (٧٣٥ ـ ٧١٦ ق.م.) الذي خلف أباه يوتام (٧٤٠ ـ ٧٣٥ ق.م.) إبن عزريا الذي ملك وهو أبرص (٧٨١ ـ ٧٤٠ ق.م.) فكان يوتام يصرّف أمور المملكة مكانه. وكان على يوتام أن يواجه «رصين» آخر ملوك دمشق الآراميّة، قبل أن يستولي الأشوريّون عليها، كذلك كان عليه أن يصدّ اعتداءات ندّه الإسرائيليّ: فاقح، على يهوذا[2].

رفض آحاز الدخول في حلف مع فاقح، ملك إسرائيل، ورصين، آخر ملوك دمشق الآراميّة، ضدّ العدوّ المشترك: أشور، ممّا جعل الملكَين: الإسرائيليّ والآراميّ يهاجمان أورشليم في محاولة للضغط على يهوذا للتحالف. وعندما عجزا عن قهره، استولى رصين على إيلة، وطرد اليهود منها، وأسكن الأدوميّين مكانهم[3]. وهذا لم يمنع آحاز من تنفيذ سياسته غير المقاومة، فبعث إلى تجلت فلآسر يقول: «أنا عبدك وابنك، فاصعد وخلّصني من يد ملك آرام ويد ملك إسرائيل القائمَين عليّ»، وبعث آحاز إلى الفاتح الأشوريّ مع الرسل «ما وجد من الفضّة والذهب في بيت الربّ. وخزائن بيت المُلك» فاستجاب الأشوريّ، وهاجم دمشق واحتلّها وقتل

---

١ ـ راجع: سفر الملوك الأوّل، ١٦ : ٢٤؛ سفر الملوك الثاني، ١٧ : ٢٥ ـ ٣٣

٢ ـ راجع: سفر الملوك الثاني، ١٥ : ٥، ٣٢، ٣٧؛ ١٦ : ١

٣ ـ سفر الملوك الثاني، ١٦ : ٥ ـ ٦

رصين (٧٣٣ ـ ٧٣٢ ق.م.). ثمّ لاقى آحاز الفاتح الأشوريّ في دمشق وأعلن له الخضوع[١]، فحيّد بذلك مملكة يهوذا عن مصير مملكة إسرائيل.

خلف آحاز، ابنه حزقيّا (حوالى ٧٢١ ـ ٦٩٣ ق.م.) وكان في بداية عهده يدفع الجزية لأشور. إلاّ أنّ هذا الملك، قام فيما بعد، باتّباع سياسة تحدّ ضدّ أشور، بعد أن شجّعته مصر، دون أن يكترث لتحذير النبيّ إشعيا، فتحالف مع المدن الفلسطينيّة وغيرها من الدول المجاورة. واستعداداً للحؤول دون أيّ حصار يقطع المياه عن عاصمته، حفر قناة طولها ١٧١١ قدماً في الصخر لتنقل المياه من عين جيحون إلى داخل السور، وقد حلّت هذه القناة محلّ قناة أقدم[٢].

بنتيجة ذلك التحدّي «قام سرجون وخلفُه سنحاريب (٧٠٥ ـ ٦٨١ ق.م.) بسلسلة حملات وعمليّات حربيّة انتقاميّة ضدّ فينيقية والمدن الفلسطينيّة ويهوذا، بلغت ذروتها سنة ٧٠١ ق.م. في حصار أورشليم. وبعد الاستيلاء على صيدا وعكّة وخضوع موفدي أشدود وعمون وموآب وأدوم، تقدّم سنحاريب على الساحل الفلسطينيّ، فأخذ يافة والمدن الأخرى، حتّى عسقلان وحدود مصر في الجنوب. ثمّ تحوّل إلى الشرق وفتح لاخيش. وقاومت صور وعقرون. وعندما سمع أنّ الجيش المصريّ كان يتقدّم إلى الشمال، رأى أنّه لا يجوز ترك حصن عظيم مثل أورشليم في مؤخّرته، فأرسل فرقة إلى أورشليم، وزحف مع بقيّة جيشه نحو الجنوب. والتحم عند «التقيّة» في معركة مع القوّات المصريّة والحبشيّة المجتمعة بقيادة «طهرقا» وحال دون تقدّمها. ولكنّه قبل أن يتمكّن من تحويل كامل قوّاته ضد أورشليم «خرج ملاك الربّ وضرب في تلك الليلة مئة ألف وخمسة وثمانين ألفاً من جيش أشور[٣]». وهكذا، فإنّ «أورشليم لم تسقط، غير أنّ مناطق الريف

---

١ ـ سفر الملوك الثاني، ١٦ : ٧ ـ ١٠؛ ١٧ ـ ١٨؛ سفر الأخبار الثاني، ٢٨ : ١٦ ، ٢٤.
٢ ـ سفر الملوك الثاني، ٢٠ : ٢٠؛ سفر الأخبار الثاني، ٣٢ : ٢
٣ ـ سفر الملوك الثاني، ١٩ : ٣٥؛ ويذكر حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ١، ص ٢١٧، أنه «ربّما كان ذلك هو الطاعون الذي أصاب جيش نابوليون في تلك المنطقة في ١٧٩٩ والذي كثيراً ما كان يصيب الحجّاج المسلمين».

خُرّبت. واعتقد الملك، والنبيّ إشعيا، كما يبدو، أنّ يهوه سيحمي أورشليم مهما كانت الظروف، فسمح لحزقيّا بأن يحتفظ بعرشه، ولكنه اضّطر إلى أن يدفع الجزية المتأخّرة، وأن يُرسل بناته وغيرهنّ من نساء القصر والكنوز الثمينة إلى بابل بعد عودة سنحاريب الى نينوى[1] ».

خلف حزقيّا على عرش يهوذا ابنُه منسّى (٦٨٧ ـ ٦٤٢ ق.م.) فكان حكمه الداخليّ صارماً بل جائراً، في ظلّ مهادنته للخارج عن طريق الانصياع، بعد أن خرج عن عبادة يهوه. ويُنسب الى منسّى أنّه قتل النبيّ إشعيا، في مجزرة «سفَك بخلالها دماً زكيّاً كثيراً جدّاً، حتّى ملأ أورشليم من الجانب إلى الجانب[2] ». وبعد خمس وعشرين سنة من هذا الحكم الجائر، مات منسّى ليخلفه ابنُه آمون (٦٤٢ ـ ٦٤٠ ق.م.) فسار على خطى أبيه إلى أن تآمر عليه وزراؤه وتخلّصوا منه بقتله في بيته. غير أنّ أبناء شعب يهوذا، أمانة لنسل دواد، ثاروا على قاتلي حفيده، وأبادوهم[3]، ونصّبوا ملكاً ابن آمون: يوشيّا، الذي تميّز عن سواه من ملوك يهوذا في تلك الحقبة من التاريخ.

عندما تسنّم يوشيّا عرش يهوذا (٦٤٠ ق.م.) كان قد مضى أكثر من ثمانين سنة على انتهاء مملكة إسرائيل على يد أشور.

كان يوشيّا ابن ثماني سنوات حين نُصّب ملكا على يهوذا. ولكن يبدو، من خلال الإنجازات التي حقّقها في بداية عهده، أنّه كان مُحاطاً بفعاليات قادرة من الشعب المخلص لبيت داود. وتمكّن يوشيّا من مقاومة تقدّم الجيش المصريّ الزاحف نحو الشمال، فجُرح بسهم (حوالى ٦٠٩ ق.م.) في ساحة الحرب بمجدو، فكان مميتاً[4].

---

١ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج١ ص ٢١٧؛ راجع: سفرالملوك الثاني، ١٩ : ٦ ـ ٧، ٢٠
٢ ـ سفر الملوك الثاني، ٢١ : ١٦
٣ ـ سفر الملوك الثاني، ٢١ : ٢٣ ـ ٢٤
٤ ـ سفر الملوك الثاني، ٢٣ : ٢٩ ـ ٣٠؛ سفر الأخبار الثاني، ٣٥ : ٢٠ ـ ٢٤

إكتسب يوشيّا شهرة خالدة كمُصلح دينيّ. «ففي عام ٦٢١ ق.م. بينما كانت تجري إصلاحات في الهيكل، وُجدت نسخة من كتاب كان غالباً سفر التثنية، أو الجزء الأهمّ منه. ويبدو أنّهم لم يهتمّوا بهذا الكتاب في عهد الردّة والاضطهاد، خاصّة في أيّام منسّى. وأثّرت قراءة سفر التثنية على الملك يوشيّا وشعبه، حتّى إنّهم تعاهدوا على عبادة يهوه وحده، وأحرقوا أواني بعل، ونماذج الأجرام السماويّة المؤلّهة التي كانت في الهيكل، وهدموا بيوت المأبونين المجاورة، وخرّبوا «المرتفعات» في بلاد يهوذا وحتّى في إسرائيل[1]».

كان الفرعون المصري: نكاو الثاني (٦٠٩ ـ ٥٩٤ ق.م.) هو الذي قتل يوشيًا. وعندما نصّب شعب يهوذا يوآحاز بن يوشيًا ملكاً، سارع نكاو إلى اعتقاله، وإلى تعيين أخيه إلياقيم ملكاً مكانه، فغيّر اسمه إلى يوياقيم[2] ... الذي خضع لمصر، وراح يدفع الجزية للفرعون[3] الذي عيّنه ملكاً، وتحدّى نبوكدنآسر، الذي كان أبوه نابو بولآسر قد اتّحد مع الميديّين وقام بثورة قضت على الدولة الأشوريّة التي أقام على أنقاضها الدولة البابليّة الجديدة. ولقد أدّى انتصار نبوكدنآسر على المصريّين في كركميش سنة ٦٠٥ق.م. وانتزاع جميع آسيا من أيديهم[4]، إلى سيادة الدولة البابليّة التامّة على تلك المنطقة، ممّا قضى على يهوياقيم، حليف مصر، إثر دخول جيوش نبوكدنآسر أورشليم في ٥٩٧ ق.م. وأسرها ملك يهوذا المتمرّد، وتقييده بالسلاسل، لحمله إلى بابل؛ إلاّ أن سليل داود مات، أو قُتل، قبل نقله من عاصمة ملكه وهو مقيّد، فطُرحت جثّته خارج أبواب أورشليم، فتحقّقت بذلك نبوءة إرميا التي توقّعت ليهوياقيم بأنّه «سيُدفن دفن حمار[5]».

---

١ ـ سفر الملوك الثاني، ٢٣ : ١ ـ ٢٥؛ سفر الأخبار الثاني، ٣٤ : ٢٩ ـ ٣٥ ، ١٨؛ راجع: حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ١ ص ٢١٨

٢ ـ إن معنى إسم «إلياقيم» وأصلها «إيل ياقيم»، و «يوياقيم»، وأصلها «يهوياقيم» هو نفسه، إلاّ أن الأوّل إيلي: «الله يرفع» والثاني يهوي: «يهوا يرفع». ومن شأن هذا التغيير أن يدلّ على علاقة بإرادة فرعونيّة...

٣ ـ راجع: سفرالملوك الثاني، ٢٣ : ٣١ ـ ٣٥؛ سفر الأخبار الثاني، ٣٦ : ٤ وما بعدها.

٤ ـ سفرالملوك الثاني، ٢٤ : ٧

٥ ـ إرميا، ٢٢ : ١٩؛ راجع: سفر الأخبار الثاني، ٣٦ : ٦

خلف يهوياقيم ابنُه يهوياقين[1]، الذي لم يكن أفضل من أبيه حظّاً، ففي الشهر الثالث لملكه، وصل نبوكدنآسر نفسه إلى أورشليم، وفي ١٦ آذار (مارس) سنة ٥٩٧ ق.م. استسلم هذا الملك المنكود الحظّ للقائد البابليّ «هو وأمّه وضبّاطه وأشرافه وخصيانه...» فأخذهم البابليّ، ومعهم «جميع كنوز بيت الربّ وكنوز بيت الملك» إضافة إلى سبعة آلاف من جنوده، وألف من مهرة صنّاعه، إلى بابل. وكان حزقيّال النبيّ بين الزعماء الدينيّين الذين أُسروا[2].

هذه المرّة، عُيّن ملك يهوذا من قبل الفاتح البابليّ، الذي أبقى الملكيّة العبرانيّة بيد سلالة داود، فعيّن صدقيّا، عمّ يهوياقين على العرش. وقد تظاهر صدقيًّا في بداية عهده بالولاء للبابليّين، ولكنّه كان يعمل سرّاً للاستقلال بالحكم استجابة لرغبة الزعماء العبرانيّين داخل مملكته. وما أن تأكّد لنبوكدنآسر صحّة عدم ولاء الملك العبرانيّ له، حتّى أرسل جيشاً حاصر أورشليم بهدف تدميرها. وهنا يتّضح أن صدقيًّا كان مُتّكلاً على المصريّين، إذ سارع هؤلاء إلى التحرّك بإرسال قوّة بقيادة «هوفرع» لنجدة صدقيّا، فتراجع الكلدانيّون عن الحصار لحين، عادوا بعده في العام ٥٨٦ ق.م. ليقيموا حصاراً أكثر شدّة، هرب بخلاله الملك ورجال حربه ليلاً، ولكنّ المحاصِرين أدركوه في سهل أريحا، فاعتقلوه ونقلوه إلى نبوكدنآسر الذي قتل أبناءه أمامه، قبل أن يسمل عينيه «ليكون ذلك آخر مشهد يراه». ثمّ قُيّد الملك العبرانيّ بالسلاسل وحُمل إلى بابل. أمّا أورشليم، فهُدمت مع هيكلها. وسُبي العظماء من سكان المدينة والمملكة التي لم يبقَ فيها سوى جماعة من البائسين[3]. وبذلك انتهت مملكة يهوذا (٥٨٦ ق.م.) التي دامت حوالى ٣٤٧ سنة، منذ تاريخ الانشقاق العبرانيّ إلى مملكتين (٩٣٣ ق.م.). وكان جميع ملوكها من سلالة داود وابنه سليمان.

---

١ - إسم الأب: «يهوياقيم» والإبن: «يهوياقين» متشابهان في اللفظ والمعنى: «يهوا يرفع».

٢ - راجع: سفر الملوك الثاني، ٢٤ : ١٠ - ١٦؛ سفر الأخبار الثاني، ٣٦ : ٩ - ١٠

٣ - راجع: سفر الملوك الثاني، ٢٥ : ١ - ٧؛ سفر الأخبار الثاني، ٣٦ : ١١ - ٢١؛ إرميا، الفصول ٣٩ - ٥٢.

الفصل السابع

بين اليونان والرومان

- العودة من السبي
- بعد الفتح اليونانيّ
- أنطيوخس يُنزل الويل بأورشليم
- ثورة المكابيّين
- الجمهوريّة اليهوديّة الأولى
- الهيروديّون والعهد الرومانيّ
- نهاية الكيان.



بعد تدمير نبوكدنآسر لأورشليم سنة ٥٨٦ ق.م. وسبيه لعبرانيّي يهوذا، ثمّ إخضاعه صور سنة ٥٧٢ ق.م. إثر حصار دام ثلاثة عشر عاماً، كان على منطقة شرقيّ البحر الأبيض المتوسّط أن تخضع لحكم البابليّين الذين عُرفوا أيضاً بالكلدانيّين ثماني وأربعين سنة كانت نهايتها سنة ٥٣٨ ق.م. حين هاجم شعب جديد ظهر في منطقة أبعد إلى الشرق: الفرس، بقيادة كورش، هاجموا جارتهم بابل، بعد أن وحّد كورش الميديّين والفرس المنتمين الى جدّ واحد، وكان يحكم بابل إذّاك نابونيدس (٥٥٦ ـ ٥٣٨ق.م.). وسرعان ما غدت الدولة الفارسيّة ذات الأصول الهندو أوروبيّة دولة عالميّة جديدة، أصبحت دويلات شرقيّ البحر الأبيض المتوسّط الساميّة الشّعوب خاضعة لها. وبذلك انتقل عصر السّيادة في هذه المنطقة من الساميّين إلى الفرس. وقد نظّم هذه الدولة بشكل حضاريّ جديد، داريوس الأوّل (٥٢٦ ـ ٤٨٦ ق.م.) الذي يُعتبر من أقدر ملوك العالم القديم وأكثرهم اطّلاعاً وتنوّراً، وقد قسّم البلاد إلى ثلاث وعشرين مقاطعة تسمّى «مرزبانة» يحكم كلاّ منها حاكم مدنّي يُدعى «مرزبان» يقوم إلى جانبه قائد وأمين سرّ مستقلّ كلّ منهما عن الآخر، ويتّصلان بالعاصمة مباشرة. وقد تمتّعت القوميّات الخاضعة في المرزبانات بوضع مستقلّ إلى حدّ، مما أوجد عاملاً للاستقرار فيها. وفرض النظام على كلّ مرزبانة حصّة معيّنة من الجزية، ونشر المراقبين والجواسيس في مختلف أنحاء الأمبراطوريّة ليكونوا عين السلطة المراقبة. واختصاراً، «جمع هذا النظام الفارسيّ أحسن خصائص النظامَين المصريّ والأشوريّ وتجنّب مساوئهما[1]».

كانت «أرض الميعاد»، إضافة إلى سورية ولبنان وجزيرة قبرص، في الولاية الخامسة التي سُمّيت مرزبانة «عبر نهرا» أي «عبر النهر»، والمقصود نهر الفرات[2]

---

١ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ١ ص ٢٤٢، وراجع: ص ١٧٥، ١٨٤، ٢١٩، ٢٣٨ ـ ٢٤١؛ سفر دانيّال، ٥ : ٢٨

٢ ـ راجع: سفر عزرا، ٦ :٦، ٨، ١٣

حين دخل كورش بابل حوالى ٥٣٩ ق.م.، وجد جالية يهوديّة يعود أصلها إلى سبي نبوكدناّسر الذي كان قد حصل على مرحلتين، (٥٩٧ و ٥٨٦ ق.م.) ويفترض الباحثون أن أفراد هذه الجالية كانوا قد ساعدوا الفرس على احتلال المدينة. وهذا ما يبرّر مسارعة الفاتح الفارسيّ إلى إصدار مرسوم يخوّل الذين يودّون الرجوع إلى أرض آبائهم وإعادة بناء معبدهم حقّ العودة[1]. لذلك اعتبر العبرانيّون كورش «مخلّصاً أرسله الله[2]». أمّا كورش، «فقد تصوّر، على ما يظهر، أنّ وجود طائفة يهوديّة في فلسطين تدين بوجودها لإحسانه، سيشكّل توازناً فعّالاً تجاه الحزب الموالي للمصريّين الذي طالما برز في شؤون فلسطين[3]».

كان على رأس العائدين إلى أورشليم «المرشدون الدينيّون الأحد عشر: زربابّل، ويشوع، ونحميا، وسرايا، ورعليا، ومردكاي، وبلشان، ومسكار، وبجواي، وبعنة» ومعهم «إثنان وأربعون ألفاً وثلاث مئة وستّون (نسمة) ما عدا عبيدهم وإماءهم وهم سبعة آلاف وثلاث مئة وسبعة وثلاثون، ولهم مئتان من المغنّين والمغنّيات. وخيلهم سبع مئة وثلاثون، وبغالهم مئتان وخمسة وأربعون، وجمالهم أربع مئة وخمسة وثلاثون، وحميرهم ستة آلاف وسبع مئة وعشرون[4]». إلاّ أنّ بعض الباحثين يعتبر أنّ «هذا الرّقم مُبالغ فيه إذا ما قورن بمجموع المسبيّين وهو ٥٨ ألف نسمة، كما أنّه لا ينطبق مع ما جاء في القوائم المفصّلة التي تسبق الجمع النهائيّ[5]. ولا بدّ من أنّ الذين استجابوا لهذه الدعوة هم بصورة رئيسيّة من العناصر الناقمة ومن الذين لم تكن لهم جذور في الأرض الجديدة[6]»، ومن المتعصّبين لإعادة بناء الهيكل، «لأنّ الدلائل تُشير إلى أنّ هناك عدداً غير قليل

١ - سفر عزرا، ٦ : ٣ - ٥
٢ - سفر إشعيا، ٤٤ : ٢٨ ؛ ٤٥ : ١
٣ - حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ١، ص ٢٤٢
٤ - سفر عزرا، ٢ : ٦٤ - ٦٧
٥ - سفر عزرا، ٢ : ١ - ٦٣ ؛ نحميا، ٧ : ٦٦
٦ - حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ١ ص ٢٤٣

أصاب النجاح في بلاد بابل، وقد أثرى حتى أصبحت لديه ممتلكات كثيرة، فآثر البقاء وعدم المجازفة بمغامرة مجهولة المصير[1] ». وممّا يرجّح حقيقة هذا الواقع « ورود أسماء عبرانيّة بصورة متكرّرة في الوثائق التجاريّة لذلك العهد، وكان بعض هذه الأسماء مركّباً من أسماء آلهة بابليّة، وكان أهمّ مراكز إقامتهم على خابور[2]. « وكان هؤلاء الذين بقوا وقاوموا الاندماج بالسكّان أوّل أفراد من عرفوا بالدياسبورا DIASPORA، أي اليهود المُقيمين خارج فلسطين. وكانت الديانة اليهوديّة عاملاً رئيسيّاً لتماسك اليهود في ديار هجرتهم[3] ». وهنا لا بدّ من الإشارة إلى أنّ تسمية « يهوديّ »، التي كانت تعني بالأصل أحد أفراد قبيلة أو مملكة « يهوذا » التي اشتقّت منها التسمية، أُطلقت فيما بعد على جميع الذين رجعوا من السبي، وأصبحت وصفاً لمعتنقي ديانتهم، وما لبثت الكلمة أن شملت أخيراً كلّ أفراد مُعتنقي هذه الديانة في العالم.

يشكّل سفرا عزرا ونحميا المرجع الأساسيّ لتاريخ اليهود في الأرض التي عادوا إليها بعد السبي. وفي السفرَين بعض المغالطات التاريخيّة التي تنمّ عن عدم الدقّة في نسبة القيادة اليهوديّة بعد العودة من السبي[4]، ولكن أكثر المدقّقين ثقة، اعتبر أنّ « زعيم اليهود العائدين كان زروبابل[5]، وهو من سلالة يهوياقين، وقد أرجع معه كنوز الهيكل التي نهبها نبوكدنآسر، واعترفت به الجماعة العائدة حاكماً عليها لبعض الوقت. وبعد صعوبات كثيرة انتهى بناء الهيكل ثانية في ٥١٥ ق.م. في عهد داريوس، وقد تمّ هذا المشروع على نفقة الدولة[6] ».

---

١ ـ الدكتور أحمد سوسة، العرب واليهود في التاريخ، العربي للطباعة والنشر (ط. ٧) (دمشق) ص ٦٧٥

٢ ـ راجع: سفر حزقيّال، ١ : ١، ٣؛ ٣ : ٢٣

٣ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ١ ص ٢٤٣ ـ ٢٤٤

٤ ـ راجع: الكتاب المقدس، العهد القديم، دار المشرق (بيروت ١٩٩١) ص ٨٣٤ ـ ٨٣٥

٥ ـ « زروبابل » مشتّق من الأكاديّة: « زرو ـ بابيلي » أي: « ذريّة بابل » ويسمّى أيضاً « شش بازار » أو « ششبصّر » كما في سفر عزرا، ١ : ٨ و١١؛ و ٥ : ١٤. وقد التبس على بعض دارسي التوراة أن الاسمين لرجل واحد كما في حاشية الكتاب المقدّس، (المشرق ١٩٩١) ص ٨٤١، الحاشية (٢) ويرِد « زروبابل » في متّى ١ : ١٢؛ أنظر نحميا ١٢ : ١ ـ ٩.

٦ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ١ ص ٢٤٤؛ راجع سفر عزرا، ١ : ٧ ـ ١١؛ ٦ : ٣ ـ ٧

أمّا «الصعوبات الكثيرة» التي اعترضت بناء الهيكل، أو أخّرته، فكانت معارضة أهل السّامرة «أعداء يهوذا وبنيامين» الذين كان قد جلاهم أسرحدّون حوالى سنة ٦٧١ وأسكنهم أرض يهوذا، بحسب الرسالة التي بعث بها هؤلاء إلى أرتحشستا[١]، باللغة الآراميّة، يلتمسون منه الأمر بوقف بناء الهيكل وترميم سور أورشليم. ويظهر من تلك الرسالة أنّ رافعيها كانوا يخشون استشراء القوّة اليهوديّة وما ستشكّله من خطر عليهم. وقد تجاوب أرتحشستا الفارسي مع التماس هؤلاء، وأمر بوقف بناء الهيكل والأسوار، حتى السنة الثانية من ملْك داريوس الاوّل[٢] (٥٢١ ـ ٤٨٦ ق.م.) رغم اعتراضات الشعوب المجاورة[٣]..

وكان أرتحشستا الأوّل (٤٦٥ ـ ٤٢٤ ق.م.) قد سار على خطى سلفه كورش، مؤسّس الدولة الفارسيّة، فسمح بعودة من يشاء من اليهود المسبيّين إلى الأرض التي سبوا إلى بابل منها، فعادت دفعتان منهم، الواحدة بقيادة الكاهن اليهوديّ عزرا، والثانية بقيادة الزعيم اليهوديّ نحميا، الذي كان في بداية العقد الثالث من عمره، وقد عمل حاملاً للكؤوس في البلاط الملكيّ الفارسيّ، وقد وصل إلى أورشليم في حوالى ٤٤٥ ق.م. وفي طليعة أهدافه إعادة بناء سور المدينة. وقد حكم نحميا هذا الشعب اليهوديّ بتعيينٍ من الملك الفارسيّ بين ٤٤٥ و ٤٣٣ ق.م. طبقاً لأمر التفويض الذي أعطاه أرتحشستا لعزرا، وقد جاء فيه: «كلّ من لا يعمل بشريعة إلهك وشريعة الملك، فليُحكم عليه حكماً شديداً إمّا بالموت أو بالنفي أو بغرامة مال أو بالحبس[٤]». وهكذا فإنّ الدولة اليهوديّة كانت في تلك الحقبة ذات نظام دينيّ. وكان عزرا هذا، وهو الكاهن والكاتب اليهوديّ الذي عاد من السبي مع الرعيل الأوّل العائد، قد قصد الملك الفارسي، وحصل منه على تفويض بإصلاح

١ ـ أرتحشستا الاوّل (٤٦٥ ـ ٤٢٤ ق.م.)
٢ ـ راجع: سفر عزرا، ٤: ٦ ـ ٢٤
٣ ـ راجع: سفر عزرا، الفصلين: ٥ و ٦
٤ ـ سفر عزرا، ٧: ٢٥ ـ ٢٦

ديانة الشعب، قبل أن يملك نحميا. وكان يهدف الى إيجاد عقيدة دينيّة موحّدة، ونقاوة عنصريّة، وقد بلغ من تطرّفه في هدفه الأخير أنّه كان يحتّم طلاق النساء غير اليهوديّات وإعلان أبنائهنّ غير شرعيّين[1]. أمّا نحميا، فقد اكتفى «بلعن هؤلاء الأزواج وجلدهم ونزع شعورهم وانتزاع اليمين منهم بعدم عمل ذلك ثانية[2]».

وما يستوجب التوقّف عنده بعد عودة العبرانيّين من السبي، هو أنهم لم يعودوا يستعملون اللغة العبريّة، بل حلّت محلّها اللغة الآراميّة التي سيتكلّم بها السيّد المسيح فيما بعد. واقتصر استعمال اللغة العبريّة منذ ذلك التاريخ على الشعائر الدينيّة[3].

يحيط بالحقبة الفاصلة بين نحميا (أواسط القرن الخامس قبل الميلاد) في العهد الفارسيّ، وبين نهاية الأمبراطوريّة الفارسيّة على يد الإسكندر بدءاً من سنة ٣٣٤ ق.م.، حجاب كثيف من الغموض حول التاريخ اليهوديّ. مردّ ذلك إلى غياب النصوص التوراتيّة حول هذه الحقبة، وإهمال التاريخ العام لليهود، الذين كان دينهم وشريعتهم وعاداتهم تجعل منهم مجموعة بشريّة منعزلة، وجسماً غريباً في العالم الشرقيّ. إلاّ أنّه من المُتَّفق عليه إجمالاً أنّ اليهود قد عاشوا حقبة استقرار وازدهار طيلة العهد الفارسيّ، وأنّهم كانوا من أنصار الفرس في حروبهم ضدّ فينيقية، خاصة إبّان ثورة صيدا ومدن فينيقية أخرى في حوالى ٣٥١ ق.م. ضدّ أرتحششتا. ويذهب بعض الباحثين إلى القول بأنّ «اليهود قد عاشوا عزّهم في زمن الفرس، فتصاهروا، وتهوّد الفرس، وأصبح الآخمينيّون منهم وعامّة الحكّام متهوّدين»، إلاّ أنّ هذا الاستنتاج غير مدعوم بالإثباتات العلميّة. وإن كان

---

١ - سفر عزرا، ١٠ : ٣ - ٥، ١٠ وما يليه
٢ - سفر نحميا، ١٣ : ٢٥
٣ - راجع: سفر عزرا، ٤ : ٧؛ سفر نحميا، ١٣ : ٢٤

بالإمكان الميل إلى اعتبار أنّ اليهود قد عرفوا حقبة استقرار ملحوظ بخلال الحكم الفارسيّ الذي أمّن لهم العودة من السبي في بداية عهده، لدرجة أعتبر معها اليهود منشئ الدولة الفارسيّة: كورش، مخلّصاً.

ترأّس الشعب اليهوديّ ودولته في هذه الحقبة الفارسيّة «عظماء الكهنة» من سلالة يشوع، الذي خلفه يواقيم ابنُه، وفيما بين ٥٢٠ و ٤٠٤ ق.م. تعاقب على الرئاسة، بعد يشوع ويواقيم، خمسة من عظماء الكهنة بالوراثة، فخلف يواقيم ابنُه ألياشيب، ثم يوياداع ابن هذا الأخير، وبعده يوناثان بن يوياداع، وأخيراً إبنه يدّوع، الذي ترأس أورشليم في نهاية عهد داريوس الثاني[١].

بعد الفتح اليونانيّ

في المكان المعروف اليوم بمدينة إسكندرون السوريّة، الواقعة على ما بات يُعرف بخليج إسكندرون، كان، سنة ٣٣٣ ق.م. الملك الفارسي داريوس الثالث (٣٣٦ ـ ٣٣٠ ق.م.) في عربته الفخمة التي تجرّها أربعة خيول جنباً إلى جنب، يراقب المعركة التاريخيّة التي كانت جارية بين جيوشه الجرّارة من جهة، واليونان، بقيادة الإسكندر بن فيليب المقدونيّ من جهة ثانية، في ذلك الممر الضيّق الذي كان يُعرف بـ «أيسوس». وعندما تأكّد لداريوس أنّ الكثرة العدديّة الفارسيّة لن تتمكّن من الصمود أمام المهارة العسكريّة اليونانيّة، سارع إلى الهرب، مع فلول جيشه، متّجهاً شرقاً، تاركاً معسكره وأهل بيته. وقد عوملت نساء الملك الفارسيّ معاملة لائقة من قبل المقدونيّين. وتخليداً لذكرى ذلك الانتصار، أسّسَ المقدونيّون مدينة الإسكندرونة التي لا تزال تحمل اسم الإسكندر، مكان الحادث.

قبل ذلك التاريخ، كان والد الإسكندر، فيليب المقدونيّ الثاني (٣٨٢ ـ ٣٣٦

١ ـ سفر نحميا، ١٢ : ١٠

ق.م.) قد نظّم جيش مقدونيا[١]، وأنشأ الكتيبة، وبدأ فتوحاته بإخضاع كلّ المدن اليونانيّة لسلطته، بعد أن حرّرها من سيطرة فارس. ومات فيليب وهو يستعدّ لمهاجمة الفرس في عقر دارهم إثر عمليّة اغتيال، فخلفه ابنُه الإسكندر وهو في سنّ العشرين. وفي ٣٣٤ ق.م. لم يكن أحد يصدّق أنّ المقدونيّين سيجرؤون على الدخول في معركة مع الفرس بسبب كثرة عدد هؤلاء الأخيرين. ولكن الإسكندر تجرّأ، فقاد جيشاً لا يزيد عدده على ثلاثين ألف رجل، وعبر به الهلسبونت، وتمدّد في آسية الصغرى، وهي جزء من الأمبراطوريّة الفارسيّة آنذاك. وفور خروجه من مضايق كيليكية وعبوره السهل، التقى بداريوس على رأس حوالى مئة ألف جنديّ... حيث جرت معركة أيسوس[٢].

بعد أيسوس، حطّم الإسكندر الفرس في سواحل فينيقية، بعد أن حاصر صور سبعة أشهر، ثمّ في مصر حيث أَسّس الإسكندريّة، (٣٣٢ ق.م.) وأخيراً تتبّع داريوس في العراق فانتصر عليه في كوكاميل بالقرب من أربيل (٣٣١ ق.م.) وتابع زحفه إلى أطراف فارس، وتجاوزها إلى ضفاف نهر السند، قبل أن يموت مريضاً بالحمّى في قصر نبوكدنآسر في حزيران ٣٢٣ ق.م. ولم يُتمّ الثالثة والثلاثين من عمره، تاركاً وراءه ذلك السجلّ الفريد من «الإقدام والجلَد والحيويّة المتدفّقة والخيال الخصب».

بعد موت الإسكندر، الذي لُقّب بذي القرنين، تجزّأت الأمبراطوريّة التي فتحها بين قوّاده إثر حروب طويلة دامية، إلى أن سيطر أربعة منهم على أربعة أجزاء من تلك الامبراطوريّة المترامية الأطراف، هم: بطليموس في مصر، وسلوقس في بابل، وأَنتيغونس في آسية الصغرى، وأنتيباتر في مقدونية. وهكذا «انكسر

١ـ مقدونيا أو مكدونيا Macedoine: بلاد في شبه جزيرة البلقان، نشأت فيها دولة مقدونيّة في القرن السادس ق.م. وكانت مختلفة عن المدن اليونانيّة في حضارتها ونظمها.

٢ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ١ ص ٢٥٣ ـ ٢٥٤؛ W.W. Tarn, "ALEXANDER", Cambridge Ancient History, (Cambridge, 1927) vol. VI,PP. 366 - 9.

القرن العظيم، وطلع عوضاً عنه أربعة قرون عظيمة تتّجه نحو رياح السماء الأربع[1] ».

في ٣١٢ ق.م. تمكّن بطليموس من ضمّ المدن الفلسطينيّة وجوارها إلى مملكته بعد أن تغلّب على أنتيغونس في غزّة بمساعدة سلوقس، الذي عاد وحصل على كامل القسم الشرقيّ من آسية الصغرى بالإضافة إلى سورية من الفرات حتّى المتوسّط. «وأصبحت إنطاكية التي بناها على العاصي وسمّاها باسم والده، مقرّا لقيادته وحكومته».

بخلال الصراع الذي نشأ بين وَرَثَة الإسكندر، أصبح وضع اليهود الذين رجعوا من السبي، وتجمّعوا في منطقة أورشليم، على الأكثر، يترجّح بين المدّ والجزر، فتارةً يقعون تحت حكم البطالسة في مصر، وطوراً تحت حكم السلوقيّين في سورية، وكانوا يستفيدون في بعض الاحيان من الخلاف المستحكم والنزاع القائم بين هذين الفريقين، لنيل بعض الحكم الذاتيّ بقيادة الكهنة. ولكنهم سيلاقون أسوأ الحالات في عهد الملك السلوقيّ أنطيوخس الرابع (أبيفان) (١٧٥ ـ ١٦٤ ق.م.) الذي كان مبشّراً بالهلينيّة، وقد بلغ به الأمر أن أعلن نفسه إلهاً: «الإله الظاهر: تيوس أبيفانس» وقَرَنَ نفسه بزفس أوليمپوس[2]. وبينما كان بوسع غير اليهود أن يتكيّفوا مع هذا التحوّل في العبادة بسهولة، فإنّ الأمر لم يكن سهلاً بالنسبة لليهود الذين يعبدون الإله الواحد.

في الوقت نفسه، نشب صراع بين الكهنة اليهود على السلطة. فقد كان عظيم الكهنة في عهد سلوقس الرابع (فيلوباشر ١٨٧ ـ ١٧٥ ق.م.): أونيّا الثالث، ابن سمعان الثاني، من سلالة عظماء الكهنة الذين عاشوا في أيّام الفرس، وهي السلالة المتحدّرة من يشوع. وحتّى ذلك التاريخ، كان القادة اليونان يكرّمون

---

١ ـ سفر دانيال، ٨ :٨

٢ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ١ ص ٢٦٧

هيكل أورشليم بهداياهم، وهذا ما فعله بطليموس الثاني: فيلادلفس (ملك مصر ٢٨٢ ـ ٢٤٦ ق.م.) وبطليموس الثالث: أفرجانس[١] (ملك مصر ٢٤٦ ـ ٢٢١ ق.م.) وأنطيوخوس الثالث الكبير (ملك سورية ٢٤٢ ـ ١٨٧ ق.م.) وكذلك فعل السلوقيّون فيما بعد، إذ كان سلوقس الرابع «يؤدّي من دخله الخاصّ جميع النفقات المخصّصة لخدمة الذبائح[٢]».

بدأ الصراع بين الوكيل الذي كان يُدير شؤون الهيكل الماليّة، واسمه سمعان، من سبط بلجة (أو بنيامين)[٣] وبين عظيم الكهنة أونيّا. وكان بنتيجته أنّ سمعان هذا، قصد القائد السلوقيّ وأخبره أنّ الخزانة التي في أورشليم مشحونة بما لا يُستطاع وصفه من الأموال... ، وعندما لم ينجح سمعان بدسيسته «بفعل تدخّل الربّ» راح يُصرّ على اختلاق الاتّهامات ضدّ أونيّا عند القادة السلوقيّين، دون جدوى، إلى أن جاء عهد أنطيوخس الرابع: أبيفانس (١٧٥ ـ ١٦٤ ق.م.) فتمكّن أحد إخوة أونيّا: يشوع، من الحلول مكان أخيه أونيّا، بعد أن عبّر يشوع عن ميله الى الحضارة الهلينستيّة باتخاذ اسم ياسون لنفسه، وأن تعهّد لأنطيوخس بمداخيل كبيرة من أورشليم.

أنطيوخس يُنزل الويل بأورشليم

ما أن أمر أنطيوخس بترئيس ياسون مكان أخيه أونيّا، حتّى شجّع ياسون التحوّل نحو العادات اليونانيّة، فشاع اللباس اليونانيّ بين الشبّان، وبدأ الجمنازيوم اليونانيّ بالظهور في أرض اليهود، واعتمد أنطيوخس على هذا التعاون، فشجّع

١ ـ سفر المكابيّين الثاني، ٣ : ٢؛ سفر المكابيّين الاوّل، ١٠ : ٣٩ وما بعدها.
٢ ـ سفر المكابيّين الثاني ٣ : ٣
٣ ـ راجع: سفر المكابيّين الثاني، ٣ : ٤؛ سفر نحميا، ١٢ : ٥، ١٨

اعتبار يهوه مساوياً لزفس، وأقام مذبحاً في المعبد الأورشليميّ للإله اليونانيّ، فكان أن «تدنّس المقدس القلعة... وأُقيمت فيه شناعة الخراب[1]». ومن مراجعة النصوص التوراتيّة، يمكن التأكيد على أن أورشليم قد أصبحت في ظلّ رئاسة ياسون، مدينة يونانيّة[2]. وأصبحت تدفع الجزية السنويّة لأنطيوخوس.

ومثلما زايد ياسون على أخيه أونيّا للحصول على الرئاسة، زايد عليه متهلسن آخر، هو منلاوس، أخو سمعان، وكيل الشؤون الماليّة للهيكل، فوعد أنطيوخس بمزيد من الأموال إذا ما أقرّه مكانَ ياسون[3]. ولم يتوانَ أنطيوخس عن إصدار أوامره بإحلال الدافع الأفضل مكان سابقه. وإذ أضحى «هذا الطاغية العنيف» صاحب «أحقاد الوحش الضاري» الذي «لم يكن على شيء ممّا يليق بالكهنوت الأعظم[4]» حاكماً بأمر أنطيوخس، هرب ياسون إلى أرض العمونيّين.

وفي خضمّ هذا الصراع على السلطة، قُتل أونيّا[5] على يد متآمرين تمكّنوا منه وهو لاجئ إلى دفنة بالقرب من إنطاكية، ممّا أنزل السخط في قلوب اليهود غير المتهلنسين. وإذ كان منلاوس قد عجز عن أن يدفع إلى أنطيوخس الأموال التي تعهّد له بها، سلّم الرئاسة لأخيه ليسيماكس الذي راح يسلب أموال الأقداس من الهيكل، ويتصرّف بها، تارةً لدفع الجزية، وطوراً لأمور شخصيّة وسلطويّة أخرى.

وسط هذا التردّي، لاحت بوادر الثورة بين اليهود، عندما هاجموا سالب أموال الهيكل بالعصيّ والحجارة وقتلوه عند الخزانة، بعد أن قضوا على عدد من جنوده، فصدر حكم أنطيوخس على الثوّار بالإعدام، وأمر بإعادة منلاوس إلى

---

١ - سفر دانيال، ١١ : ٣١
٢ - سفر المكابيّين الثاني، ٤ : ٧ - ١٧
٣ - راجع: سفر المكابيّين الثاني، ٤ : ٢٣؛ سفر المكابيّين الاوّل، ١١ : ٢٨
٤ - سفر المكابيّين الثاني، ٤ : ٢٥
٥ - راجع: سفر المكابيّين الثاني، ٤ : ٣٠ - ٣٨؛ آونيّا، هو الرئيس المشيح الوارد ذكره في سفر دانيال ٩ : ٢٥ وما بعدها، ورئيس العهد الوارد ذكره في سفر دانيال ١١ : ٢٢؛ يحدّد بعض الباحثين تاريخ اغتيال آونيّا بصيف ١٧٠ ق.م.

الرئاسة. غير أنّ ياسون، هو الذي ظهر فجاءة عائداً من منفاه الاختياريّ في أرض العمونيّين، وجمع حوله ما يُقارب الألف مقاتل، وهاجم المدينة على رأسهم بينما كان أنطيوخس يستعدّ للهجوم على مصر.

حاول ياسون، سليل يشوع، استرداد أورشليم عنوة من يد مُغتصب مركز عظيم الكهنة، سليل السّبط الآخر: منلاوس. وراح ياسون يذبح أنصار منلاوس بلا رحمة، ولكنّه عجز عن الظفر، ممّا اضطره إلى الهرب ثانية إلى أرض العمونيّين. وبعد أن لاحقه بعض اليهود في منفاه، هرب إلى مصر حيث لاقى حتفه في نهاية المطاف.

ولّما بلغت أنباء تلك الأحداث الملك السلوقيّ، سارع في العودة من مصر، ظنّاً منه أنّ اليهوديّة قد ثارت عليه. وسرعان ما «أخذ المدينة (أورشليم) عنوة. وأمر الجنود أن يقتلوا بغير رحمة كلّ من صادفوه، ويذبحوا الذين يصعدون إلى بيوتهم. فكانت مجزرة الشبّان والشيوخ، وإبادة النساء والأولاد، وذبح الفتيان والأطفال. فهلك ثمانون ألف نفس في ثلاثة أيّام، منهم أربعون ألفاً سقطوا في المعركة، وبيع منهم عدد ليس بأقّل من القتلى... وأُخذت الآنية المقدسة وكنوز الهيكل. وبعد أن عاد الملك السلوقي إلى إنطاكية، أرسل قائد المرتزقة إلى أورشليم في اثنين وعشرين ألف جنديّ، وأمره أن يذبح كلّ بالغ منهم، ويبيع النساء والأولاد. وبعد أن نفّذ المبعوث هذه المهمّة، أرسل أنطيوخس من يحاول إجبار اليهود على التخلّي عن دينهم، مع أوامره بجعل هيكل أورشليم على اسم زوس الأولمپي، وهيكل جرزيم على اسم زوس المضياف. فتحوّل هيكل الربّ إلى هيكل للعهر والقصوف، وإلى ممارسة البغاء المقدّس كما في المعابد اليونانيّة. ومُنع السبت، وأعياد اليهود كافّة، حتّى أن الناس مُنعوا من الانتساب إلى اليهوديّة، وأُجبروا على المشاركة بالأعياد اليونانيّة، وكان كلّ من يرفض الانصياع لهذه الأوامر، يواجه الذبح. وأمر أَنطيوخس بذبح كلّ طفل يُختن. وكلّ من يُقبض عليه

يحتفل بالسبت سرّاً، كان يتعرّض للإحراق بالنار حيّاً [1]. وعندما حاول السّفّاحون إجبار أحد متقدّمي الكتبة: ألعازر، على فتح فمه ليأكل لحم الخنزير قسراً، اختار هذا الشيخ المسنّ «أن يموت مجيداً على أن يحيا حياة نجسة، فمشى طوعاً إلى عذاب الدّولبة بعد أن قذف لحم الخنزير من فمه» وهكذا فارق ألعازر الحياة «تاركاً موته قدوة وبطولة وتذكار فضيلة، لا للشبّان فقط، بل للأمّة بأسرها [2]».

ثورة المكابيين

أثار الاضطهاد ضد اليهود انتفاضة الضمير الدينيّ عند بعضهم، فاتَّخذت المعارضة للحضارة اليونانيّة صيغة التهيّؤ في بداية أمرها، لتنتقل فيما بعد إلى المقاومة السلبيّة، فإلى الحرب المقدّسة، في ما يُعرف بالثورة المكابيّة.

يعود نسب المكابيّين إلى «يهوذا الذي يُقال له المكابيّ» ابن متتيّا بن يوحنّا بن سمعان. ومتتيّا كان كاهناً من بني يوياريب، رئيس أولى الفرق الكهنوتيّة الأربع والعشرين. خرج من أورشليم بخلال الاضطهاد وأقام في مودين هو وأبناؤه الخمسة، بعد أن رفض الانصياع لترغيب السلوقيّين وتهديدهم. وقد تبعهم عدد من اليهود «الذين يبتغون العدل والحقّ ليُقيموا هناك هم وبنوهم ونساؤهم ومواشيهم». غير أنّ السلوقيّين تتبّعوا هؤلاء، وأهلكوهم في يوم السبت قبل أن يصلوا إلى متتيّا وأبنائه. وعندما أُخبر متتيّا وأصحابه بالأمر، ناحوا عليهم نواحاً شديداً، وقال بعضهم لبعض: «إن فَعلنا كلّنا كما فعل إخوتنا فلَمْ نقاتل الأمم عن نفوسنا وأحكامنا، لم يلبثوا أن يبيدونا عن الأرض. واتّخذوا في ذلك اليوم هذا القرار: كلّ رجل أتانا مقاتلاً يوم السبت نقاتله فلا نموت جميعاً كما مات إخوتنا في المختبآت». ذلك أنّ الذين قُتلوا، لم يقاوموا، لأنّ اليوم كان سبتاً [3].

---

١ - سفر المكابيّين الثاني، الفصلان ٥ و ٦، ١٣ : ٢٥ ؛ سفر المكابيّين الاول، ٥ : ١٥، ١٢ : ٤٨

٢ - سفر المكابيّين الثاني، ٦ : ١٨ - ٣١، ويروي هذا السفر (٧ : ١ - ٤١) أخبار استشهاد الاخوة السبعة في ظروف مماثلة.

٣ - سفر المكابيّين الاول، ٢ : ١ - ٤١

إلتحق بمتتيّا وأبنائه الذين اتخذوا هذا القرار الثوريّ، جماعة الحسيديّين، وهم أهل الورع من جماعة اليهود المتمسّكين بالشريعة، كانوا قد قاوموا النفوذ الوثنيّ قبل المكابيّين، وهم الذين سيصبحون وحدة المغاوير في الجيش المكابيّ، لما هم عليه من البأس. كذلك اجتمع الى هؤلاء كلّ من تطوّع في سبيل الشريعة، إلى أن تألّف من كلّ هؤلاء جيشٌ راح يشنّ أفراده الهجمات ليلاً على المذابح الوثنيّة، ويختنون بالقوّة كل من وجدوه في بلاد إسرائيل من الأولاد دون ختان. وعندما أشرف متتيّا على الموت، أوصى بنيه بأن «يغاروا على الشريعة ويبذلوا نفوسهم في سبيل عهد آبائهم... فلقد اشتدّ التعجرف والشتيمة وأتى زمان الانقلاب وانفجار الغضب[1] ». وفرّق متتيّا المهام على أبنائه بقوله: «هوذا سمعان أخوكم... إسمعوا له كلّ الأيّام وليكن لكم أباً. أمّا يهوذا المكابيّ الشديد البأس منذ صباه، فهو يكون لكم رئيس الجيش ويتولّى محاربة الشعوب. واجمعوا إليكم جميع العاملين بالشّريعة وانتقموا لشعبكم انتقاماً. كافئوا الأمم مكافأة وواظبوا على وصايا الشريعة[2] ». ومات متتيّا في حوالى سنة ١٦٦ ق.م. ليقوم مكانه ابنه يهوذا الملقّب بالمكابيّ.

راح يهوذا المكابيّ ورجاله يتسلّلون إلى القرى ويدْعون إليهم أبناء جنسهم حتّى جمعوا نحو ستّة آلاف مقاتل. ثمّ راحوا يقومون بحرب عصابات ليليّة يشنّون بخلالها الهجمات على المدن والقرى محتلّين مواقع استراتيجيّة، آخذين بالاقتراب من أورشليم، ممّا حدا السلاجقة على أن يشدّدوا محاولة إفنائهم لليهود، فأخذوا يسعون إلى بيعهم في المدن الفينيقيّة بسرعة. في هذا الوقت، هرب عدد كبير من أورشليم إلى مدن غير يهوديّة، بينما راح المقاومون يلتحقون بالمكابيّ.

شنّ السلوقيّون هجومهم ضدّ المكابيّ بقيادة نكانور على رأس عشرين ألف

---

١ ـ سفر المكابيّين الاوّل، ٢ : ٤٢ ـ ٥٠
٢ ـ سفر المكابيّين الاوّل، ٢ : ٦٥ ـ ٦٨

مقاتل، فسجّل الثائر اليهوديّ أوّل انتصار ساحق له في حرب مواجهة صريحة ضدّ المملكة السلوقيّة، بإبادة نصف جيش نكانور عند مشارف أورشليم، وفرّ القائد السلوقيّ ومَن سَلِمَ من رجاله تاركين وراءهم الغنائم للثائرين. وكان ذلك اليوم عشيّة السبت[1].

كانت تلك المعركة بمثابة النصر الحاسم للمكابيّين الذين ما لبثوا أن سيطروا على أورشليم واستردّوا هيكلها، وهدموا المذابح التي كان الأجانب قد بنوها في الساحة، وخرّبوا أماكن العبادة الوثنيّة، وأعادوا العبادة اليهوديّة إلى أصولها. وكان ذلك اليوم، الخامس والعشرين من شهر كسلو[2] «فعيّدوا ثمانية أيّام بفرح... وفرضوا فريضة عامّة ومثبّتة بالاقتراع أن تعيّد جميع أمّة اليهود هذه الأيّام في كلّ سنة[3]». في هذه الأثناء، كان أنطيوخوس الرابع قد مات إثر حادث تعرّض له بخلال عودته خائباً من حملة قام بها ضدّ فارس.

هذه الحركة المكابيّة التي كانت ذات طابع دينيّ في بدايتها، تطوّرت إلى ثورة قوميّة تهدف إلى تحرير البلاد. ولم يكن النزاع ضدّ القوّات السلوقيّة فقط «بل كان نزاعاً بين المتعصّبين والقوميّين اليهود الذين لم يتردّدوا في إخلاصهم للنزعة العبرانيّة من جهة، وأنصار الثقافة الجديدة الذين يؤلّفون الحزب الهلنستيّ أو حزب الإصلاح من جهة أخرى. وكان النصر في النزاعين حليف المكابيّين[4]».

الجمهورية اليهودية الأولى

بعد أورشليم، وسّع المكابيّون نطاق أهدافهم التحرّريّة، فحاولوا استعادة استقلال المدن اليهوديّة، وقد حصل ذلك بقيادة يهوذا المكابيّ الذي قاد اليهود

١- سفر المكابيّين الثاني، ٨ : ١ ـ ٢٩؛ سفر المكابيّين الاول، ٣ : ٢٧ ـ ٥٩؛ ٤ : ١ ـ ٣٥

٢ ـ ١٥ كانون الأوّل (ديسمبر) ١٦٤ ق.م.

٣ ـ سفر المكابيّين الثاني، ١٠ : ٥ ـ ٨

٤ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ١ ص ٢٦٨

الأحرار بعد موت أبيه متتيّا مدّة ست سنوات (١٦٦ ـ ١٦٠ ق.م.) وكان أخو المكابيّ: سمعان، من أهمّ القادة المحرّرين إلى جانب يهوذا. وسمعان هذا، هو الذي أوصى متتيّا به ليكون أباً لأتباعه «لأنّه رجل مشورة[١]». ولكن عندما سقط يهوذا المكابيّ في معركة حربيّة في جبل حاصورا[٢] في ربيع ١٦٠ ق.م.، لم يختر اليهود سمعان خلفاً ليهوذا، بل اختار أخاه يوناثان.

إستعاد اليونان السيطرة على أورشليم وأكثر أرض يهوذا بعد الهجوم الكبير الذي شنّوه على المكابيّين وتمكّنوا بخلاله من زعيمهم. فكان على يوناثان وإخوته أن يديروا حرب عصابات من جديد، حتّى إنّهم اضطروا إلى اللجوء لعبور الأردن إلى ضفّته المقابلة. وتذكر المدوّنات التوراتيّة قيام يوناثان بقتل عدد كبير من اليهود الذين كانوا يناصرون اليونان[٣].

إستمرّت الثورة المكابيّة حامية ضدّ السّلوقيّين حتى اعتلى العرش السلوقيّ الإسكندر بالاس (١٥٠ ـ ١٤٥ ق.م.) الذي كان يدّعي بأنّه ابن أنطيوخوس أبيفانوس. في هذه الأثناء، كان يوناثان يتلقّى الدّعم من البطالسة في الجنوب. إلاّ أنّ بالاس، اعتمد سياسة مختلفة عن سياسة جدّه وأسلافه تجاه اليهود، فسارع إلى مراسلة يوناثان بقوله: «لقد بلغنا عنك أنّك محاربٌ باسلٌ وجدير بأن تكون لنا صديقاً، فنحن نقيمك اليوم عظيم كهنة في أمّتك ونسمّيك صديق الملك لكي تتبنّى قضيّتنا وتحفظ لنا صداقتك» وأرفق بالاس كتاب التعيين بتاج مُلك من ذهب[٤]. كان هذا في تشرين الأوّل (أوكتوبر) ١٥٢ ق.م.

بذلك انتقلت سلالة عظماء الكهنة من أسرة بني أونيّا التي جرت العادة على

---

١ ـ سفر المكابيّين الأوّل، ٢ : ٦٥
٢ ـ راجع: سفر المكابيّين الأوّل، ٩ : ٣، ١٨
٣ ـ راجع سفر المكابيّين الأوّل، ٩ : ٦١
٤ ـ سفر المكابيّين الأوّل، ١٠ : ٢٠

أن يخرج منها هؤلاء، الى يوناثان وسلالته التي سيعُرف اسمها بالحشمونيّين، الذين ستتغلّب عندهم المشاغل السياسيّة على المشاغل الدينيّة. أمّا الأونيّون، فلجأ كبيرهم (أونيّا الثالث) إلى مصر[١]، ولجأ كاهن آخر منهم إلى قران، وهو المعروف بمعلّم البرّ.

لم يحصر يوناثان علاقاته الخارجيّة بالسّلوقيّين، بل عمد إلى إيفاد البعثات إلى رومة وإسبرطة «ليقرّوا المصادقة بينهم ويجدّدوها[٢]». وكان الإسبرطيّون قد ادّعوا «بأنّهم واليهود إخوة من نسل إبراهيم[٣]». ولا شكّ في أنّ هذه الأسطورة توافق خيال الدبلوماسيّة في ذلك الزمان.

قضى يوناثان سنوات حكمه السبع عشرة (١٦٠ ـ ١٤٣ ق.م.) في حروب مع مختلف القوى. فهو كان أحياناً يحارب الملوك السلوقيّين، وأحياناً أخرى يحارب من أجلهم ضدّ الثائرين عليهم. وكان يحارب البطالسة والسلوقيّين بحسب الظرف ومصلحة اليهود، إلى أن أسره السلوقيّون إثر خديعة. فسارع اليهود إلى انتخاب أخيه سمعان «قائداً لهم مكان يهوذا ويوناثان» وأعلنوا له الطّاعة. وقد سارع سمعان إلى تحصين جمهوريّته، وعمد إلى اتّباع سياسة متشدّدة أكثر من أخيه، إذ راح يطرد غير اليهود من أرض اليهود[٤]. إلاّ أنّه لم يتمكّن من تخليص أخيه يوناثان من الأسر، فأعدمه السلوقيّون بعد فترة وجيزة.

لم يَدُم طويلاً تأثير إقدام السلوقيّين على إعدام يوناثان، في العلاقة بين اليهود وخلفاء أنطيوخس، فإنّ الملك السلوقيّ ديميتريوس الثاني نيكاتور (١٤٦ ـ ١٢٥ ق.م.) مَنح اليهود الاستقلال تحت حكم سمعان، فأعفاهم من دفع الجزية، وراح سمعان يسكّ النقود. ومنذ السنة الأولى لحكم سمعان، بدأت أورشليم عصراً

---

١ ـ راجع: سفر المكابيّين الثاني، ١ : ١٠

٢ ـ سفر المكابيّين الأوّل، ١٢ : ١ وما بعدها.

٣ ـ سفر المكابيّين الأوّل، ١٢ : ٢٠ ـ ٢١

٤ ـ سفر المكابيّين الأوّل، ٤ : ٢٩؛ ٥ : ٦٥؛ Josephus. Bk. XIII ch. 9, Par. 1

جديداً، بدأ معها التأريخ عندهم «بالسنة الأولى لسمعان عظيم الكهنة، قائد اليهود ورئيسهم[1]».

هذه الجمهوريّة اليهوديّة الجديدة، ستدوم حتّى مجيء الرومان بعد حوالى ثمانين سنة بقيادة پمبيوس. فقد خلف سمعان ابنُه يوحنّا، بعد أن قُتل الأوّل غدراً على يد أحد القادة السلوقيّين. وقد اتّخذ يوحنّا، ومَن خلفه من ملوك السلالة المتأخّرين، أسماء يونانيّة إلى جانب الاسم العبريّ، فكان الاسم اليونانيّ ليوحنّا الأوّل (١٣٥ - ١٠٥ ق.م.) ابن سمعان: هيركانوس، وكان اسمه الكامل: يوحنا هيركانوس الأوّل. وقد نقش على نقوده «يوحنّا الكاهن الأعظم». ومن أهمّ أعماله أنّه هاجم السامريّين، الذين استسلموا لحكم أنطيوخوس، وهدم مدينتهم مع معبدها انتقاماً[2]. كما أجبر الأدوميّين الذين كانوا قد توغّلوا في جنوبي اليهوديّة على التهوّد والاختتان في حوالى سنة ١٢٦ ق.م[3].

خلف يوحنّا ابنُه أريسطوپولس (١٠٥ - ١٠٣ ق.م.). الذي حوّل الجمهوريّة اليهوديّة، التي اتّخذت في عهد المكابيّين الأوائل شكل الدولة الدينيّة، إلى نوع آخر، إذ اتخذ أريسطوپولس لنفسه لقب ملك، ووضع التاج على رأسه[4]، إضافة إلى اتّخاذه الاسم اليونانيّ الذي سوف يتّخذ مثلَه سائر ملوك السلالة المتأخّرين إلى جانب الأسماء العبرانيّة.

إتّبع أرسطوپولس سياسة أبيه هيركانوس في معاملته للمدن والشعوب التي يقهرها، وهو التخيير بين اليهوديّة أو الإبادة. فإنّ منطقة الجليل كانت موطناً لشعوب غير يهوديّة منذ زمن طويل، وقد خُيّر سكان الجليل بين الطرد أو التهوّد

---

١ - سفر المكابيّين الأوّل، ١٣: ٨ - ٩

٢ - سفر المكابيّين الأوّل، ١٣: ٤٢؛ Josephus Flavius, the Antiquittys of the jews, Bk. XIII ch, 6. Par. 7

٣ - Josephus. Bk. XIII, ch. 4. Par. 2-3

٤ - Josephus. Bk. XIII, ch. 11. Par.2-3

والختان، ففضّلت الأكثريّة الخيار الثاني. «لذلك كان كثيرون من السكّان الذين عمل بينهم المسيح واتّخذ منهم أكثر تلاميذه من أصل غير يهوديّ، ويتكلّمون اللغة العبريّة برطانة، وكان يُنظر إليهم بأنّهم أدنى من اليهود القدماء وغير أهل لظهور نبيّ فيهم[1] ».

بعد أريسطوپولس الذي حكم أقلّ من سنتين، تبوّأ العرش اليهوديّ إسكندر جناديوس الذي حكم حوالى ٢٧ سنة (١٠٣ ـ ٧٦ ق.م.) وقد وصلت رقعة البلاد إلى ذروتها في أيّامه. وأصبحت الكلمات اليونانيّة مُستعملة إلى جانب الكلمات العبريّة على النقود.

كان آخر ملوك اليهود من سلالة متتيّا وابنه يهوذا المكابيّ ـ التي عُرفت بالحشّمونيّة، إضافة إلى المكابيّة ـ أُريسطوبولس الثاني (٦٧ ـ ٦٣ ق.م.) الذي سوف يحتلّ الفاتح الرومانيّ پمبيوس بلاده، فيُسجن في رومة، ويموت مسموماً سنة ٤٩ ق.م.

الهيروديّون في العهد الرومانيّ

سنة ٦٤ ق.م. إحتلّ القائد الرومانيّ پمبيوس المنطقة وضمّها إلى رومة، وفي السنة التالية دخل أورشليم، واعتقل ملكها أريسطوپولس الثاني وأرسله مقيّداً إلى رومة، وجعل مملكته تابعة لحاكم سورية الرومانيّ. وكان هذا الحاكم يتمتّع بسلطات تجنيد الجيوش والاشتراك في الحرب، وكان حكمه مرتبطاً مباشرة برومة. وقد عهد بهذا المنصب إلى بعض الموظّفين الرومان البارزين جدّاً، وكان أوّلهم أولوس

١ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ١ ص ٢٦٩ ـ ٢٧٠؛ راجع: إنجيل مرقس، ١٤ : ٧٠؛ لوقا ٢٢ : ٥٩؛ أعمال الرسل، ٢ : ٧؛ يوحنّا ١ : ٤٦؛ ٧ : ٤١ و ٥٢ ; سفر إشعيّا، ٩ : ١؛ سفر المكابيّين الاوّل، ٥ : ١٥؛ إنجيل متّى، ٤ : ١٥؛ . راجع: Josephus, Bk. XIII,ch. 11, Par. 3, ch. 15, Par. 4

غابينيوس (٥٧ ـ ٥٥ ق.م.) مبعوث پمبيوس الكفؤ الذي أمعن في إنقاص سلطة المملكة اليهوديّة بتجريد الكاهن الأعظم هيركانوس الثاني، حفيد أريسطوپولس، من رتبته الملكيّة، وبفرض ضرائب ثقيلة على السكان، وبتقسيم الدولة إلى خمسة أقاليم صغيرة يحكم كلاّ منها مجلس (أو سنهدرين Sanhedrin).

وبخلال الحرب الأهليّة الرومانيّة والحالة المضطربة في الدولة كلّها، أصبح اليهود بين مدّ وجزر في ظروفٍ غير مستقرّة ناجمة عن ذلك الصراع، إلاّ أنّهم بقوا يتمتّعون بحريّة ممارسة شعائرهم الدينيّة وبنوع من الحكم الكهانويّ الذاتيّ، إلى أن جاء تقسيم العالم الرومانيّ من قبل «الحكومة الثلاثيّة» الثانية، وأُعطي ماركوس أنطونيوس الشرق بما فيه سورية ومصر في سنة ٤٠ ق.م.

أهمل أنطونيوس الأسرة المكابيّة ووضع مكانها الأسرة الهيروديّة، وكان مؤسّس هذه الأسرة سياسيّاً أدوميّاً ماهراً من أحفاد عيسى بن إسحق، كان يهوديّاً بالاسم، «وقد مُنح الرعويّة الرومانيّة، وعيّنه يوليوس قيصر وكيلاً ماليّاً عندما زار سورية[١]». وكان آخر الملوك المكابيّين، أنتيغونس Antigonos (٤٠ ـ ٣٧ ق.م.) الذي قُتل بأمر من أنطونيوس. أمّا ندّه هيرودوس، الذي عُرف بالكبير، فقد ملك اليهوديّة ستّاً وثلاثين سنة (٤٠ ـ ٤ ق.م.) وفي عهده أُعيد بناء الهيكل في أورشليم. ولكنّ اليهود كانوا يمقتونه لقساوته الوحشيّة ولاندفاعه في نشر الثقافة الهلنستيّة، ولإنشائه معابد الأصنام في اليهوديّة، ولتشجيعه المصالح الرومانيّة على حساب المصالح القوميّة، ممّا جعل من اليهوديّة شبه مملكة هلنستيّة. فقد بدّل هيرودس وجه البلاد تماماً من خلال مشروعه بإنشاء الأبنية العامّة، وبنى في أورشليم ميداناً لسباق الخيل، ومسرحاً ومدرّجاً، وأقام ألعاباً عامّة... وكلّ هذا ما كان ليتّفق مع اليهوديّة. وكانت السّامرة مقرّ هيرودس المحبّب، فزيّنها بالأبنية

---

١ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ١ ص ٣١١ إستناداً إلى: Josephus, Bk. XIV, ch. 8, Par. 3,5

وأعاد تسميتها باسم سباسطية التي هي الترجمة اليونانية لكلمة أوغسطس اللاتينيّة، وذلك تكريماً لأوغسطس قيصر. وأعاد بناء برج ستراتون على الساحل، وسمّاه قيصريّة، إمعاناً في إكرام سيّده. وقد تزوّج هيرودس عشر نساء، وذبح بعضهنّ مع بعض أفراد أسرته، فلا عجب إذّاك من أن يقتل الكثيرين من أطفال بيت لحم عندما اشتبه بمولد يسوع. كما أنّه سحق بقسوة المعارضة لحكمه المطلق بظلّ الدعم الرومانيّ، إلى أن توفّي في العام ٤ق.م.، واهباً مملكته في وصيّته إلى إبنه أرخيلاوس الذي تنافس مع أخيه هيرودس أنتيپاس على العرش[١].

بنتيجة التنافس بين الأخوين، سيطر أنتيپاس (٤ ق.م. - ٣٩م.) على منطقة الجليل، ولم يُعرف بملك يهوذا، إنّما برئيس ربع الجليل[٢]. وهو الذي حاكم السيّد المسيح، وأمر بقطع رأس يوحنّا. وكان هيرودس أنتيپاس كأبيه وغيره من أفراد سلالته، ذا وجهين: فهو يهوديّ في وطنه، وهلّنستيّ خارجه.

ثم عُيّن هيرودس آغريپا (٤١ - ٤٤م.) حفيد هيرودس الكبير ملكاً على اليهوديّة في عهد الأمبراطور كاليغولا (٣٧ - ٤١ م.) وجزء من عهد الأمبراطور كلوديوس (٤١ - ٥٤ م.) فساد الهدوء في البلاد نسبيّاً، لتعود الإضطرابات بعد وفاة آغريپا. ويدلّ على هذه الفوضى توالي سبعة حكّام رومانيّين سيّئي السيرة على الحكم بين ٤٤ و ٦٦ م. ممّا وضع اليهوديّة على فوهة بركان الثورة.

نهـــــاية الكيـــــان

وقع الانفجار باليهوديّة في ربيع سنة ٦٦ م. عندما شبّت ثورة عارمة ضدّ الحكم الرومانيّ بعد اصطدامات متفرّقة سبقت ذلك التاريخ. وكان روّاد تلك الثورة من الفرّيسيّين الذي كانوا يمثّلون عامّة الشعب، متمسّكين بتقاليد ديانتهم، هادفين

---

١ - راجع: حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ١ ص ٣١٢؛ سوسة، العرب واليهود في التاريخ، ص ٦٧٧؛ Josephus, Bk XVII, ch. 8, Par. 1

٢ - راجع إنجيل لوقا، ٣: ١

إلى التحرّر؛ في قبالة الصدّوقيّين الذين كانوا يُمثّلون الطبقة الأرستقراطيّة، ويحتكرون الوظائف، بمساندة رومة، لكونهم من الجماعة التي قد أصبحت مصطبغة بالصبغة الهلّينيّة. وكان في هذه الأثناء الملك الاسميّ اليهوديّ على اليهوديّة، آغريپا الثاني (٥٠ ـ ٩٣ م.) الذي كان إلى جانب الرومان، كما الرومان إلى جانبه. أمّا الأمبراطور الرومانيّ، فكان: نيرون (٥٤ ـ ٦٨م.)

أناط نيرون بقائده ڤسباسيان أمْر قمع الثورة اليهوديّة، وبخلال سنة (٦٧ ـ ٦٨م.) تمكّن هذا الأخير من السيطرة على الحصون والمناطق المنعزلة، ممهّداً بذلك السبيل للانقضاض على الداخل، على رأس جيش قوامه خمسون ألف جنديّ. وقبل أن يدخل ڤسبسيان أورشليم، مات نيرون، وأصبح هو الأمبراطور. فعهد بأمر إنهاء الثورة إلى ابنه تيطوس الذي شدّد الحصار على أورشليم مدّة خمسة أشهر، إنتهت في أيلول سنة ٧٠. وعندما تأكّد لليهود المحاصرين أن الرومان سيفتحون مدينتهم، لجأوا إلى إبادة نسائهم وأولادهم، ثمّ راحوا يقتلون بعضهم بالقرعة. وقد كتب الوصف التالي مؤرّخ ساهم بنفسه في هذه الحرب:

«كان الأزواج يضمّون زوجاتهم بحنان، ويحملون أطفالهم بين أذرعهم ويتعانقون عناق الوداع، والدموع تترقرق في مآقيهم. ولكنّهم نفّذوا في الوقت ذاته ما اعتزموا عمله كأنّهم يعملون ذلك بأيدٍ غريبة. وقد جعلوا عزاءهم لضرورة ما قاموا به، تفكيرهم بالمصائب التي سيقاسونها فيما لو سقطوا بأيدي أعدائهم. وكانوا رجالاً تعساء بالحقيقة بسبب الضرورة التي وُجدوا فيها وهم الذين بدا لهم ذبح زوجاتهم وأطفالهم بأيديهم أهون الشرور التي تنتظرهم[1]».

بنتيجة قمع تيطوس للثورة اليهوديّة، هُدمت أورشليم وأُحرق معبدها، ثمّ هُدم تماماً وأزيلت آثاره. وقُدّر عدد قتلى اليهود في هذه الحرب بحوالى مليون، قُتل عدد منهم وهم أسرى، بإجبارهم على التقاتل حتّى الموت في الملاعب الرومانيّة، وعلى مقاتلة الوحوش الضارية في المدرّجات. واختطف أحد الجنود الرومان

١ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ١ ص ٣٧٦ نقلاً عن يوسيبوس.

الشمعدان ذا الفروع السبعة من المعبد المحترق، وحمله في موكب النصر لتيطوس إلى عاصمة الأمبراطوريّة. وحتّى اليوم، لا يزال يحمله جنديّ عالياً على القوس المشيّد قرب الفوروم برومة لذكرى الانتصار العظيم.

رغم أنّ هذا القمع قد أزال اليهوديّة كدولة سياسيّة من الوجود، فأصبح اليهود مشتّتين منذ ذلك الحين شعباً بدون وطن، نشبت ثورة يهوديّة أخرى بعد حوالى ستّين سنة استطاعت أن تستمرّ ثلاث سنوات (١٣٢ ـ ١٣٥) اتّخذت هذه المرّة شكل حرب عصابات في المواقع الجبليّة الحصينة، وراحت تهاجم الجنود الرومان حيث طالتهم أيدي ثوّارها.

قاد تلك الثورة قائد غامض اسمه سمعان باركوخبا. غير أنّ الرومان جرّدوا على الثوّار حملة اجتاحت مواقعهم وأزالت قلاعهم وأحرقت قراهم، حتّى بلغ عدد القرى اليهوديّة التي دُمّرت هذه المرّة أقلّ من ألف قرية بقليل، وعدد القتلى من اليهود نحو ستمائة ألف. وحوّل الأمبراطور الرومانيّ أدريانس (١١٧ ـ ١٣٨) بعد القضاء على الثوّار، أورشليم إلى مستعمرة يونانيّة باسم «إيليا كاپيتولينا» على اسمه الأوّل الذي كان «إيليوس»، وأسكن فيها جالية رومانيّة ويونانيّة، وأقام مكان الهيكل معبداً للإله جوپيتير. وكانت هذه الضربة الأخيرة لليهود في تلك الأرض التي فقدوا كيانهم فيها طوال العصور التالية.

الفصل الثامن

يهود الشتّات (دياسبورا)

- مقدّمة
- طرق الإنتشار اليهوديّ
- اليهود في البلاد العربيّة

بعد سنة ٧٠ م. لم يكن تاريخ اليهوديّة سوى تاريخ ملايين من اليهود كانوا منذ عدّة قرون قد تفرّقوا في حوض البحر الأبيض المتوسّط كلّه، وفي بلاد الجزيرة بين النهرين وفي بلاد الفرس، تبعاً لجميع العواصف التي ضربت الشرق الأوسط[١]. وكانت أكبر الجماعات في هذا الشتات تقيم في الإسكندريّة وإنطاكية وروما. وكان اليهود يحظون فيها بنظام للأحوال الشخصيّة يجيز لهم الحفاظ على إدارة دينيّة ومدنيّة مبنيّة على شريعة موسى. وإنّ تيّاراً من العداء للساميّة غير ظاهر ساعد على عزل تلك الجماعات عن بيئتها في المجتمع، ولكنّه لم يطغ طغياناً عنيفاً مقصوداً إلاّ نادراً. وكان «المجمع» مركز الحياة الدينيّة والثقافيّة عند اليهود، فقد كان في الوقت نفسه مدرسةً ونادياً ثقافيّاً ومكان العبادة. وكانت العبادة تقتصر في جوهرها على الصلاة وتلاوة التوراة وتفسيرها.

لمّا عاد اليهود المسبيّون إبّان الحكم الفارسي بدءاً بعهد مؤسّس الأمبراطوريّة الفارسيّة: كورش، بعد دخوله بابل سابياً في ٥٣٩ ـ ٥٣٨ ق.م. حيث كان اليهود الذين جاء بهم نبوكدنآسر بين ٥٩٧ و ٥٨٦ ق.م. فضّل أغنياء المسبيّين البقاء حيث هم، وكان أهمّ مراكز إقامتهم على أحد روافد الفرات: خابور[٢]، أوخابور الأكبر. وتقع قناة هذا الرافد إلى الجنوب الشرقيّ من بابل. وكان هؤلاء الذين بقوا وقاوموا الاندماج بالسكّان جماعات أو أفراد ما عرف بـ «الدياسبورا»[٣] أي: اليهود المُقيمين خارج اليهوديّة.

بعد أن أُطلقت كلمة دياسبورا، التي تُرجمت الى العربيّة من قبل اليهود بـ«يهود الشتات»، على اليهود الذين انتشروا خارج اليهوديّة بعد السبي، توسّع

---

١ ـ الكتاب المقدّس، العهد الجديد، دار المشرق (بيروت ١٩٩١) ص ٣١٧ ؛ راجع: سفر حزقيّال، ١ : ١، ٣؛ ٣ : ٢٣،٣ ؛ دانيال، ٣ : ١٢

٢ ـ راجع: سفر حزقيّال، ١ : ١، ٣؛ ٣ : ٣، ٢٣؛ دانيال، ٣ : ١٢؛ كلمة «خابور» فأصلها بابليّة: «كبارو» ومعناها: «العظيم».

٣ ـ Diaspora: كلمة يونانيّة معناها: تشتّت وتفرّق أو نثر البِذار.

مضمون معناها ليشمل اليهود المتنصّرين خارج اليهوديّة، ثم صار يشمل كافّة اليهود المُقيمين خارج اليهوديّة عبر التاريخ.

أمّا الادّعاء الذي تداوله اليهود عبر التاريخ والقائل بأنّ جميع يهود العالم هم من سلالة واحدة، أصلها الآباء الأول من عصر إسحاق ويعقوب، بانين مقولتهم على أنّ عشرة من أسباط إسرائيل قد فُقدت إثر السبي البابليّ، ومن هذه الأسباط يهود أوروبة وسواها من بلاد العالم، فهو ادِّعاء قد أبطله العلم الذي أخضع الجمجمة البشريّة لحكم المختبر، والذي تضع الأنتروبولوجيا مقاييسه. وقد دلّ هذا العلم على أنّ الدين اليهوديّ قد شمل العديد من الأجناس البشريّة قبل إقفال باب الدعوة في القرن الثالث عشر. قبل ذلك التاريخ، كانت اليهوديّة فاتحة ذراعيها، مرحّبة بمقدم كل من يعتنقها من أبناء الشعوب[1]. فقد اعتنقت شعوب عديدة الدين اليهوديّ وأهلُها في ديارهم، ولم يكونوا في أيّ وقت من سكّان اليهوديّة، فانتشر الدين اليهوديّ في العالم، بين أمم متباعدة، مثل سكّان اليمن والحبشة والجزيرة العربيّة وبلاد القفقاس وأواسط أوروبة وبلاد الغرب، إضافة إلى شعوب مختلفة في الدولة الرومانيّة والأقطار المجاورة لها. هذا إلى جانب العناصر التي دخلت الدين اليهوديّ عن طريق الزواج. وقد اعتنق اليهوديّة كثير من الجماعات التي أرسلها الأشوريّون من مختلف أنحاء الأمبراطوريّة الأشوريّة إلى اليهوديّة، ليحلّوا محلّ اليهود الذين أُبعدوا إلى بلاد جاوي، واندمج بعضهم في اليهوديّة، وربّما كان خير من يمثّلهم اليوم السامريّون الذين يعيشون في نابلس[2].

طرق الانتشار اليهوديّ

تدلّ متابعة الأحداث التاريخيّة على أنّ العلاقة التي قامت بين الملك سليمان وشعب اليمن، كانت عن طريق ملكته بلقيس، ملكة دولة سبأ التي كانت تقع

١ - ويلز، معالم تاريخ الانسانيّة، الترجمة العربيّة، الكتاب الرابع، ص ٢٩٢ - ٢٩٣

٢ - سوسه، العرب واليهود في التاريخ، ص ٦٨٦

جنوبيّ غربيّ شبه الجزيرة العربيّة، والراجح أنّ الملكة كانت وصيّة على جاليات سبأ المُقيمة في شمال جزيرة العرب، هذه العلاقة، هي التي كانت سبب انتشار اليهوديّة في اليمن والحبشة، بالنظر لوجود صلات وعلاقات تجاريّة بين اليمن والحبشة في ذلك الزمان. ومن المعبّر عن صحّة هذا الرأي ما جاء على لسان ملكة سبأ لمّا زارت سليمان في قصره: «تَبارك الربّ إلهك الذي رضي عنك وأجلسك على عرش إسرائيل، فإنّه بسبب حبّ الربّ لإسرائيل للأبد أقامك ملكاً لتُجريَ الحقّ والبرّ[1]».

وفي أزمنة لاحقة، لجأت الجماعات اليهوديّة إلى نشر الدين اليهوديّ خارج اليهوديّة، وكان الانتشار اليهوديّ في حركة التمدّد هذه، يتمّ من خلال التبشير، عبر ثلاث طرق:

طريق شرقيّ غربيّ يمتدّ من فلسطين شرقاً إلى العراق، وغرباً إلى مصر وبلاد المغرب وإسبانية والبرتغال، حيث كانت جاليات يهوديّة واسعة إبّان الفتح العربيّ.

طريق القوقاز، حيث استقرّت الجماعات اليهوديّة والمتهوّدة، التي سوف يكون لها الفضل في إدخال اليهوديّة إلى روسية وبلاد أوروبّة الشرقيّة.

طريق سلكتها الهجرة اليهوديّة من اليهوديّة في اتّجاه منطقة حوض نهر الراين وبولندة وروسيّة الغربيّة. ويرجّح الباحثون أن يكون هذا الانتشار قد حصل في العصور الوثنيّة مُستهدفاً بلاد البربر، حيث بات اليهود هناك يشكّلون تسعة أعشار يهود العالم. هذه المجموعة الكبرى يُطلق عليها اسم يهود الأسكناز، وهي تتكلّم لغة «يدش» التي تُطابق لغة الإقليم الشمالي الغربيّ من ألمانية، وعلى الرّغم من أنّها لغة ألمانيّة، فإنّها تُكتب بالحروف العبريّة، ودخلها عدد من الكلمات السلافيّة بعد الاختلاط الذي حصل مع السلاف.

اليهود في البلاد العربيّة

في آخر نظريّة تاريخيّة مبنيّة على دراسة أسماء الأماكن في الجزيرة العربيّة، جاءت فرضيّة جديدة، اعتبرت أنّ «اليهوديّة لم تولد في فلسطين، بل في غرب

---

١ ـ سفر الملوك الاول، ١٠ : ٨ ـ ٩

شبه الجزيرة العربيّة، وأنّ مسار تاريخ بني إسرائيل، كما رُوي في التوراة العبريّة، كان هناك: في غرب شبه الجزيرة العربيّة، وليس في أيّ مكان آخر[1] ...». واعتبرت هذه الفرضيّة أنّ «الانتشار المبكّر لليهوديّة من موطنها الأصليّ في غرب شبه الجزيرة العربيّة إلى فلسطين وبقاع أخرى في الشمال، إتّبع مسار القوافل التجاريّة العابرة إلى شبه الجزيرة العربيّة. وفي العالم القديم كان إقليم عسير في غرب الجزيرة العربيّة مكان اللقاء للقوافل المحمّلة بتجارة بلاد حوض المحيط الهنديّ: (الهند، جنوب الجزيرة العربيّة، شرق إفريقية) الآتية من اتّجاه، والقوافل المحمّلة بتجارة فارس والعراق وبلاد حوض شرق البحر الأبيض المتوسّط: (الشام، مصر، عالم بحر إيجه) من اتّجاه آخر. ونظراً لوقوع فلسطين في الزاوية الجنوبيّة للشام، وبالقرب من مصر، فقد كانت هي المحطّة الساحليّة الأولى لتجارة غرب شبه الجزيرة العربيّة في ذلك الاتّجاه. ولا بدّ - كما تقول النظريّة - أنّ المستوطنين اليهود الأوائل هناك كانوا من تجّار غرب شبه الجزيرة العربيّة ومن رجال القوافل العاملين في تلك التجارة. ولم يكن لهؤلاء المستوطنين أن يخفقوا في اجتذاب المُهتدين المحلّيّين إلى دينهم، الذي كان يفوق العقائد المحلّيّة في مستواه الفكريّ والخلقيّ إلى حدّ لا يُقاس، وكذلك الديانات العليا لأمبراطوريّات الشرق[2] ».

لا شكّ في أنّ هذه الفرضيّة تحتاج إلى براهين علميّة أخرى غير أسماء الأمكنة التوراتيّة التي وُجدت في غرب الجزيرة العربيّة، وهذا، على أيّ حال، ما أشار إليه صاحب النظريّة نفسه[3] إذ «سيكون على علماء الآثار أن يؤكّدوا الاكتشافات التي بُنيت عليها هذه الفرضيّة».

بانتظار ذلك، يبدو لنا أنّ الانتقال الذي حصل من قبَل اليهود، كان معاكساً تماماً لما طرحته الفرضيّة الجديدة، وعلى طريق القوافل نفسها، ولكن من فلسطين إلى غرب الجزيرة العربيّة وليس العكس.

---

١ - كمال الصليبي، التوراة جاءت من جزيرة العرب، مؤسّسة الابحاث العربيّة، الطبعة الرابعة (بيروت ١٩٩١) ص ٢٨ - ٢٩

٢ - المرجع السابق، ص ٣١ - ٣٣

٣ - المرجع السابق، ص ٦٥

إضافة إلى ما يمكن استخلاصه من زيارة ملكة سبأ الى الملك سليمان، من أنّ اليهوديّة كانت قد اشتهرت في الجزيرة العربيّة، وذاع هناك صيت مجد الملك سليمان، ممّا حدا ملكة سبأ على أن تزوره في مملكته، فإنّ المذهب المتشيّع لعليّ بن أبي طالب الذي ظهر في حياة الإمام، قد بثّه، كما هو معلوم، رجل من أصل يهوديّ اسمه ابن سبأ[1]، حتّى أنّ ذلك المذهب المُغالي في التشيّع، وهو من أبكر تلك المذاهب، قد عُرف بالسبئيّة.

إضافة إلى تلك الواقعة التاريخيّة الثابتة، تذكر المدوّنات أنّه في القرن الخامس بعد الميلاد، كان أحد ملوك حِمْيَر: تبّان أسعد أبو كرب، من ناشري هذه الدعوة. ففي غزوة يثرب، «جاءه حبران من أحبار اليهود، فأعجب بما وصفاه له عن دينهما، فاتبّعه، وأخذهما معه إلى اليمن، ودعا قومه إلى الدخول فيه فأجابوه. وقد ثُبِّت الدين اليهوديّ في اليمن على عهد الملك الحميريّ: ذي نوّاس، في أوائل القرن السادس للميلاد، حين أجبر ذو نوّاس المسيحيّين على اعتناق اليهوديّة[2]».

كما أنّ الكثير من الباحثين يعتقد بأنّ باب التبشير باليهوديّة كان مُغلقاً منذ القديم، وأنّ اليهود الذين ظهروا في مختلف الأقطار، ومنها الجزيرة العربيّة، إنّما هم من اليهود الذين هاجروا من فلسطين. إلاّ أنّ هذا الاعتقاد يخالف الواقع، لأنّ جميع الدلائل تثبّت أنّ الأحبار اليهود كانوا يعملون على حمل الناس من مختلف الأجناس والقوميّات على التهوّد. وقد كان التبشير باليهوديّة قائماً منذ أقدم العصور. واستمرّ التبشير اليهوديّ قائماً حتّى أُغلق باب الدعوة اليهوديّة في منتصف القرن الثالث عشر للميلاد.

وهناك شهادات من يهود دمشق وحلب تعود إلى القرن الثالث للميلاد، تقول أنّ «الذين يعتبرون أنفسهم من اليهود في جهات خيبر ليسوا يهوداً حقّاً، إذ لم يحافظوا على الديانة الإلهيّة التوحيديّة ولم يخضعوا لقوانين التلمود خضوعاً تامّاً[3]».

---

١ - راجع مجلّد الشيعة من هذا المؤلّف، مقطع: السبئيّة.
٢ - محمّد عزّة دروزة، تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم، مطبعة نهضة مصر (بدون تاريخ) ص ٣٢٦
٣ - إسرائيل ولفنسون، تاريخ اليهود في بلاد العرب، (القاهرة ١٩٢٩) ص ١٣

واعتبر بعض المؤرِّخين العرب أنّ القبائل اليهوديّة التي في الجزيرة العربيّة هي ذات أصول عربيّة صحيحة، ويذكرون أنّ نضيراً فخذ من جذام، إلاّ أنهم تهوّدوا ونزلوا بجبل يُقال له النضير فسُمّوا به. وأنّ بني قريظة فخذ من جذام أيضاً، وهم أخوة بني النضير، ويقال إنّ تهوّدهم كان في أيّام عاديّا بن السموأل، ثمّ نزلوا بجبل يُقال له قريظة فنسبوا إليه[1]. كما يذكرون أنّ يهود يثرب هؤلاء، الذين هم من قريظة والنضير، من القبائل العربيّة في الجزيرة، كان لهم ملوك حكموا حتّى أخرجهم الأوس والخزرج من المدينة[2]. ولّما هاجر محمّد إلى يثرب، التي عُرفت فيما بعد بالمدينة المنوّرة، حرص على تحقيق الوحدة بين القبائل العربيّة وإزالة ما كان بين أهل المدينة قبل الإسلام من التقاتل بإبطال حروبهم. وتحقيقاً لذلك، كتب كتاباً جاء فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمّد النبيّ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم، إنّهم أمّة واحدة من دون الناس... وإنّ من تبعنا من اليهود فإنّ له النصر والأسوة غير مطلوبين ولا متناصر عليهم، وإنّ يهود بني عوف آمنة من المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم وأنفسهم، إلاّ مَن ظلم وأثم، فإنّه لا يوقع إلاّ نفسه وأهل بيته، وإنّ ليهود بني النجّار وليهود بني الأوس وليهود بني ثعلبة ولجفنة ولبني الشطية مثل ما ليهود بني عوف. وإنّ موالي ثعلبة كأنفسهم وإنّ بطانة يهود كأنفسهم وإنّه لا يخرج منهم أحد إلاّ بإذن محمّد[3]».

يتّضح من ذلك أنّ قبيلة الأوس العربيّة كانت قد تهوّدت قبل الإسلام. ومن قبائل الجزيرة العربيّة المتهوّدة بحسب المدوّنات، قبيلة بني كنانة، وبني الحارث بن كعب، وكندة[4]؛ إضافة إلى قبيلة بني ركاب العربية المتهوّدة التي كانت قد اقتبست

---

١ - اليعقوبي، (طبعة النجف ١٩٦٤) ص ٤٠ - ٤٢؛ أمّا إبن خلدون والأصفهاني فيعتبران هذه القبائل من سلالة موسى.

٢ - ياقوت، معجم البلدان، ج ٤ ص ٣٨٥ - ٦٠.

٣ - سيرة إبن هشام، ج ٢ ص ٤٠ وما بعدها.

٤ - راجع: إبن قتيبة، المعارف، مطبعة دار الكتب (١٩٦٠) ص ٦٢١؛ القاضي أبو القاسم الاندلسي، طبقات الأمم، المطبعة الكاثوليكيّة، (بيروت ١٩١٢) ص ٤٣

الدين اليهوديّ، من غير أن تندمج باليهود، فظلّ أفرادها محافظين على تقاليدهم العربيّة حيث كانوا ينزلون في الصحراء الواقعة بين اليمن والعراق، وهم من عشائر تيماء. وكان شيخهم وزعيمهم في القرن الثاني عشر للميلاد يُقيم في تيماء، حيث القلاع الكبيرة الحصينة التي لا تخضع لأيّة سيطرة أجنبيّة[١]. ويردّ بعضهم أصل اليهود الذين في جبال نيسابور في شرقيّ إيران إلى المسبيّين الأصليّين[٢].

أمّا في المغرب العربيّ، فكانت قبائل البربر قد اعتنقت اليهوديّة قبل الإسلام، مثل قبيلة جراوة، التي سكنت جبال أوراس، وقبائل نفوسة، وفندلاوة، وبهلولة، وبني بازار، وغياتة، ومديونة[٣].

هذا بالنسبة لليهود في المنطقة التي هي مجال بحثنا، أمّا يهود الخزر، الذين هم من الأتراك المغول، وموطنهم: الخزر، يقع في جنوب روسية قرب مصبّ نهر الفولغا في بحر الخزر المعروف ببحر قزوين، فقد اعتنقوا اليهوديّة في العصور الوسطى متّبعين بذلك أميرهم المتهوّد. وكان هذا الأمير يحمل لقب «خاقان»، وأصل الكلمة «قاغان» وهي تركيّة. ويبدو أنّ عدداً لا بأس به من يهود بني إسرائيل قد انتقل إلى هذه البلاد بعد خراب أورشليم على أيدي الرومان[٤].

وينقسم اليهود في العالم، من حيث الأصول، إلى ثلاثة أقسام، أسماؤها:

الأشكنازيّون، والسفارديّون، والشرقيّون.

الأشكنازيّون، هم الطائفة المتحدّرة أصلاً من عرق ألمانيّ (سلاف وجرمان). ومصدر اسمهم هو كلمة «شكناز» الألمانيّة التي تعني: اليهوديّة الحديثة. وقد

---

١ ـ The itenerary of Rabbi Benjamin of Tudela, Ed: A. Asher (London, 1840) P. 148

٢ ـ المرجع السابق، ص ٨٣، ١٢٩

٣ ـ محمّد الحبيب إبن خوجه، يهود المغرب العربي، (١٩٧٣) ص ١١ ـ ١٢، نقلاً عن إبن خلدون.

٤ ـ للمزيد من المعلومات عن يهود الخزر، راجع: ياقوت، معجم البلدان، مادّة الخزر؛ إبن النديم، الفهرست، ص ٢٠؛ رسالة إبن فضلان، تحقيق سامي الدهّان، المجمع العلمي العربي، (دمشق ١٩٥٩)؛ D.N. DUNLOP, The Jewish knazars, (N. Y, 1967) (Schoeked Book); John Beaty, the Iron Curtain over America, (Dallas, Texas, 1956)

توسّعت شمولية النسبة الأشكنازيّة فيما بعد لتشمل أكثر يهود أوروبّة، ومنهم يهود الجزر البريطانيّة وشمال فرنسة إضافة إلى النمسة وألمانية. وبعد القرن الثالث عشر، أصبحت كلمة أشكناز تدلّ على حضارة وليس على بقعة جغرافيّة.

السفارديّون، هم اليهود الذين هاجروا من اليهوديّة إلى شبه الجزيرة الأيبيريّة. وبعد طردهم من إسبانية في نهاية القرن الخامس عشر، إنتقلوا إلى جنوب أوروبّة وشمال إفريقية وبلدان الشرق الأوسط، وبعضهم انتقل إلى بريطانية وهولندة والسويد ثم تفرّقوا في أماكن أخرى من العالم.

والشرقيّون، هم الذين غادروا اليهوديّة في مراحل السبي والتهجير، وقد انتشروا في العراق وإيران وأفغانستان والدلتا الغربيّة لمصر، ومنها توزّعوا في شمال إفريقية.

إلاّ أنّ هذا التقسيم قد تبدّل اليوم، فأصبح إسم أشكناز يعني اليهود الغربيّين الذين هاجروا إلى فلسطين من الغرب، مع أنّ كثيرين منهم من أصل سفارديّ. وأصبحت كلمة سفارديّ تعني اليهود الشرقيّين الذين كانوا أصلاً في اليهوديّة، وعادوا إلى فلسطين بعد نشوء إسرائيل الحاليّة، مهاجرين من بلدان إفريقية والشرق الأوسط[١].

---

١ - للإطّلاع على وضع اليهود وتاريخهم في العالم: J. Starr, the jews in Byzantine Empire, (641 - 1204, 1939); M. Lowenthal, the jews in Germany, (1947); Alt A. Die urspruenge des israelitishen Rechts, (Leipzig, 1934); Roth C. A short history of the Jewish People, (London, 1936); Roth C. A history of the jews in England, (London 1941); Roth C., A history lf the jews in Italy, (London, 1946); Saron G. and Hotz L., the jews in South Africa (1956); Greenberg L., the jews in Russia, (1944 - 1951); Graetz H. history of the jews, 6 vols. (1991 - 1926); Graetz H., Geschichte der Juden, (Leipzig, 1906); Dobnow S.M., A History of jews in Russia and Poland, 5 vols. 2nd ed. (1946).

الفصل التَّاسع

اليهود في ظلّ المسيحيّة فالإسلام

- في بداية المسيحيّة
- في ظلّ المسيحيّة
- في ظلّ الإسلام

في بداية المســـــيحـــــية

لم يكن لخراب أورشليم على يد الرومان علاقة بالمسيحيّة على الإطلاق. فإنّ المسيحيّة، في بدء عهدها، كانت تُعتبر من قبل الرومان كأنّها فرقة يهوديّة، أو كمذهب يهوديّ غامض، وأنّها من الفلسفات الكثيرة التي كانت تنتشر من الشرق الأدنى. وكانت نواة المجتمعات المسيحيّة الأولى مؤلّفة من اليهود. وقد حكم الأمبراطور دوميثيانس (٥١ ـ ٩٦م.) على ابن عمّ له بالإعدام بتهمة كفر يتّصل باليهوديّة، ويقصد دون شكّ المسيحيّة[1]. وعندما حدث الاضطهاد العنيف ضدّ المسيحيّين سنة ٩٥م. في عهد الأمبراطور الرومانيّ دوميثيانس، كان ذلك موجّها بصورة خاصّة ضدّ اليهود الذين كان الرومان لا يزالون يخلطون بينهم وبين المسيحيّين في كثير من الأحيان. إلاّ أنّ الانفصال بين اليهود والمسيحيّين كان قد بدأ إثر الثورتين اليهوديّتين الأخيرتين اللتّين أدّيتا إلى خراب أورشليم في بداية القرن الثامن.

كان أوّل حاكم يهوديّ اضطهد الكنيسة الناشئة: أغريبا الأوّل، حفيد هيرودس الكبير[2] الذي به عادت سلالة هيرودس إلى الحكم لمدّة قصيرة (٣٩ ـ ٤٤). وعند وقوع كارثة أورشليم، كانت الجماعة المسيحيّة الصغيرة قد هربت من تلك المدينة إلى پلاّ في منطقة المدن العشر[3].

في ظلّ المســـــيحـــــية

لا تطالعنا المدوّنات بأيّة اضطهادات تعرّض لها اليهود على أيدي المسيحيّين، ولا حتّى على أيدي الحكّام البيزنطيين، بعد خراب أورشليم على أيدي الرومان

---

١ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ١، ص ٣٦٥؛ المصدر الأساسي: Dio, Bk. LXVII, ch. 14

٢ ـ أعمال الرسل، ١٢ : ١ ـ ٢٣

٣ ـ الكتاب المقدّس، العهد الجديد، دار المشرق (بيروت ١٩٩١) ص ١٦

الوثنيّين. وكان الأباطرة الرومان قد أعادوا في الربع الأوّل من القرن الثاني إلى اليهود بعض امتيازاتهم القديمة، ورخّصوا لهم ثانية في ختان أطفالهم مع قيد بسيط واحد، وهو عدم إجراء هذه العمليّة الخاصّة بالعبرانيّين لأيّ مهتدٍ أجنبيّ، ممّا يؤكّد على أنّ باب التهوّد كان لا يزال مفتوحاً. كما سمح الرومان للبقايا الكثيرة من هذا الشعب الذي أصبح الآن بعيداً عن أورشليم، بإنشاء المؤسّسات الكبيرة أو الاحتفاظ بها. كما سمحوا لليهود بإنشاء نوع من «الشرطة الملّية» أو «الكنيست». وخُوّل الحاخام، الذي اتّخذ مقرّه في طبريّة، سلطة تعيين القسس والحواريّين التابعين له، وأُعطي حقّ ممارسة القضاء المحلّي، وحقّ تلقّي الإعانات. وكثيراً ما أصبحت تُشيّد هياكل جديدة لليهود في المدن الرئيسيّة في الأمبراطوريّة، وتُقام احتفالات مَهيبة عامّة في أيّام السبت، أو بمناسبة الصوم، أو الأعياد التي نزلت بها شريعة موسى، أو أوصت بها تقاليد الأحبار. هذا في الوقت الذي كانت تتعرّض المسيحيّة فيه للاضطهاد، والمسيحيّون لأبشع أنواع التعذيب.

إستمرّ الوضع على هذه الحال إلى أن جاء عهد قسطنطين سنة ٣٠٦، وأطلق الحرّيّة للدين المسيحيّ. وفي عهده صار الاعتراف الرسميّ بالمسيحيّة. وكانت هيلانة، والدة قسطنطين، مسيحيّة تقيّة. وقد قامت بزيارة أورشليم، حيث يُروى أنّها وجدت الصليب الحقيقيّ في البقعة التي تقوم عليها كنيسة القيامة. وفي ذلك المكان، شيّد قسطنطين كنيسة القيامة الأولى[١]. وأصبحت أورشليم وسواها من مدن اليهوديّة، أراضي تحتضن الأماكن المسيحيّة المقدّسة. إلاّ أنّ أورشليم، كمدينة، ظلّت زمناً طويلاً تُقاسي من الخراب الذي ألحقه بها الرومان.

في العصر البيزنطيّ الذي بدأ في عهد أركاديوس سنة ٣٩٥، أصبحت مناطق بلاد الهلال الخصيب مسيحيّة، بوجه عام. وقد اعتبر المؤرّخون أنّ هذه الحقبة، هي الوحيدة التي كانت فيها سورية بلاداً مسيحيّة تماماً. ونظراً لوقوع العصر البيزنطيّ بين العصر الرومانيّ الوثنيّ والعصر الإسلاميّ العربيّ، فإنّه كان فريداً في تاريخ

---

١ - حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ١ ص ٣٨٨

سورية. وعندما عُقد مجمع نيقية المسكونيّ الأوّل سنة ٣٢٥، حضره تسعة عشر أسقفاً من فلسطين [١]، إضافة إلى عشرة من فينيقية، واثنين وعشرين من سورية المجوّفة، وستّة من الولاية العربيّة. وبدأ الرسل وعظهم في المعابد اليهوديّة، وكان الذين يعتنقون المسيحيّة على أيديهم إمّا من اليهود أو من غير اليهود الذين يرتادون هذه المعابد. لذا كانت نواة الجمعيّات المسيحيّة الأولى من اليهود على الأكثر. ويُظنّ أنّ أقدم أماكن العبادة المسيحيّة كانت إمّا البيوت الخاصّة حيث تُعقد اجتماعات غير رسميّة، أو معابد اليهود. وعندما تحوّلت أماكن العبادة هذه إلى كنائس بصورة رسميّة، لم تجد نموذجاً تتّبعه سوى الكنيس. وكان الكنيس اليهوديّ بديلاً محلّيّاً للمعبد القديم بعد خرابه. وتعود أقدم بقايا كنيس وُجد في فلسطين إلى القرن الأوّل الميلاديّ[٢]. أمّا أقدم كنيس في دورا أوروبس (الصالحيّة) فكان بيتاً خاصّاً تحوّل إلى كنيس حوالى سنة ٢٠٠م. وقد زوّد كنيس في دورا أوروبس أيضاً يعود إلى منتصف القرن الثالث بباب للنساء ومقاعد خاصّة بهنّ. وتُعتبر زخارف جدرانه فريدة في الفنون الكنسيّة، إذ تُصوّر مناظر عن حياة الأسلاف والملوك اليهود[٣]. وتوجد في المدينة نفسها بقايا كنيسة تعود إلى حوالى ٢٣٢م. وهي أقدم من أيّة كنيسة عُرفت في فلسطين[٤]، لا بل هي أقدم كنيسة مسيحيّة عُثر عليها. وقد بقي بعض آثار من عهد قسطنطين في كنيسة القيامة وكنيسة المهد حتّى اليوم. وكنيسة المهد كما نراها اليوم يعود بناؤها إلى يوستينيان (٥٢٧ ـ ٥٦٥). وأكثر كنائس جرش ترجع إلى القرن السادس، مع أنّه توجد في بعضها أقسام تعود إلى القرنين الرابع والخامس. وكانت إحداها بالأصل كنيساً تحوّل إلى كنيسة بعد إعادة بنائه[٥].

١ ـ راجع: B.H. Cowper, Syriac Miscellonies (Edinburgh, 1861), PP. 9 - 10

٢ ـ E.L. Sukenik, Ancient Synagogues: Palestine, Greece (London, 1934), PP. 8.69

٣ ـ Rostovtzeff et Al., Exavations at Dura-Europus, Vol VI, PP. 309 - 396; Sukenik, PP. 82 - 85

٤ ـ Rostovtzeff, PP. 238 - 288; J.W. Crowfoot, Early churches in Palestine (London, 1941), PP. 1 - 2

٥ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ١ ص ٤٠٥

وهكذا فإنّ المسيحيّة لم تحتلّ اليهوديّة في هذا المهد الدينيّ إلاّ بالتبشير والسلم. وهذا لا يعني أنّ جميع يهود المنطقة قد اعتنقوا المسيحيّة. فعند ظهور الدين الإسلاميّ، كان لليهود وجود في جميع مناطق البلاد العربيّة.

في ظلّ الإسلام

عند بدء الدعوة الإسلاميّة في مقتبل القرن السابع، كان الذين يَدينون باليهوديّة يُسيطرون على شمال الحجاز، في مقابل سيطرة قريش على جنوبه. وفيما امتدّ نفوذ قريش من يثرب حتّى الطائف، إمتدّ نفوذ اليهود من يثرب حتّى تيماء في أقصى حدود الحجاز الشماليّة مع سورية، وتقرب هذه المسافة من ثلاثماية ميل.

أمّا توزيعهم، فكان يشمل بني قريظة في ضاحية يثرب من جهة الجنوب الشرقيّ، وبني النضير في ضاحية يثرب من جهة الغرب. أمّا أعظم تجمّع لليهود فكان في منطقة خَيْبَرْ في شمال الحجاز، وهي المنطقة الواقعة بين يثرب وتيماء.

عند هجرة محمّد إلى يثرب، التي أصبحت منذ ذلك الحين تُعرف بالمدينة المنوّرة، إتّبع عدد من يهودها الدعوة الإسلاميّة، ومن بينهم أحبار كبار أضحوا من الصحابة. إلاّ أنّ الأكثريّة اليهوديّة قد قاومت الإسلام، رغم أنّ العلاقة بين نبيّ المسلمين، واليهود، في بداية الهجرة كانت شبه ودّيّة. ولكن عندما تبيّن لمحمّد أن اليهود يعملون سرّاً في التهيّؤ للانقضاض على دعوته، قرّر مجابهتهم بسرعة، فكان ذلك «الموقف واللقاء المتوتّر الذي تمّ بين الرسول واليهود في سوق بني قينقاع (اليهود) حين دعا اليهود إلى الإسلام بقوله لهم: ـ يا معشر اليهود إحذروا من الله عزّ وجلّ مثل ما نزل بقريش من النقمة (مُشيراً بذلك إلى معركة بدر) وأسلِموا فإنّكم قد عرفتم أنّي نبيّ مُرسل تجدون ذلك في كتابكم وفي عهد الله إليكم ـ . فكان جواب اليهود رافضاً للدعوة وغليظ الردّ:

- يا محمّد، إنّك ترى أنّنا كقومك، لا يغرّنّك أنّك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة. إنّا والله لو حاربتنا لتعلمنّ أنّا نحن الناس[1] -» .

لم يمضِ وقت طويل على هذه المواجهة الكلاميّة حتّى كانت «غزوة بني القينقاع» التي أسفرت عن إخراج بني القينقاع اليهود من يثرب، «فتوجّهوا إلى أذرعات من أرض الشام، فلم يلبثوا قليلاً حتّى هلكوا... وغنم الرسول والمسلمون ما كان لهم من مال... ولم يكن لهم أرضون، إنّما كانوا صاغة[2]» .

بعد هذه الغزوة، وهي الأولى ضدّ اليهود، وقد حصلت في السنة الثالثة للهجرة (٦٢٤ م.) وفي السنة نفسها، إثر تآمر بعض يهود الحجاز، أمر الرّسول رجاله: «من ظفرتم به من رجال يهود فاقتلوه[3]» . ذلك لأنّ كبارهم «كانوا يؤذون الرسول» .

ثمّ كانت وقعة بني النضير، وهم اليهود الذين كان الرّسول قد وجّه إليهم «أن اخرجوا من دياركم وأموالكم» . وإذ لم يخرجوا، «سار إليهم محمّد بعد العصر فقاتلهم، فقتل منهم جماعة... فلمّا رأوا أنّه لا قوّة لهم على حرب الرسول، طلبوا الصلح فصالحهم على أن يخرجوا من بلادهم ولهم ما حملت الإبل من خُرثيّ متاعهم. لا يُخرجون معهم ذهباً ولا فضّة ولا سلاحاً. فتحمّلوا إلى الشام... وكانت غنائمهم إلى الرسول خالصة، ففرّقها بين المهاجرين دون الأنصار... وفي هذه الغزاة، شرب المسلمون الفضيخ فسكروا، فنزل تحريم الخمر[4]» . وكان الرسول، لمّا امتنع يهود بني النضير بحصونهم، قد قطع نخلهم وشجرهم وأضرم النار عليهم قبل أن يصالحوه[5].

---

١ - راجع: صابر طعيمة، التاريخ اليهوديّ العام، دار الجيل، (بيروت ١٩٩١) ج ٢ ص ٢٨
٢ - إبن الأثير، الكامل في التاريخ، دار صادر (بيروت ١٩٧٩) ج ٢ ص ١٣٨
٣ - المرجع السابق، ص ١٤٤
٤ - اليعقوبي، ج٢ ص ٥٦ - ٥٧
٥ - اليعقوبي، دار صادر (بيروت) ج ٢ ص ٤٩؛ إبن الأثير، الكامل، ج ٢ ص ١٧٤

أمّا تخلّص الرسول من يهود بني قريظة فكان بقتل رجالهم وسبي الذريّة والنساء وقسمة الاموال، في السنة الخامسة للهجرة[١] (٦٢٦ م.)

وكانت الوقعة الأهمّ بين المسلمين واليهود في عهد محمّد على أرض الحجاز: وقعة خيبر.

كانت أرض خيبر معزّزة بالحصون اليهوديّة، وقد استعدّ فيها الطرفان للقتال أيّاماً، إذ كان اليهود يتحصّنون في معقلهم الأقوى والأخير في أرض الجزيرة، وكان الرسول مصمّماً على اقتلاع اليهود من هناك. وكان موعد المعركة بين نهاية السنة السادسة وبداية السنة السابعة للهجرة (حوالى ٦٢٧ م.) وبعد قتال مرير استخدم فيه اليهود مقاتليهم العشرين ألفاً، تمكّن المسلمون من فتح حصونهم الستة: السّلام، القموص، النطاة، القصارة، الشقّ، والمربطة. وكان عليّ بن أبي طالب من أبرز الذين قاتلوا مع الرسول في هذه الوقعة التي أسفرت عن قتل المقاتلين من اليهود وسبي الذريّة. وأَعتق الرسول منهم واحدة، هي صفيّة بنت حييّ بن أخطب، وتزوّجها. وقسم بين بني هاشم نساءَ اليهود ورجالهم وأوساق التمر والقمح والشعير[٢]. إلاّ أنّ بعض المراجع يذكر أنّ أهل خيبر، لمّا أيقنوا من أنّهم هالكون، سألوا الرّسول «أن يسيّرهم ويحقن دماءَهم، فأجابهم إلى ذلك، وكان قد حاز الأموال كلّها والشقّ ونطاة والكتيبة وجميع حصونهم[٣]». وقد تبسّط بعضهم في ذكر تفاصيل اتّفاقٍ قيل إنّه عُقد بين المسلمين واليهود في هذا المجال، قضت بنوده بأن «يحقن المسلمون دماء المقاتلين من اليهود ويتركوا الذريّة، على أن يجلوَ اليهود عن خيبر بكلّ أراضيها، وعلى أن لا يأخذ أحد من اليهود أكثر من ثوب واحد[٤]».

---

١ ـ المسعودي، مروج الذهب، منشورات الجامعة اللبنانيّة (بيروت ١٩٧٠) ج ٣ ص ٢٨ ـ ٢٩ (٤ : ١٥٧)

٢ ـ ابن الأثير، الكامل، ج ٢ ص ١٨٦ ـ ١٨٧؛ المسعودي، مروج الذهب، ج ٣ ص ٢٩ (٤ : ١٥٧)؛ اليعقوبي، ج ٢ ص ٥٢

٣ ـ إبن الأثير، الكامل، ج ٢ ص ٢٢١

٤ ـ صابر طعيمة، التاريخ اليهودي العام، ج ٢، ص ٤٣

بسقوط خيبر وحصونها، انتهى وجود اليهود في الحجاز كمجتمع سياسيّ، إذ سارع اليهود من أهل القرى والواحات المجاورة إلى الإعلان عن استسلامهم للمسلمين، طالبين السماح لهم بالعيش الآمن مقابل دفع نصف محاصيلهم للرسول «فوافقهم النبيّ على مبادرتهم بالإقرار على عدم التمرّد والتآمر»، وهذا ما حصل مع أهل فَدَك، الواحة الحجازيّة القريبة من خيبر، وكان جميع أهلها من اليهود المزارعين، وقد اشتهرت قديماً بثمرها وقمحها[1]، وقد أصبحت فدك فيما بعد وقفاً لعليّ بن أبي طالب، ولكنّ أسرة عليّ ستُحرم منها بعد قتله، وستكون فدك موضوع صراع سياسيّ معبّر عن الواقع الذي سيعانيه أحفاد الرسول فيما بعد.

بعد فدك، أصبحت البقايا اليهوديّة هناك محدودة، فإنّ محمّداً «قد عرّج في طريقه إلى المدينة من خيبر على وادي القرى، وهو الآخر واحد من حصون اليهود، فحاصره وفتحه قهراً، وأقام عليه عاملاً إسلاميّاً هو عمرو بن سعيد بن العاص[2]».

كان هذا في السنة السابعة للهجرة (٦٢٨ م.) ولكنّ الخليفة الثاني لمحمّد: عمر بن الخطّاب (١٣ ـ ٢٣ هـ/ ٦٣٤ ـ ٦٤٤ م.) سوف يُجلي جميع اليهود عن الحجاز، بعد أن يدفع لهم قيمة نصف أراضيهم، ثم يرسلهم تحت الحفظ، إلى أرض الشام[3].

أمّا آخر موئل يهوديّ في تلك المنطقة، فكان واحة مقنا الواقعة على ساحل خليج العقبة، والتي كان سكّانها من اليهود الذين كانوا يمارسون في الغالب صناعة الحياكة وصيد الأسماك.

إذا كان محمّد قد أنهى الوجود الاجتماعيّ السياسيّ لليهود في أرض الجزيرة قبل وفاته سنة ١١ هـ. ٦٣٢ م. فإنّه بعد ثمانية أعوام من ذلك التاريخ

---

١ ـ المرجع السابق؛ إبن الأثير، الكامل، ج ٢ ص ٢٢١، ٢٢٤ ـ ٢٢٥؛ الواقدي، المضاري، نشر أ. ڤون كريم (كلكوتا ١٨٥٥) ص ٤٢٥ ـ ٤٢٦

٢ ـ صابر طعيمة، التاريخ اليهودي العام، ج ٢ ص ٤٣؛ إبن الأثير، الكامل، ج ٢ ص ٢٢٢

٣ ـ إبن الأثير، الكامل، ج ٢ ص ٢٢٥

سوف يَتمّ إخضاع سورية بكاملها للإسلام، الذيْ قهر البيزنطيين على أيدي قوّاده الناشئين وعلى رأسهم خالد بن الوليد. وبذلك تمّت السيطرة الإسلاميّة على تلك المناطق التي كانت تعجّ باليهود، بمن فيهم أولئك الذين هُجّروا من الحجاز. فمع حلول سنة ٦٤٠م. لم يبقَ مدينة واحدة في ما كان يُعرف بيهوذا قبلاً، لم تسقط بيد المسلمين. وبعد وقت قصير، تمّ فتح العراق، بحيث أصبح وضع اليهود فيها مماثلاً لوضعهم في فلسطين. فإنَّ السياسة التي اتّبعها الحكّام المسلمون، بعد محمّد، قضت بعدم السماح بوجود غير المسلمين في الجزيرة العربيّة، باستثناء جماعة قليلة من يهود اليمن. أمّا في سائر المناطق التي سيطر عليها الفتح خارج الجزيرة، فقد أصبح اليهود، كما النصارى، يشكّلون الطبقة الثالثة من أهل المجتمع، بعد طبقة الحاكمين المسلمين وجماعة الأشراف من العرب الفاتحين التي كانت الأولى، يليها طبقة الموالي، أي المسلمين من الأعاجم، وهم السكان الأصليّون الذين حُملوا عن طريق القوّة أو الضغط أو الاضطهاد على اعتناق الإسلام.

بصيرورة اليهود من طبقة أهل الذمّة، حتّى في بلادهم التي اعتبروها أرض الأجداد وأرض وعد الله، تمتّعوا، إذا جاز التعبير، بقسط من الأمن والحرّيّة، في مقابل أداء ضريبة الخراج والجزية للمسلمين. لكنّ منزلتهم الاجتماعيّة والسياسيّة أصبحت ثانوية حيثما وُجدوا. وظلّ مرجعهم في الأمور المدنيّة والقضائيّة عائداً إلى رؤسائهم الروحيّين. وفي مجال الحياة العاديّة، استأنف اليهود، بعد هدوء عاصفة الفتح، الأعمال التي طالما كسبوا عيشهم من خلالها، باستثناء تلك التي يمنعها الإسلام.

لم يدم الوضع على هذه النسبة من الحرّيّة في المجتمع اليهوديّ في هذه البلاد طويلاً، إذ مع ظهور القيود العمريّة التي وضعها عمر بن عبد العزيز، الخليفة الأمويّ الثامن (٩٩ ـ ١٠١ هـ/ ٧١٧ ـ ٧٢٠ م.) أصبح اليهود، كما النصارى، مُلزمين بارتداء ملابس حقيرة تصنّفهم عن المسلمين، وبركوب مطاياهم دون أن تُسرج، وحُرموا من المناصب في الدولة. كما قضت الشروط العمريّه بغير ذلك من

شروط التصنيف والتضييق. ولا شكّ في أنّ العديد من اليهود قد اعتنق الإسلام في ظلّ هذا الواقع، خاصّة بعد أن تشدّد المتوكّل، الخليفة العبّاسيّ العاشر (٢٣٢ - ٢٤٧ هـ. / ٨٤٧ - ٨٦١ م.) في تطبيق مفعول الإجراءات التي وضعها عمر بن عبد العزيز، وأتبعها بتدابير جديدة كانت أشدّ ما فُرض بحقّ الأقلّيّات على الإطلاق[١]. فقد «أجبر النصارى واليهود على أن يجعلوا على بيوتهم تماثيل خشبيّة للشياطين، وأن لا يرفعوا سطوح قبورهم عن مستوى سطح الأرض، وأن يرتدوا معطفاً عسليّ اللّون، ويجعلوا على كلّ من الكمّين رقعتين عسليّتين، تُخاط إحداهما من أمام والثانية من وراء، وأن لا يركبوا إلاّ البغال والحمير، وذلك على سرج من خشب له على قربوسيه كرتان خشبيّتان كأنّهما رمّانتان. وصار القضاة المعاصرون يعمدون إلى اعتبار شهادة اليهوديّ والمسيحيّ على المسلم غير مقبولة، بناء على الآيات القرآنيّة التي تتّهم اليهود والنصارى بتحريف الكتاب المقدّس[٢].

كانت هذه الشروط التمييزيّة ذات تأثير سلبيّ كبير على المجتمع اليهوديّ، الذي لحق به حيف ملحوظ فضلاً عن ذلك الذي لحق به من جرّاء ضريبة الجزية. فلقد أجازت تلك التشريعات إقصاء الذمّيّ غير المرغوب فيه إلى خارج البلاد، وكانت المذاهب الفقهيّة بأكثريّتها تمتنع عن إنزال العقوبة القصوى بالمسلم إن هو قتل ذمّيّاً. وإذا كان أحد المتخاصمَين مسلماً فلا بدّ من رفع القضيّة إلى قاض مسلم[٣].

لم تكن الحقبة التاريخيّة التي خضعت فيها المنطقة، أو بعضها، للخلافة الفاطميّة (٢٩٧ - ٥٦٧ هـ / ٩٠٩ - ١١٧١م.) أفضل من سابقاتها الإسلاميّة بالنسبة إلى اليهود. كذلك كانت الحقب التي تلتها، والتي شهدت نزاعات بين قوى

---

١ - راجع: اليعقوبي، ج ٢ ص ٤٨٧؛ إبن الأثير، الكامل، ج ٧ ص ٥٢؛ الطبري، ج ٣ ص ٧١٢ - ٧١٣، ١٣٨٩، ١٣٩٣، ١٤١٩

٢ - سورة البقرة: ٧٠؛ سورة المائدة: ١٦ - ١٨

٣ - راجع: حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ٢ ص ١٦٩

إسلاميّة متصارعة بعد انفراط عقد الخلافة وتوزّع النفوذ بين خلافتين أو أكثر. وسط تلك العصور المظلمة، جرى النهب والحرق والقتل ممّا جعل سكّان المدن، وخاصة غير المسلمين منهم، يدفعون الثمن غالياً من أرواحهم وممتلكاتهم ومكانتهم الاجتماعيّة. ومن أبشع ما تعرّض له غير المسلمين في هذا الجزء من العالم في تلك الحقبة، ما جاء على يد الحاكم الفاطميّ، الحاكم بأمره (٣٨٦ ـ ٤١١ هـ / ٩٩٦ ـ ١٠٢١ م.) الذي عاد فأجرى التدابير المذلّة السابقة وأضاف إليها فنوناً أخرى من الإذلال، فأوجب على اليهود الذين يدخلون الحمّامات العامّة أن يجعلوا في أعناقهم إطاراً من الخشب شُدّت إليه الأجراس المجلجلة، وزنته نحو كيلوغرامين، على أن يرسلوه متدلّياً على صدورهم[١].

وفي بداية القرن الرابع عشر، كان على اليهود، كما على سواهم من الأقلّيّات الدينيّة، أن يقاسوا الأمرّين على يد المغول الذين فتحوا المنطقة بخلال الحقبة المملوكيّة التي لم تكن أخفّ وطأة على مجتمعات الاقلّيّات الدينيّة بأسرها.

في العهد العثمانيّ (١٥١٦ ـ ١٩١٨) بُني التقسيم الإداري في الأمبراطوريّة على أساس التابعيّة الدينيّة. وكان كلّ من الفئات الدينيّة في الأمبراطوريّة يُسمّى ملّة. وكان أكبر الملل اثنتان: ملّة الإسلام وملّة الروم (الأورثوذوكس). وكان الأرمن واليهود يُعدّون في جملة الملل. وكان جميع الملل غير المسلمة، بما فيها اليهود، مقسّمة تبعاً لهذا النظام، إلى طوائف دينيّة يرئس كلاً منها رئيس من أبناء الطائفة، يمارس بعض المهامّ المدنيّة الخطيرة، بحيث أدّى هذا الوضع إلى إنشاء نظام خاص بحكومات الأقلّيّات الخاضعة[٢]. وفي نهاية القرن التاسع عشر، كانت قد بدأت المحاولة اليهوديّة العالميّة الرامية إلى إنشاء وطن قوميّ يهوديّ في فلسطين.

---

١ ـ ابن خلّكان، وفيّات الأعيان (القاهرة ١٢٩٩)، ج ٣ ص ٥؛ إبن حمّاد، أخبار ملوك بني عبيد، نشر ڤندر هيدن (الجزائر ١٩٢٧) ص ٥٤

٢ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ٢ ص ٣١٢ ـ ٣١٣

الفصل العاشر

دولة إسرائيل

- الصهيونيّة
- بريطانية والمشروع الصهيونيّ
- أثر الحربين العالميّتين
- الثورة العربيّة وتقسيم فلسطين
- نشوء الدولة العبريّة

كلمة صهيون، التي تنتسب إليها الصهيونيّة، هي اسم ربوة تقع في أورشليم. وكان أوّل من أطلق هذه النسبة جماعة من يهود روسية انخرطوا في منظّمة ودعوا أنفسهم «أحبّاء صهيون»، ثمّ انتمى إلى هذه المنظّمة أكثر البارزين من يهود روسية. وقد قامت تلك المنظّمة بأعمال مناهضة للقيصريّة في بداية عهدها، قبل أن تتحوّل إلى مؤسّسة يهوديّة سياسيّة عالميّة، ذات جهاز تنظيميّ، تهدف إلى تجميع اليهود المشتّتين، في كافّة أنحاء الأرض، في وطن قوميّ ينشأ على البقعة المعروفة بأرض الميعاد، والتي كانت قد أصبحت، بعد نهاية العهد العثمانيّ، دولة تُعرف باسم فلسطين.

بدأت الحركة الصهيونيّة العالميّة أعمالها بشكل دقيق ومنظّم في مؤتمرها الأوّل الموسّع الذي عقدته في بازل سويسرا سنة ١٨٩٧، وحضره نحو ثلاثمائة شخصيّة يهوديّة يمثّلون خمسين جمعيّة يهوديّة، وانتخب المؤتمر تيودور هرتزل رئيساً. وبعد أقلّ من خمس سنوات، انبثق عن المنظّمة «الجمعيّة الصهيونيّة الدوليّة المساهمة» التي أنشأت لها فروعاً في العالم، تعمل بتوجيهات مركزيّة.

كان الهدف الرئيسيّ النهائيّ للمؤتمر الصهيونيّ الأوّل واضحاً وصريحاً وخطيراً ومُعلناً: «خلق وطن للشعب اليهوديّ في فلسطين يضمنه القانون العام».

لقد قرّر عدد كبير وفعّال من قادة اليهود في العالم، العودة إلى تراث التوراة، واستعادة ما ضاع منذ العهد الرومانيّ، رغم كلّ التطورات التي جرت باتّجاهٍ معاكس على مدى حوالى عشرين قرناً من التاريخ.

قبل ذلك التاريخ، في مطلع القرن التاسع عشر، كانت قد عظمت الحركة اليهوديّة الرامية إلى تحقيق التغييرات في أوضاع اليهود الاجتماعيّة، بهدف التحرّر من قيود القرون الوسطى وتشريعاتها الظالمة. وبرزت «الحركة الاصلاحيّة» التي سعت لمسايرة ركب التطوّر والتحرّر، متّجهة بأنظارها نحو مسألة باتت في حكم

الضرورة: «كيفيّة التوفيق بين المعتقدات والممارسات الدينيّة من جهة، ومتطلّبات العصر الجديد الذي دخله اليهود من جهة ثانية[1]». وهكذا تنادى الحاخامون إلى عقد المؤتمرات والاجتماعات بغية تحديد النهج العمليّ الواجب اتّخاذه، وتعيين مبادئ الإيمان وأركانه المشتركة إزاء تحدّيات الحضارة الحديثة والتطوّر التاريخيّ الذي تخطّى قيود القرون الوسطى وحدودها. فكانت المؤتمرات الحاخاميّة في منتصف العقد الرّابع من القرن الماضي بمثابة الردّ على التحدّيات، وجاءت لتجسّد استجابة اليهوديّة الإصلاحيّة لمتطلّبات الحياة العصريّة[2]. وفي المؤتمر الحاخاميّ الأوّل الذي عُقد قبل نصف قرن من تاريخ المؤتمر الصهيونيّ الأوّل، وتحديداً في حزيران (يونيو) ١٨٤٤، في برونسڤيك Brunswick، إتّخذ الإصلاحيّون قرارات عدّة من جملتها: «اعتبار القسَم الذي يؤدّيه اليهوديّ مُلزِماً، دون اللجوء إلى طقوس إضافيّة تتعدّى الابتهال والتضرّع لاسم الجلالة»، كما جرى تبنّي الرّدود التي أصدرها مجمع السنهدرين[3] الفرنسي عام ١٨٠٧ مع تعديل الردّ الثالث منها بشكل «يسمح لليهوديّ بالزّواج من المسيحيّة أو أيّ من معتنِقات الديانات التوحيديّة، فيما لو أتاح القانون المدنيّ أمام الأبوين فرصة تنشئة أولادهما على الدين اليهوديّ[4]».

---

١ - راجع: The Jewish Encyclopedia, Rabbinical conferences, P.211; الدكتور أسعد رزّوق، الدولة والدين في إسرائيل، سلسلة دراسات فلسطينيّة ٣٧، نشر منظّمة التحرير الفلسطينيّة، مركز الابحاث (بيروت ١٩٦٨) ص ٢٠

٢ - أسعد رزّوق، ص ٢٠؛ راجع: طوني مفرّج، حرب الردّة، دار الجريدة، (بيروت ١٩٧٩) ص ٢٣٠

٣ - «السنهدرين» هو المجلس العلمي الديني الأعلى عند اليهود، ومعنى الكلمة «المجلس». وقد ظهر الاصطلاح في زمن خلفاء الإسكندر في أورشليم، وبقي السنهدرين قائماً في أورشليم في العهد الروماني حتّى إلغائه سنة ٧٠م. عندما هُدِّمت المدينة، فانتقل أعضاؤه إلى بلدة «يبنة» قرب يافة، ومنها إلى «طبريّة». وفي عهد الامبراطور أنطونين پيوس (١٣٨ - ١٦١م.) أعيد تشكيل السنهدرين في الجليل ببلدة «أوشا»، وبقي منصب رئاسة السنهدرين وراثياً في عائلة «هليل» أكثر من ثلاثة قرون. أمّا التقليد اليهودي فيعتبر أن أوّل سنهدرين كان في عهد موسى لمّا دعا إليه السبعين رجلاً ليعملوا معه حين قام اتباعه يتذمّرون مُطالبين بالعودة إلى مصر. (راجع: سفر العدد، ١١: ١٦، ١٧، ٢٤).

٤ - Rabbinical Conferences, P. 212

وفي مؤتمر فرنكفورت (تموز - يوليو - ١٨٤٥) تقرّر «أن تُزال صلوات العودة إلى أرض الآباء والأجداد وإعادة تأسيس الدولة اليهوديّة» من الطقوس الدينيّة.

وقبل «الردّة اليهوديّة بفعل الدعوة الصهيونيّة بحوالى عشر سنوات، عقد الإصلاحيّون المؤتمر الحاخاميّ الخامس في مدينة پتسبورغ Pittsburgh الواقعة في ولاية پنسلفانيا الأميركية في تشرين الثاني (أوكتوبر) ١٨٨٥، الذي أكّد على «الطابع الروحانيّ والإلهيّ» للديانة اليهوديّة، وأعرب عن اعترافه بأنّ «كلّ دين يمثّل محاولة لاكتناه اللامحدود، وأنّ المنابع والكتب المنزلة التي يقدّسها إنْ هي إلاّ دلالة على حلول الله في الإنسان». كما أعلن أنّ «قوانين الشريعة الموسويّة التي تنظّم المأكل والملبس والطهارة الكهنوتيّة يرجع أصلها إلى عصور وأفكار غريبة كلّ الغرابة عن حالتنا الأخلاقيّة والروحيّة المعاصرة». وقد جاء في المبدأ الخامس من إعلان المؤتمر المذكور: «نحن نرى في العصر الحديث، عصر حضارة العقل والقلب الجامعة، اقتراباً لتحقيق أمل إسرائيل المسيحيّ العظيم لأجل إقامة مملكة الحقيقة والعدالة والسلام بين جميع البشر». وأهمّ ما أعلنه اليهود في تاريخ وجودهم على الإطلاق من حيث التطوّر الانسانيّ الجامع، قد جاء في المبدأ نفسه من المؤتمر المذكور: «... نحن لا نعتبر أنفسنا أمّة بعد اليوم، بل جماعة دينيّة، ولذا لا نتوقّع عودة إلى فلسطين، أو عبادة قربانيّة في ظلّ أبناء هارون، ولا استرجاعاً لأيٍّ من القوانين المتعلّقة بالدولة اليهوديّة[1]». ولم يفُت المؤتمر نفسه أن يعلن عن اعتباره لليهوديّة «ديانة تقدّميّة» تسعى بصورة مستمرّة في سبيل التلاؤم مع مبادئ العقل وأحكامه. كما اعترف بالمسيحيّة والإسلام «ديانتين شقيقتين» وقدّر «رسالتيهما الإلهيّتين حقّ قدرهما لجهة نشر الوحدانيّة والأخلاقيّة[2]».

لم يوافق الكاتب المجريّ اليهوديّ تيودور هرتزل، (١٨٦٠ - ١٩٠٤) الذي

---

١ - المرجع السابق، ص ٢١٥

٢ - راجع: الدكتور أسعد رزّوق، ص ٢٣

سيصبح فيما بعد رئيس المؤتمر الصهيونيّ الأوّل، على آراء الإصلاحيّين الثوريّة، وهو الذي لم يكن يرى وسيلة من أجل جعل اليهود يلتفّون حول الفكرة الصهيونيّة، سوى اعتماد الرابط الدينيّ، وقد ردّ على الاصلاحيّين بقوله: «إنّ احتجاجات عدد من الحاخامين كانت من أكثر التظاهرات مثاراً للدهشة. وكون هؤلاء القوم يصلّون لأجل صهيون ويقومون بالتحريض ضدّها، في آن معاً، سوف يبقى إلى الأبد ظاهرة عجيبة[1]».

ويجد الدّاعية الصهيونيّ دعوته في وضع صعب إزاء إمكانيّة جعل اليهود يتقبّلونها. فبالاضافة إلى موقف الإصلاحيّين الرافض، كان هنالك موقف المُغالين في التديّن، أولئك الذين لا يُقرّون تأسيس الدولة اليهوديّة على يد أُناس زمنيّين عاديّين، بل يؤمنون بأنّ إسرائيل ستعود بظهور مسيحهم المُنتظر.

في الوقت ذاته، كان هرتزل نفسه ذا نزعة علمانيّة، وها هو يعبّر عن نزعته تلك في «الدولة اليهوديّة»: «... سوف لن نسمح بظهور أيّة نزعات تيوقراطيّة لدى سلطتنا الروحيّة، وسوف نبقيهم داخل كنيسهم، بينما يكون تكريم الجيش والحاخاميّة على ذلك المستوى الرفيع الذي تتطلّبه وظائفهم القيّمة وتستحقّه. لكنّهم يجب ألاّ يتدخّلوا في إدارة الدولة[2]».

وما كان يريده هرتزل من الحاخامين، الذين توجّه إليهم بنداء خاص، هو أن «يكرّسوا طاقاتهم لخدمة فكرتنا. وأن يوحوا بها إلى رعيّتهم عن طريق الوعظ من على منبر الصلاة[3]».

إلاّ أنّ عدم تزمّت هرتزل الدينيّ، لا يعني على الإطلاق أيّ قبول أو وجود أي مجال في الصهيونيّة لفصل فكرها عن اليهوديّة. فالدوّلة هنا، مشروع يهوديّ

---

١ - راجع: Herbert Parzen, Herzel speaks his mind on issues, Events and Men (Newyork, 1960) P. 27

٢ - راجع: Theodor Herzel, the jewish state. an attempt to a modern solution of the Jewish question. Trans. by: Sylvie d'Avigdor, 4th ed. (London, 1946) P. 71

٣ - المرجع السابق، ص ٥٤

من أجل اليهود وحسب. فاليهوديّة هي البداية والنهاية في جوهر الصهيونيّة. ومهما تعدّدت النظريّات عند بعض الفئات اليهوديّة حول مدى ارتباط الدين بالدولة، ورغم ظهور بعض التيّارات العلمانيّة عند اليهود، قبل إنشاء الحركة الصهيونيّة وخلالها وبعدها، وقبل إنشاء الدولة الإسرائيليّة وبعدها، فإنّ الممارسة التي من خلالها قامت الدولة العبريّة، تبقى ممارسة، لا يمكن النظر إليها إلاّ من خلال الاعتبار الدينيّ. وقد اعتبر هرتزل، في الخطاب الافتتاحيّ للمؤتمر الصهيونيّ الأوّل أنّ «الصهيونيّة هي العودة إلى حظيرة اليهوديّة قبل أن تصبح الرجوع إلى أرض اليهود» ومن أقوال هرتزل أيضاً: «الإيمان يوحّد بيننا[1]».

على أيّ حال، ما من حاجة للتوضيح والتأكيد على أنّ دولة إسرائيل قد نشأت لتكون «دولة اليهود». فإنّ الواقع خير موضّح ومؤكّد.

لم يتأخّر اليهود في تنفيذ مقرّرات المؤتمر الصهيونيّ الأوّل، إذ بدأت المنظّمة تصدّر العمّال الزراعيّين والصناعيّين اليهود إلى فلسطين قبل نهاية القرن التاسع عشر. وفي إطار عمل استيطانيّ منظّم، بادرت المنظّمة إلى إنشاء المؤسّسات الزراعيّة لاستثمار فلسطين عن طريق الهجرة وبناء المستعمرات.

وكان لإنشاء «المصرف اليهوديّ للمستعمرات» سنة ١٨٩٨ تأثير مشجّع على التنفيذ، مثلما كان لمشروع «لجنة الاستعمار» التي أُسّست في السنة نفسها، إضافة إلى «الصندوق القوميّ اليهوديّ». وهكذا فقد تحوّلت المشاريع المتواضعة التي كانت قد بدأت في هذا المجال، قبل بدء الخطّة الصهيونيّة، إلى فروع صغيرة في خطّة كبرى. أمّا تلك المشاريع فمنها ما كان بدأ العمل به منذ سنة ١٨٨٢، إذ راح مهاجرون يهود من أوروبة إلى فلسطين يقومون بإنشاء بعض المستعمرات الزراعيّة مثل «ريشوون» و «صهيون» و «زيكرون يعقوب» و «روش بينا»، ثمّ «صهيون الجديد» سنة ١٨٨٣، و «جديدة عام» سنة ١٨٨٤. بيدَ أنّ هذه الأعمال قد ازدهرت كثيراً ونُظِّمت بشكل مبرمج وهادف بعد القرار الصهيونيّ،

---

١ ـ المرجع السابق، ص ٧١

فكان من حركات الهجرة اليهوديّة الأولى إلى فلسطين في هذه الحقبة «حركة الشباب» التي بدأت في أوروبة الشرقيّة، وكان اليهود يطلقون عليهم إسم «الروّاد». هذه الحركة كانت تنادي برفض حياة اليهود في المنفى، وكانوا يعتبرون عيش اليهوديّ في أيّ مكان من العالم خارج أرض الميعاد منفى. كما كانت تُنادي برفض جميع الحلول للمسألة اليهوديّة غير تلك التي تضمن العودة إلى إسرائيل. وقد اتّخذت لها شعاراً: «إستعادة الأرض والعودة إليها[١]».

إضافة إلى تيودور هرتزل الذي توفّي سنة ١٩٠٤، كان هناك دعاة كبار يهود أثّروا في إشاعة الحماس عند يهود العالم، وخاصة يهود أوروبة الشرقيّة، للعودة إلى إسرائيل. من هؤلاء أ.د. غوردن (١٨٥٦ ـ ١٩٢٢) صاحب فلسفة «دين العمل» الذي نادى بالعمل كظاهرة خلاّقة وقيمة عليا. وكانت تعاليم غوردن مُستوحاة من الرغبة في رفض حياة اليهود في أوروبّة الشرقيّة وفي «المنفى» بشكل عامّ من جهة، والبحث عن حياة جديدة في فلسطين من جهة أخرى، وقد خاطب غوردن اليهود محذّراً وموجّهاً بقوله:

«إنّ شعباً تعوّد جميع أنماط الحياة عدا النمط الطبيعيّ، أي تحقيق الاكتفاء الذاتيّ عن طريق العمل، لن يصبح شعباً حيّاً عاملاً إلاّ إذا بذل أقصى طاقته لتحقيق هذا الهدف. إنّ العمل ليس مجرّد عامل يحدّد علاقة الإنسان بالأرض وحقّه فيها وحسب، بل هو القوّة الرئيسيّة في بناء حضارة قوميّة أيضاً. إنّ العمل هو مَثَل إنسانيّ أعلى للمستقبل. والمثل الأعلى يشبه الشمس الصافية. إنّنا بحاجة إلى متعصّبين للعمل متزمّتين له بأعلى معاني الكلمة[٢]».

بهذه الروحيّة، كانت الهجرة اليهوديّة المنظّمة من قبل الصهيونيّة إلى فلسطين. فأُنشئت المزارع الجماعيّة اليهوديّة التي حملت اسم «كيبوتز» في فلسطين، على أراض كان يشتريها اليهود، المموّلون بواسطة المنظّمة الصهيونيّة ومؤسّساتها، من الإقطاعيّين العرب غير المُقيمين في أرض فلسطين. وكان الفلاّحون

١ ـ صابر طعيمة، التاريخ اليهودي العام، ص ٢٣٢ ـ ٢٣٤
٢ ـ المرجع السابق، ص ٢٣٤

الفلسطينيّون العرب يعملون في هذه الأراضي بظلّ ظروف سيّئة للغاية. وكان معظم هذه «الكيبوتزات» قد أنشئ في البداية على أراض تقع في منطقة وادي الأردنّ ووادي جزيل. وقبل أن تندلع الحرب العالميّة الأولى، كانت الحركة الصهيونيّة قد تمكّنت من تثبيت أقدام عدد من المهاجرين «الروّاد» الذين هم في الواقع مزارعون وعمّال، عن طريق الكيبوتزات، في أرض فلسطين. وتبعاً لمقرّرات المؤتمر، راح القادمون الجدد يتعلّمون العبريّة لتكون لغة الوطن العتيد.

وقبل الانتقال إلى حقبة التقسيمات الدوليّة التي ساعدت الحركة الصهيونيّة على إنشاء دولة إسرائيل، لا بدّ من الإشارة إلى أنّ فكرة «عودة» اليهود أو هجرة اليهود إلى فلسطين، أو إلى البقعة التي يعتبرونها الأرض التي وعدهم بها الربّ، هذه الفكرة، لم تنقطع عبر التاريخ. ومن الأحداث التي جسّدت هذه الفكرة في أزمنة متعدّدة، مجيء ثلاثمائة حبر من أحبار اليهود إلى صلاح الدين الأيّوبيّ (٥٣٢ ـ ٥٨٩ هـ / ١١٣٨ ـ ١١٩٣ م.) لاستقصاء الإمكانيّات لهجرة اليهود إلى فلسطين، وجاء هؤلاء من إنكلترة وفرنسة، إلاّ أنّ مهمّتهم لم تُسفر عن أيّة نتيجة عمليّة[١].

ويبدو أنّ اليهود قد حاولوا الأمر نفسه مع نابوليون بونابارت (١٧٦٩ ـ ١٨٢١) الذي قاد حملة على مصر (١٧٩٨ ـ ١٧٩٩) وانتصر في معركة الأهرام. ممّا جعله، بعد شروعه في غزو فلسطين سنة ١٧٩٩، يوجّه نداء إلى جميع اليهود في العالم يستحثّهم فيه على الانضمام تحت لوائه والانضواء تحت رايته لإعادة بناء «مجد إسرائيل الضائع في القدس» على حدّ تعبيره. ووصف نابوليون بني إسرائيل بأنّهم «الورثة الشرعيّون لفلسطين». إلاّ أنّ المحاولة اليهوديّة مع نابوليون قد باءت بالفشل بسبب اندحار جيوش الفاتح الفرنسيّ أمام حصن عكّة الحصين، واضطراره إلى مغادرة مصر بسرعة والعودة إلى فرنسة، ليغيب حلم يهوديّ جميل أوجده كلام نابوليون في بيانه الذي أصدره ووجّهه إلى يهود العالم

١ـ Jeffries P., the palestine: the reality, (London - Newyork. 1939) P. 30

أثناء حصاره لعكّة، وقد جاء فيه:

«إنّ العناية الإلهيّة التي أرسلتني على رأس هذا الجيش إلى هنا، قد جعلت رائدي العدل وكفلتني، وجعلت من القدس مقرّي العام، وهي التي ستجعله بعد قليل في دمشق التي يفيدها جوارها لبلدة داود.. يا ورثة فلسطين الشرعيّين! إنّ الأمّة العظيمة التي تتّجر بالرّجال كما فعل أولئك الذين باعوا أجدادكم للشعوب، تناديكم الآن لا للعمل على إعادة احتلال وطنكم فحسب، وليس بغية استرجاع ما فُقد منكم، بل لأجل ضمان ومؤازرة هذه الأمّة لتحفظوها مصونة من جميع الطامعين بكم لكي تصبحوا أسياد بلادكم الحقيقيّين... إنهضوا وبرهنوا على أنّ القوة الساحقة التي كانت لأولئك الذين اضطهدوكم لم تفعل شيئاً بسبيل تثبيط همّة أبناء هؤلاء الأبطال، التي كانت محالفة إخوتهم تشرّف اسبارطة وروما[1] ».

وقبل أن يتّسع الوقت لليهود كي يتجاوبوا مع دعوة ناپوليون، الذي فشل في أن يجعل من نفسه في أذهان اليهود «مخلّصاً جديداً» مثلما اعتبروا كورش الفارسيّ، كان الفاتح الفرنسيّ قد عجز عن تحقيق ما تمكّن رائد الأمبراطوريّة الفارسيّة من تحقيقه قبل حوالى ألفين وأربعماية عام... ذلك أنّه في أيّام كورش، لم يكن الإسلام...

أمّا المخلّص الذي سيُعيد بني إسرائيل هذه المرّة، إلى ما يعتبرونها... «أرض الميعاد... والأجداد» فهو العقل والاتحاد والتنظيم... وبريطانية.

بريطانية والمشروع الصهيونيّ

بانهيار الأمبراطوريّة العثمانيّة سنة ١٩١٨ إثر الحرب العالميّة الاولى، فُتح الباب واسعاً أمام طموحات التغيير في الأوضاع الجيوسياسيّة في أكثر أنحاء العالم. وإذ كان اليهود محضّرين لمثل هذه السانحة، راحت المنظمة الصهيونيّة تستغلّ الواقع الجديد بكل الإمكانات من أجل تحقيق هدفها الرامي إلى إنشاء وطن قوميّ يهوديّ في فلسطين.

١- أحمد سوسه، العرب واليهود في التاريخ، ص ٧١٨ - ٧١٩

قبل ذلك التاريخ، ولمّا فشل نابوليون الفرنسيّ في تحقيق حلم العودة اليهوديّة إلى أرض الميعاد، كان اليهود قد ركّزوا نشاطهم على دولة غربيّة ثانية كبرى: بريطانية، سعياً وراء تحقيق الحلم. وكان في مقدّمة البريطانيّين اليهود المتحمّسين لهذا الهدف، الثريّ اليهوديّ البريطانيّ الجنسيّة: السير موسى مونتفيوري، الذي زار فلسطين مِراراً، ونزل مراراً أيضاً في مصر، متلمّساً الأوضاع السائدة. وكان مونتفيوري مقرّباً من البلاط البريطانيّ، يحظى برعاية خاصة من وليّة العهد ڤكتوريا، وكان يومها اللورد پالمرستون متقلّداً منصب رئاسة الوزراء البريطانيّة، وهو من مؤيّدي مشروع إدخال اليهود إلى فلسطين، من منطلق أنّ هذا المشروع مفيد للمصالح البريطانيّة الاستعماريّة.

قابل مونتفيوري سنة ١٨٣٨ محمّد عليّ باشا الكبير، والي مصر، بصفته حاكماً عامّاً على سورية التي كانت ولاية فلسطين تابعة لها، وعرض عليه «أن يؤجّر لليهود بين مائة ومائتي قرية في فلسطين لمدّة خمسين سنة، مقابل أموال محدّدة». إلاّ أنّ ما أسفرت عنه المقابلة كان تعهّد محمّد باشا بالترخيص لليهود في شراء أيّة مساحة يستطيعون أن يجدوها في الأراضي السوريّة، وأبدى الوالي رغبته في أن تُمنح لليهود الأراضي بمجرّد طلبهم، وقال أنّ اليهود بإمكانهم أن ينتخبوا حكّاماً للإشراف على مقاطعات فلسطين بأسرها. وأكّد أنّه لن يدّخر وسعاً في سبيل معاونتهم وشدّ إزرهم في سبيل إنجاز هذا المشروع. وأصدر أمراً بتأييد هذه التأكيدات والوعود خطّيّاً بمقتضى الفرمانات الصادرة عن الحكومة المصريّة في هذا الخصوص.

في الوقت نفسه، وجّه پالمرستون رسالة إلى نائب القنصل الانكليزيّ في القدس يأمره فيها بأن «يكون حامياً لليهود». وبعد سنتين (١٨٤٠) كتب پالمرستون إلى سفير صاحب الجلالة في استنبول يقول: «من الواضح أنّه سيكون للسلطان مصلحة كبيرة في أن يشجّع اليهود على أن يعودوا إلى فلسطين، وأن يستقرّوا فيها»، وطلب پالمرستون من سفيره أن «يحمل هذه الفكرة سرّاً إلى

الحاكم التركيّ، وأن يطلب منه بصراحة تامّة تشجيع يهود أوروبّة على العودة إلى فلسطين[1] ». ولكن يبدو أنّ المحاولة قد فشلت مع الأتراك. وهكذا، فعندما سيطر العثمانيّون على سورية وفلسطين بعد انتزاع المنطقة من يد محمّد علي باشا سنة ١٨٤٠، ذهبت جهود مونتفيوري أدراج الرّياح، من دون أن ييأس اليهود من الإمكانيّات البريطانيّة. ففي ٢٥ أيلول (سبتمبر) من السّنة نفسها (١٨٤٠) كتب السياسيّ الإنكليزيّ المعروف اللورد شافتسبوري رسالة إلى وزير خارجيّة بريطانية آنذاك، بالمرستون، يقول فيها: «إنّ سورية، ومن ضمنها فلسطين، ينبغي أن تتحوّل إلى دومنيون إنكليزيّ»، وأكّد أنّ هذا ما يستدعي رأسمال ويداً عاملة «وإذا ما بحثنا في عودة اليهود لبناء فلسطين واستيطانها، فإنّنا سنكتشف أنّ تلك أرخص وأسلم وسيلة لتأمين كلّ ما هو ضروريّ لهذه المنطقة الضئيلة السكّان[2] ».

وقد سعى شافتسبوري إلى تأييد الرأي العام البريطانيّ لمشروعه، فكتب مقالات في الصحف البريطانيّة يؤكّد عبرها ضرورة امتلاك إنكلترة لسورية، عن هذا الطريق. وقد انتشرت فكرة السيطرة الإنكليزيّة على المنطقة السوريّة من خلال هجرة اليهود إلى فلسطين في الأوساط الإنكليزيّة، حتّى أنّ حاكم جنوب أسترالية السابق جورج غاولر، قال في ٢٥ كانون الثاني (يناير) ١٨٥٣ في البرلمان البريطانيّ: «ينبغي أن تجدّد بريطانية سورية بواسطة الشعب الوحيد الملائم للقيام بهذه الرسالة، والذي يمكن أن تُستخدم طاقته بصورة دائمة وفعّالة، إنّهم الأبناء الحقيقيّون لهذه الأرض، أبناء إسرائيل[3] ». كذلك اقترح جيمس نيل، في كتابه «النزوح إلى فلسطين أو جمع شمل إسرائيل المشرّدة» سنة ١٨٧٧، أن «يُستخدم اليهود لتحقيق هدف السيطرة الإنكليزيّة على فلسطين[4] ». وممّا يُذكر

---

١ - راجع: ايلي ليفي أبو عسلي، يقظة العالم اليهودي، (القاهرة ١٩٤٣) ص ١٤٥ - ١٥٢؛ أحمد سوسه، العرب واليهود في التاريخ، ص ٧٢٠ - ٧٢١

٢ - Socolow N. history of zionism, Vol II, P. 230

٣ - المرجع السابق، ص ٣٦٦

٤ - أحمد سوسه، ص ٧٢٣، استناداً إلى: يوري إيفانوف، حذار الصهيونيّة، ترجمة محمّد عارف، ص ٤٥ - ٤٦

في هذا المجال، ما جاء في مذكّرات الوزير البريطانيّ: إيموي، قوله: «نحن نرى من وجهة النظر البريطانيّة الخالصة، أنّ إقامة شعب يهوديّ ناجح في فلسطين، يَدين بوجوده وفرصته في التطوّر إلى السياسة البريطانيّة الخالصة، هو كسب ثمين لضمان الدفاع عن قناة السويس من الشمال، ولأداء دور محطّة الطرق الجوّيّة المقبلة مع الشرق[1]».

اثر الحربين العالميتين

بعد الإطّلاع على هذه النشاطات التمهيديّة اليهوديّة التي سبقت الحرب العالميّة الأولى، يُصبح من السهل استقراء الأسباب التي أدّت إلى حصول ما سُمّي بوعد بلفور الشهير.

قبل أن تضع الحرب العالميّة الأولى أوزارها، وجّه وزير الخارجيّة البريطانيّة أرثر جيمس بلفور Balfour[2] سنة ١٩١٧ كتاباً إلى اللورد روتشيلد Rothschild بوصفه ممثّل اللجنة السياسيّة التابعة للمنظّمة الصهيونيّة، يُعلن فيه باسم حكومته أنّها «تنظر بعين العطف إلى إقامة وطن قوميّ للشعب اليهوديّ في فلسطين، وتريد أن تبذل كل جهودها لتحقيق هذا الهدف، على أن يكون من المفهوم بوضوح أنّها لن تفعل أيّ شيء قد يضرّ بالحقوق الدينيّة أو المدنيّة الخاصّة بالجماعات غير اليهوديّة في فلسطين». فبعد احتلال الحلفاء لفلسطين بخلال الحرب العالميّة الأولى، أصبح الباب مفتوحاً على مصراعيه أمام المشروع اليهوديّ. وقد غدا خطاب بلفور هذا «وعداً» بعد قبوله في مؤتمر سان ريمو سنة ١٩٢٠، وتحوّله إلى برنامج للسياسة البريطانيّة في فلسطين، خاصّة بعد أن أقرّ مجلس عصبة الأمم في ٢٤ تموز (يوليو) ١٩٢٢ إنتداب بريطانية على فلسطين، فأخذت المنظّمة الصهيونيّة تنظّم الهجرة اليهوديّة وتُقيم المستعمرات واضعة بذلك أسس الوطن القوميّ. وتدلّ

---

١ ـ أحمد سوسه، ص ٧٢٤

٢ ـ سياسي إنكليزي عاش (١٨٤٨ ـ ١٩٣٠) رئيس وزراء بريطانية (١٩٠٢) وزير الخارجيّة (١٩١٧)

الأرقام المُستقاة من الأمم المتّحدة على أنّه بين العام ١٩١٩ والعام ١٩٢٨ زاد عدد اليهود في فلسطين ٧٧ ألفاً و ٧٥١ نسمة. ويتّضح من دراسة التبدّلات الديموغرافيّة التي حصلت في فلسطين بين بداية سنة ١٩١٩ ونهاية ١٩٢٨، أنّ الهجرة اليهوديّة إلى فلسطين كانت على ازدياد مستمرّ حتّى سنة ١٩٢٥، وقد بلغت في هذا العام ٣٣ ألفاً و ٨٠١ مهاجر. ثمّ تدنّت بعد ذلك فهبط معدّلها السنويّ في ١٩٢٦ و ١٩٢٧ و ١٩٢٨، حتّى إنّه في ١٩٢٧ زاد عدد اليهود المهاجرين من فلسطين على عدد المهاجرين إليها، فخسر مشروع الوطن القوميّ اليهوديّ في ذلك العام ٢٣٥٨ شخصاً من المقيمين. تفسير ذلك أنّ الهجرة اليهوديّة تدّفقت على فلسطين قبل ١٩٢٥ تدفّقاً لا يتناسب مع قدرة البلاد على استيعاب السكّان الجدد، ممّا أحدث أزمة إقتصاديّة شديدة في السنوات الثلاث التالية. وبلغ عدد العمّال العاطلين عن العمل في ١٩٢٧ ثمانية آلاف وأربعماية وأربعين عاملاً يهوديّاً، وألفاً وستماية عامل عربيّ. فتوقّف سيل الهجرة، ونزح عن فلسطين عدد كبير من اليهود بلغ مجموعه ١٢ ألفاً و ٤٣٦ شخصاً في عامين. واضطرت المؤسسات اليهوديّة والحكومة المنتدبة إلى تقديم المساعدات الماليّة للمتاجر والمصانع والعاطلين عن العمل. وكان أكثر المهاجرين في تلك الحقبة إلى فلسطين، من يهود أوروّبة الشرقيّة ومن أميركا ومن البلاد العربيّة[١].

قبل ذلك التاريخ، كان قد تكوّن في الجيش البريطانيّ فرقة يهوديّة تُقاتل إلى جانب الحلفاء، شكّلت نواة الجيش الإسرائيليّ العتيد، وسيصبح علَم هذه الفرقة العسكريّة اليهوديّة علَم دولة إسرائيل بعد نشوئها.

لم تكن هذه الفرقة العسكريّة القوّة اليهوديّة الوحيدة التي تجهّز بها اليهود القادمون إلى فلسطين، إذ لن يطول الوقت حتى يظهر أنّ هناك منظّمة سرّيّة، أو أكثر، كانت قد دُرّبت على القتال وجُهّزت بالأسلحة والذخائر.

---

١ - راجع: صابر طعيمة، التاريخ اليهوديّ العام، ص ٢٣٧ ـ ٢٣٩؛ وللمؤلف نفسه: الصهيونيّة في التاريخ، مكتبه القاهرة الحديثة. (القاهرة ١٩٦٧).

ففي ربيع ١٩٢٠، كانت البداية المتوقّعة: إضطرابات دامية بين اليهود والعرب في مدينة القدس بمناسبة مهرجان موسم النبيّ موسى. أدّت تلك الاضطرابات إلى مقتل سبعة يهود وجرح مائتين، وقُتل من العرب خمسة وجرح خمسة وعشرون. وقد برزت في هذه الاضطرابات التي كانت مقدّمة لسواها، منظّمة عسكريّة يهوديّة اسمها «الهاجناه». وبخلال التحقيقات التي سارعت الحكومة البريطانيّة إلى إجرائها بعد الاضطرابات، تبيّن أنّه كان لليهود دائرة استخبارات منظّمة وفعّالة، كما تبيّن أنّ اليهود كانوا قد ألّفوا منظّمة شعارها السرّيّ «التجمّع والاقتحام»، وهي العقيدة اليهوديّة التي وضعها أصلا «أحد هاعام[1]» والتي أخذها عنه هرتزل، والتي تُؤمن بوجوب استعمال العنف للتمكّن من إنشاء دولة إسرائيل. وكان أوّل من حاول تطبيق مبدأ «التجمّع والاقتحام» على ما يبدو، مهاجر يهوديّ اسمه جابوتنسكي، حوكم من قبل الإنكليز بعد أحداث سنة ١٩٢٠، وقضى قرار المحكمة العسكريّة الإنكليزيّة بحبس جابوتنسكي خمسة عشر عاماً، ثم خُفّض الحكم بعد مدّة قليلة إلى سنتين، ثم عُفي عنه.

إثر اضطرابات ١٩٢٠، وأمام تعاظم النقمة العربيّة على بريطانية داخل فلسطين وخارجها، قامت الحكومة البريطانيّة في حزيران (يونيو) ١٩٢٢ بإصدار ما عُرف «بالكتاب الأبيض»، وقد قضى هذا الكتاب بتقييد هجرة اليهود وشرائهم الأراضي، ودعا إلى النظر في إقامة دولة فلسطينيّة يشترك بالحكم فيها العرب واليهود[2].

على الصعيد العربيّ الفلسطينيّ، كان للكتاب الأبيض البريطانيّ فعل المخدّر، وقد زاد في قوّة ذلك الفعل ملاحظتهم أنّ الهجرة اليهوديّة قد ضعفت إلى حدّ

---

١ - «أحد هاعام» عبارة عبريّة معناها «أحد أبناء الشعب» وهو الاسم القلمي الذي اتّخذه أشرغنزبرغ، الذي يُنسب إليه وضع ما يُسمّى بـ «بروتوكولات حكماء صهيون»

٢ - جواد بولس، التحوّلات الكبيرة في تاريخ الشرق الأدنى منذ الاسلام، دار عوّاد (بيروت) ص ٣٨٦

بعيد، وأصبح عدد اليهود الذين يغادرون فلسطين يكاد يضاهي، أو يفوق، عدد الوافدين إليها، لذلك خفّت الاضطرابات بعد سنة ١٩٢٠ و ١٩٢١، واستمرّ الوضع هادئاً حتى سنة ١٩٢٩، وهي السّنة التي نشطت فيها الهجرة اليهوديّة إلى فلسطين من جديد، فبلغت سنتها ٥ آلاف و ٢٤٩ يهوديّاً. وهنا تجدّدت الاضطرابات، فنشبت فتنة في الثالث والعشرين من آب (أغسطس) ١٩٢٩ كانت بدايتها في القدس، سرعان ما امتدّت الى سائر مدن فلسطين الكبرى وقراها والمستعمرات اليهوديّة فيها، فقُتل وجُرح المئات، وانتُهكت حرمة المعابد، ودُمّرت ثروات مادّيّة ضخمة. وكانت شرارة تلك الأحداث قد انطلقت في ٢٤ أيلول (سبتمبر) ١٩٢٨، من سبب دينيّ بحت، فكان له من الخطورة ما كان.

ذلك اليوم، كان عيد الغفران عند اليهود، وقد توافدت جماعات منهم إلى القدس لزيارة «حائط المبكى» الذي هو آخر أثر من هيكل سليمان، وقد نُصب عليه ستار يفصل بين الرّجال والنساء.

جاء البوليس البريطانيّ، ونزع هذا الستار الفاصل بالقوّة باسم المحافظة على حقوق المسلمين، ذلك أنّ «حائط المبكى» اليهوديّ، هو نفسه «حائط البراق» عند المسلمين، إذ يعتقدون أنّ محمّداً في ليلة الإسراء، عرّج على السماء من الصخرة القائمة في وسطه، وأن البراق رُبط في تلك الليلة في الغرفة التي يدخل بعضها في وسط الحائط الغربيّ، لذلك يدعون هذا الحائط «حائط البراق». وبما أنّ المسلمين يملكون الحرم الشريف والمسجدَين الموجودين فيه (مسجد قبّة الصخرة والمسجد الأقصى) فهم يعتبرون أنّهم يملكون الحائط الغربيّ منذ ألف وثلاثمائة سنة، لا يُستثنى منها إلاّ العهد الصليبيّ.

حادثة «الحائط المقدّس» هذه، أقامت دنيا اليهود في العالم، ودنيا الإسلام في البلاد العربيّة. ولم ينفع «الكتاب الأبيض» البريطانيّ الثاني الذي دعا اليهود والمسلمين إلى عقد اتّفاق فيما بينهم حول «الحائط المقدّس» في تهدئة الوضع. وبعد حرب كلاميّة ساخنة دامت أكثر من عام، صادف وقوع عيد الغفران عند

اليهود سنة ١٩٢٩ في ١٥ آب (أغسطس)، وعيد المولد النبويّ عند المسلمين في ١٦ منه، وبين اليومين تحدّيات وتجمّعات واستعدادات. وحصلت حوادث فرديّة بين ١٧ و ٢٠ آب (أغسطس)، قُتل بخلالها بعض الأفراد الذين جاءت جنازاتهم صاخبة. وهكذا استمرّ التفاقم، حتّى غدت الاضطرابات خطيرة. وقبل حلول نهاية شهر آب (أغسطس)، كان قد سقط ١٣٣ قتيلاً و ٣٣٩ جريحاً من اليهود، و١١٦ قتيلاً و ٢٣٢ جريحاً من العرب. واعتبر الانتداب البريطانيّ أنّ تلك الاضطرابات التي طالت حيفةَ ويافةَ وتلّ أبيب، ودُمّرت بخلالها ستّ مستعمرات يهوديّة تدميراً كاملاً، ودُنّست فيها قبور الصحابة المسلمين في القدس، اعتبرها ... عفويّة، بعد تحقيقات استمرّت شهرين من قِبل لجنة بريطانيّة خاصة عيّنها اللورد باسفيلد الوزير البريطانيّ للمستعمرات. وقد أوصت اللجنة بالحدّ من الهجرة اليهوديّة «فالبلاد لا تستطيع أن تُعيل عدداً من المزارعين يزيد على من فيها إلاّ إذا تغيّرت أساليب الزراعة المتّبعة تغيّراً أساسياً». وهذا ما أكّده تقرير السيد جون هوب سمبسون الذي أوفدته الحكومة البريّطانيّة إلى فلسطين في ٢٠ أيّار (مايو) ١٩٣٠ «لوضع تقرير علميّ وافٍ عن إمكانات البلاد الاقتصاديّة لاستيعاب الهجرة ولتحقيق مشاريع العمران والإسكان». إلاّ أنّ الحكومة البريطانيّة رفضت أن تُعدّل أيّ تفصيل في ما يتعلّق بالهجرة اليهوديّة والأراضي ومؤسسات الحكم الذاتيّ، وفي كلّ ما يتعارض مع التعهّدات التي قبلت بها بموجب صكّ الانتداب. وبقيت الحكومة البريطانيّة على موقفها بخلال المفاوضات التي قام بها وفد اللجنة العربية إلى لندن في سنة ١٩٣٠ المؤلّف من السادة: جمال الحسيني، موسى كاظم باشا الحسيني، الحاج أمين الحسيني، راغب النشاشيبي، ألفرد روك، وعوني عبد الهادي. وكان هذا الوفد الفلسطينيّ، الرابع من الوفود الفلسطينيّة إلى بريطانية التي فشلت جميعها في تحقيق أيّ نجاح. ولكنّ الحكومة البريطانيّة، لجأت إلى أسلوبها المعهود في معالجة الوضع في فلسطين، فأصدرت في تشرين الأوّل (أوكتوبر) ١٩٣٠ كتاباً أبيض آخر، يعلن تمسّكها ببنود الانتداب، ويؤكّد على مضمون الكتاب الأبيض الأوّل، ويتعهّد بتسهيل بناء الوطن القوميّ، وبالمحافظة على حقوق الطوائف غير

اليهوديّة، على أن تُنظّم الهجرة على أساس الاستيعاب الاقتصاديّ، وعلى أن تؤخذ بعين الاعتبار عندما تُقاس مقدرة الاستيعاب هذه، حالة العمّال العرب واليهود معاً. وأعلن الكتاب الأبيض البريطانيّ «رفْض الحكومة البريطانيّة مناقشة المقترحات حول تعديل الدستور إذا كانت هذه المقترحات منافية لأحكام صكّ الانتداب، وصكّ الانتداب يحتّم على الحكومة المنتدَبة جعل البلاد في أحوال سياسيّة وإداريّة واقتصاديّة تكفل إنشاء الوطن القوميّ اليهوديّ[1]».

لا يسع الباحث في عمق الموقف البريطانيّ الرسميّ من قضيّة فلسطين يومذاك، إلاّ الاستنتاج بأنّ بريطانية كانت تهدف إلى تقسيم فلسطين، بين وطن قوميّ يهوديّ، ودولة عربيّة. بينما كان الكتاب الأبيض الأوّل الصادر سنة ١٩٢٢ قد دعا إلى النظر في إقامة دولة فلسطينيّة «يشترك في الحكم فيها العرب واليهود». وهذا ما جعل اليهود يرفضون مضمون الكتاب الأبيض الجديد، خاصّةً وإنّه أورد فقرات خاصّة بالمهاجرة، ورد فيها «أنّه من الضروري منع التهريب على الحدود، وتشديد المراقبة على المهاجرين، وإبعاد من يتلاعب منهم بالقوانين، واتّخاذ التدابير اللاّزمة لمنع من لم يحصلوا إلاّ على إجازة مؤقّتة للإقامة في فلسطين من البقاء فيها بعد انقضاء مدّة إجازتهم، وتخفيف تدخّل منظّمة العمّال في تنظيم الهجرة اليهوديّة». ويُختتم الفصل الخاص بالهجرة بالفقرة التالية: «تفرض المادّة السادسة من صكّ الانتداب عدم إلحاق حيف أو ضرر بحقوق سائر طوائف الأهالي ومراكزها من جرّاء الهجرة اليهوديّة. فمن الواضح أنّه إذا كانت هجرة اليهود تسبّب حرمان السكّان العرب من الحصول على الأشغال الضروريّة لمعيشتهم، أو إذا كانت حالة البطالة بين اليهود تؤثّر في مركز العمّال على العموم، تَحتَّم على الدولة المنتدَبة، توفيقاً لأحكام صكّ الانتداب، إمّا أن تخفّض المهاجرة، أو أن توقفها، إذا استدعت الضرورة ذلك، ريثما يتسنّى للعاطلين عن العمل من الطبقات الأخرى إيجاد عمل لهم[2]».

---

١ - نجيب صدقة، قضيّة فلسطين، دار الكتاب (بيروت ١٩٤٦) ص ١٤١ ـ ١٤٢

٢ - المرجع السابق، ص ١٤٤ ـ ١٤٥

كانت ردّة الفعل اليهوديّة على «الكتاب الأبيض» الذي أصدرته الحكومة البريطانيّة سنة ١٩٣٩ عنيفة. فاعتبر اليهود أنّ ما جاء فيه مناقض لما جاء في صكّ الانتداب البريطانيّ على فلسطين، وتحلّلٌ من بنوده وموادّه، وخاصّة المادّتين الرابعة والسادسة من صكّ الانتداب اللتين تضمّنتا ما عُرف بوعد بلفور. وسارعت الصهيونيّة إلى نقل نقطة الثقل في نشاطها من لندن إلى نيويورك، حيث انعقد المؤتمر الصهيونيّ في فندق بلتمور، واتّخذ عدّة قرارات منها: «إنشاء كومنولث يهوديّ في فلسطين فوراً كجزء من العالم الديموقراطيّ الجديد». ورفض المؤتمر مضمون الكتاب الأبيض البريطانيّ، وطالب بهجرة غير محدودة لمن يشاء من يهود العالم الاستيطان في فلسطين تحت رقابة الوكالة اليهوديّة لشؤون الهجرة والاستقرار. ومن أهمّ مقرّرات ذلك المؤتمر: تأليف قوّة يهوديّة تقاتل تحت علم خاص، ومطالبة العالم بالاعتراف بها قوّة شرعيّة.

في الوقت نفسه، وجّهت المنظّمة الصهيونيّة نشاطها إلى حزب العمّال البريطانيّ، حيث نجحت أخيراً في إقناع قادته بمعارضة مضمون الكتاب الأبيض الذي صدر سنة ١٩٣٩، إلاّ أنّ هذا الأمر تطلّب أربع سنوات، أعلن على أثرها حزب العمّال موقفاً مناهضاً لمضمون كتاب الحكومة. وقد ساعد على هذا الموقف الذي صدر سنة ١٩٤٣ ما تعرّض له اليهود من مذابح على يد النازيّين، ممّا جعل حزب العمّال البريطانيّ يعتبر أنّ «فترة الانتهاء من الحرب قد أوضحت مأساة اليهود الكبرى، وهي في كونهم أضعف شعوب العالم، لأنّهم بلا وطن، ولأنّهم أقلّيّة في كلّ مكان، ولقد كان اليهود هدفاً سهلاً لعدوان الرجعيّة والفاشستيّة ... ولابدّ من دعم النموّ المطرّد للوطن القوميّ اليهوديّ في فلسطين بالهجرة والاستيطان والمساعدات الدوليّة، وبالسماح للشعب اليهوديّ بأن يستغلّ للحدّ الأقصى مدى قدرة فلسطين الاقتصاديّة لاستيعاب المهاجرين الجدد». وتناول مؤتمر حزب العمّال البريطانيّ مسألة الكتاب الأبيض «مؤكّداً على تأييده للالتزامات الخاصّة بموجب تصريح بلفور والانتداب، آملاً بالتخلّي عن سياسة الكتاب الأبيض وما جاء فيه[1]».

---

١ - راجع: صابر طعيمة، التاريخ اليهودي العام، ص ٢٤٢ - ٢٤٣

وفي غمرة النقمة اليهوديّة على الكتاب الأبيض البريطانيّ سنة ١٩٣٩، كان الزعيم الفعليّ للحركة الصهيونيّة منذ موت تيودور هرتزل: الدكتور حاييم وايزمن، قد استقال من المناصب التي كان يشغلها في لندن ونيويورك، كذلك فعل زعماء الصهيونيّة الكبار في الدولتين، «معلنين أنّ التعاون مع بريطانية العظمى أصبح أمراً مستحيلاً بعد صدور الكتاب الأبيض».

أحدثت هذه الاستقالات ضجّة كبرى في الصحافة البريطانيّة، مما استدعى صدور عدد كبير من التصريحات السياسيّة عن كبار ساسة لندن وواشنطن، رافقتها تظاهرات شعبيّة في أكثر عواصم العالم الغربيّ، كان أهمّها تلك التي جرت في نيويورك، وخطب فيها الزعيمان الصهيونيّان: فرنكفورتر ووايزمن، مصرّحَين بأنّ «الكتاب الأبيض لطخة عار على الشرف البريطانيّ» ممّا أدّى في النهاية إلى تراجع الحكومة البريطانيّة عن موقفها، عبر كتاب، يدعوه العرب «الكتاب الأسود» وجّهه رئيس الوزراء البريطانيّ إلى الدكتور وايزمن في ١٣ شباط (فبراير) ١٩٣١، جاء فيه: «إنّ الالتزام القائل بوجوب تسهيل الهجرة اليهوديّة وتشجيع حشد اليهود في أراضي البلاد يبقى التزاماً إيجابيّاً من التزامات الانتداب[١]».

بعد كتاب ماكدونالد إلى وايزمن، عاد تدفّق الهجرة اليهوديّة إلى فلسطين، فحاول العرب الردّ بمؤتمر إسلاميّ عامّ عقدوه في ٧ كانون الاوّل (ديسمبر) ١٩٣١ برئاسة الحاجّ أمين الحسينيّ، وقد تمثّلت فيه ٢٢ دولة عربيّة وإسلاميّة، إضافة إلى الصين وجاوا وروسية والقفقاز ويوغوسلاقية، فامتزجت فيه السّياسة بالدين، وطلع بمقرّرات تقضي «بمقاطعة جميع المصنوعات الصهيونيّة». وحاول المسلمون السير على درب اليهود في هذا المضمار، فقرّروا «تأسيس شركة زراعيّة كبرى في فلسطين يشترك فيها العالم الإسلاميّ، تكون غايتها إنقاذ أراضي المسلمين في فلسطين...» وسوى ذلك من المقرّرات التي بقيت حبراً على ورق.

---

١ ـ نجيب صدقة، ص ١٥٠ ـ ١٥١

كذلك عُقدت مؤتمرات للشباب العربيّ، ولحركات الأحزاب العربيّة، لم ينتج منها سوى المقرّرات، حتّى كانت سنة ١٩٣٣ وما رافقها من اضطهاد النازيّة لليهود، وتدفّق الهجرة اليهوديّة الكثيفة، فدخل فلسطين في أقلّ من سنة زهاء عشرة آلاف يهوديّ بموافقة الانتداب البريطانيّ، ممّا أثار حفيظة العرب، فدبّت الاضطرابات في البلاد تظاهرات وأعمال شغب من قبل هؤلاء، مقابل قمع من قبل الانتداب البريطانيّ، فقتل بخلال ذلك مئات الشبّان العرب.

في هذا الوقت، كان عدد كبير من العرب يبيع أراضيه لليهود الذين دخل منهم إلى فلسطين زهاء ١٦٠ ألفاً بعد تقرير سمبسون. وفي ٢٥ كانون الثاني (يناير) ١٩٣٥ أصدر مفتو المسلمين في فلسطين وقضاتهم فتوى دينيّة بخلال مؤتمر تنادوا إلى عقده في القدس، حرّمت بيع الأراضي لليهود، واعتبرت البائع والسمسار والوسيط مارقين من الدين، محرومين من الدفن في مقابر المسلمين، تجب محاربتهم والتشهير بهم. إلاّ أنّ الفاقة والفقر حالا دون تحقيق هذه الفتوى غايتها، رغم أن المؤتمرين قد جدّدوا فتاويهم بخلال المؤتمر الإسلاميّ الثاني المنعقد في القدس في ١٤ شباط (فبراير) ١٩٣٦.

الثورة العربية وتقسيم فلسطين

بحلول الخامس عشر من نيسان (إپريل) ١٩٣٦، كانت الأجواء في فلسطين قد تهيّأت للانفجار، إثر التحضيرات اليهوديّة طوال ثمانية عشر عاماً على الأرض، للقيام بما لا بدّ من القيام به من أجل إقامة الدولة العبريّة بعد مرور حوالى عشرين قرناً على خراب أورشليم، يقابلها، عند العرب من أهل فلسطين، تحضير للمواجهة التي بدا أنّه لن يكون مفرّ منها. وبدت فلسطين كبرميل بارود، ينتظر الشرارة.

وكانت الشرارة في ذلك اليوم، عندما اعترضت عصابة مسلّحة قافلة من السيّارات وسلبت ركّابها العرب واليهود، وسط إطلاق نار أُصيب بنتيجته يهوديّان قُتل أحدهما.

هذه الشرارة، كانت إيذاناً بتعاقب الأحداث الدامية. ولم يكن تدخُّل بوليس الانتداب لقمع التظاهرات العربيّة إثر قيام اليهود بقتل قرويّين عربيَّين انتقاماً، إلاّ ليزيد في الغليان، خاصّة بعد أن قتل البوليس البريطانيّ في ٢٠ نيسان (إپريل) عربيَّين وجرح اثنين وثلاثين، فقتل العرب خمسة يهود وجرحوا ستة وعشرين. وكان مسرح تلك الأحداث مدينة يافة. ومنها امتدّ الاضطراب العربيّ إلى سائر فلسطين، وقد عقب ذلك عصيان مدنيّ، فثورة علنيّة مسلّحة، «ساهمت في القيام بها وفي تغذيتها جميع طبقات الشعب الفلسطينيّ من فلاّحين وعمّال وتجّار ومثقّفين، ومدّها بالرّجال والمال والأسلحة جميع الأقطار العربيّة المجاورة[1] ».

إستمرّت هذه الثورة ثلاث سنوات، شهدت بخلالها فلسطين أعمال تخريب شملت نسف الجسور، وقلب القطارات، وقطع خطوط الهاتف، وإحراق بيوت اليهود ومتاجرهم ومصانعهم إضافة إلى بعض أراضيهم المزروعة، ومهاجمة أنابيب النفط وقطعها وإضرام النار فيها، ومهاجمة الثكن العسكريّة وقوافل الجيش البريطانيّ والاشتباك معها في المناطق الجبليّة البعيدة عن الإمدادات البريطانيّة الكثيفة. وفي ١٦ حزيران (يونيو)، أقدم الجيش البريطانيّ على نسف أحياء بكاملها من مدينة يافة بالديناميت، بعد إنذار أهلها بواسطة مناشير ألقتها الطائرات، تدعوهم إلى إخلاء منازلهم فوراً. ويبدو أنّ تلك الأحياء كانت ملجأً للثوّار العرب[2].

في ٢٩ تموز (يوليو) ١٩٣٦ أعلنت الحكومة البريطانيّة عن تشكيل لجنة ملكيّة برئاسة اللورد بيل للتحقيق في أحداث فلسطين، بغية رفع التوصيات إلى الحكومة البريطانيّة بشأن أمن فلسطين. ولقد كانت توصية «تقسيم فلسطين» التوصية الأبرز في تقرير تلك اللجنة. واقترحت تلك التوصية بأن تُقسَّم فلسطين إلى ثلاث مناطق: دولة يهوديّة، دولة عربيّة، ومنطقة انتداب بريطانيّ دائم.

---

١ - المرجع السابق، ص ١٨٢

٢ - راجع: Gert Winsch, le Régime Anglais en Palestine, (Berlin, 1939) PP. 25 - 89

أمّا الدولة اليهوديّة، فتمتدّ على الساحل من حدود لبنان إلى جنوبيّ يافة، وتشمل عكّة وحيفة وصفد وطبريّة والناصرة وتل أبيب. وترتبط هذه الدولة، بحسب التوصية، بمعاهدة صداقة وتحالف مع بريطانية.

أمّا الأماكن المقدّسة ومنطقة القدس وبيت لحم، إضافة إلى ممرّ يصل هاتين البلدتين بيافة مروراً باللدّ والرملة، فتكون تحت الانتداب البريطانيّ الدائم.

وتنضَمّ الأراضي الفلسطينيّة الأخرى، بما فيها يافة، إلى شرقيّ الأردنّ، وترتبط بمعاهدة صداقة وتحالف مع الدولة البريطانيّة.

ونصّت التوصية على أن تقرَّر في كلّ من الدولتين العربيّة واليهوديّة ضمانات لحماية الأقلّيّات. وعلى أن يُنقل اليهود المقيمون في المنطقة العربيّة إلى الدولة اليهوديّة، ويُنقل العرب المقيمون في الدولة اليهوديّة إلى الدولة العربيّة بشكل تدريجيّ، وتُهيّأ لهم أراض في منطقة بئر السبع بعد تحقيق مشاريع الريّ، على أن تدفع الدولة اليهوديّة مساعدة ماليّة للدولة العربيّة، التي تمنحها أيضاً بريطانية مليوني جنيه إسترليني.

وفي ٢٧ تموز (يوليو) ١٩٣٧ أعلنت الحكومة البريطانيّة عن موافقتها على مضمون توصيات اللجنة الملكيّة. وسرعان ما وافقت عصبة الأمم على مشروع التقسيم في اجتماع ١٦ أيلول (سبتمبر) من السنة نفسها، رغم رفض اليهود والعرب على السواء للمشروع. فعادت الاضطرابات إلى فلسطين من جديد أشرس ممّا كانت عليه. وعادت المؤتمرات العربيّة للانعقاد وإصدار البيانات، بينما راح اليهود يسعون مع الحكومة البريطانيّة من أجل تعديل قرار التقسيم بشكل يتلاءم مع مصلحتهم. فاجتمع الدكتور وايزمن في ١٩ تموز (يوليو)، أي بعد اثني عشر يوماً من تاريخ إذاعة تقرير «بيل» الداعي للتقسيم، بوزير المستعمرات البريطانيّة، مُطالباً بأن يُضمّ إلى الدولة اليهوديّة الأحياء اليهوديّة في القدس، والمراكز الرئيسيّة لشركات الكهرباء والبوتاس، وسوى ذلك من التعديلات لمصلحة اليهود. وبدا أنّ البريطانيّين قد قبلوا يومها بإجراء هذه التعديلات، غير

أنّ تفاقم الثورة العربيّة في فلسطين وما تخلّلها من أعمال عسكريّة وتخريبيّة كبيرة، دفع البريطانيّين إلى إصدار كتاب أبيض جديد في ٧ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٣٨، أعلنت من خلاله الحكومة البريطانيّة عن إلغاء مشروع التقسيم.

في ٧ شباط (فبراير) ١٩٣٩ افتُتح في لندن المؤتمر الشهير الذي دعا إليه البريطانيّون، العربَ واليهود، لإيجاد صيغة حلٍّ للمشكلة الفلسطينيّة، وكانت الوفود العربيّة ممثّلة لكلّ من مصر والمملكة السعوديّة والعراق واليمن وشرقيّ الأردن إضافة إلى فلسطين، وكان الوفد اليهوديّ مؤلّفاً من: وايزمن، وبن غوريون، وبرودوفسكي، وشرتوك، وغولدمان وسواهم. أمّا الوفد البريطانيّ فكان مؤلّفاً من: تشمبرلن، وهاليفاكس، ومكدونلد، وبتلر. وكان على البريطانيّين في البداية العمل على معالجة الخلافات بين الوفود العربيّة نفسها قبل معالجة الخلاف اليهوديّ العربيّ. وعلى أيّ حال، فإنّ هذا المؤتمر قد فشل تماماً. وكذلك فشل الكتاب الأبيض الذي أصدرته الحكومة البريطانيّة في ١٧ أيّار (مايو) ١٩٣٩ وطرحت من خلاله مشروعاً جديداً لحل مشكلة فلسطين، عنوانه: «لا دولة يهوديّة ولا دولة عربيّة في فلسطين بل دولة فلسطينيّة» فاعتبر اليهود هذا المشروع ضربة قاضية، وأعتبره العرب غير محقّق لمطالبهم المشروعة.

وسط هذه الأحوال، وقعت الحرب العالميّة الثانية، ممّا جعل الحكومة البريطانيّة برئاسة تشرشل تنصرف عن الاهتمام بموضوع فلسطين، فحوّل اليهود معظم جهودهم إلى الولايات المتحدة الأميركيّة، وعملت دعايتهم طوال عامَي ١٩٤١ - ١٩٤٢ على استغلال سخط الأميركيّين على النازيّين والفاشيست، وعرفت الدعاية اليهوديّة كيف تكسب تأييد الرأي العام الاميركيّ ومعاضدته على اختلاف طبقات الشعب وأحزابه وانتماءاته. وبرزت في أميركا دعوة صاخبة إلى وجوب إنشاء وطن قوميّ لليهود في فلسطين. وفي الذكرى الخامسة والعشرين لإعلان وعد بلفور، وتحديداً في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٢، رفع ٦٢ عضواً من مجلس

الشيوخ، و١٨١ عضواً من مجلس النوّاب، و ١٦ عضواً من أعضاء لجنة الشؤون الخارجيّة، مذكّرة إلى الكونغرس الأميركيّ تطالبه بالدعم الحثيث لليهود، فإنّ «الأسباب التي دعت الشعب الأميركيّ والحكومة الأميركيّة إلى تشجيع الوطن القوميّ اليهوديّ في فلسطين منذ ٢٥ سنة لا تزال قائمة. والواقع أنّ الحاجة إلى تأسيس الوطن القوميّ في فلسطين هي أقوى اليوم منها منذ ٢٥ سنة. إنّ ملايين من اليهود المطارَدين، الذين لا مأوى لهم في أوروبّة، على استعداد للعمل المتواصل من أجل إعادة بناء حياتهم من جديد في وطن أسلافهم حين تحين ساعة الخلاص... وعلى هذا، فإنّنا نتّخذ من ذكرى وعد بلفور الخامسة والعشرين سبيلاً للإعراب عن استمرار اهتمامنا وتعضيدنا لهذا الوعد وللغاية والمبادئ التي أعطي من أجلها... وتجاه سياسة النازيّ الرامية إلى إفناء اليهود كشعب، فنحن نعلم أنّه حين تنتهي الحرب، سوف يكون هدف العالم المتمدّن أن يصحّح هذا الخطأ القاسي، وأن يمهّد للجماهير اليهوديّة التي ستظلّ على قيد الحياة في أوروبّة، سبل إعادة بناء حياتهم في فلسطين حيثُ يتمكّن الشعب اليهوديّ من أن يقيم لنفسه من جديد مكانة تتساوى في الكرامة مع مكانة أيّ شعب آخر في العالم[١]».

منذ ذلك التاريخ، بدأ النهج السياسيّ الأميركيّ الصهيونيّ الذي سيطبّق على الشرق الأوسط في شكل سياسة أميركيّة ثابتة. وكانت أولى خطوات ذلك النهج، أن عقد اليهود في أيلول (سبتمبر) ١٩٤٣ مؤتمراً لهم في بلتيمور، قبيل الانتخابات الأميركيّة الرئاسيّة، حيث طالبوا، للمرّة الأولى بشكل صريح، بـ «الدولة اليهوديّة». وقد جاءت تلك المُطالبة لتعني في حينها أنّ اليهود في أميركا، وعددهم يقرب من خمسة ملايين معظمهم يتمتّع بمركز ماليّ واجتماعيّ ممتاز يستطيع من خلاله التأثير في مجرى الانتخابات، سيناصرون الحزب الذي يرحّب بمطالبهم ويتعهّد بتقديم مساعدته لتحقيقها. وبالفعل، فقد صرّح الرئيس روزفلت بالمساعدة على إقامة دولة يهوديّة في فلسطين مُستعملاً كلمة «كومنولث» بدل

١ ـ راجع: نجيب صدقة، ص ٢٥٩ ـ ٢٦٠

دولة. ثمّ حذا حذوه مرشّح الحزب الجمهوريّ، وقد برّ ترومان في وعده لليهود، وبعد تسنّمه سدّة الرئاسة الأميركيّة خلفاً لروزفلت، طلب رسميّاً إلى الحكومة البريطانيّة عبر كتاب مؤرّخ في ٢١ آب (أغسطس) ١٩٤٥ فتح أبواب فلسطين لمائة ألف يهوديّ من الذين «لا يرغبون في الإقامة حيث هم مقيمون، أو لا يرغبون، لسبب من الأسباب، في أن يعودوا إلى أوطانهم الأولى» وطلب «إجلاء أكبر عدد ممكن من اليهود الذين لا وطن لهم في الحال، ونقلهم إلى فلسطين إذا رغبوا في ذلك[١]».

نشوء الدولة العبرية

كانت الحالة الأمنيّة في فلسطين بخلال الحرب العالميّة الثانية قد تردّت إلى حدّ كبير، خاصّةً بعد أن لجأ اليهود إلى إنشاء منظّمات تخريبيّة لتقوم بأعمال عنف وإرهاب في مواجهة الأعمال التي كانت المنظّمات الفلسطينيّة تمارسها في الدّاخل. وقد بلغت أعمال العنف ذروتها سنة ١٩٤٧، ممّا اضطر بريطانية، وهي الدولة المنتدَبة على فلسطين، إلى أن تطلب انعقاد الجمعيّة العامّة للأمم المتّحدة للنظر في موضوع فلسطين.

بانتقال الصّراع إلى الجمعيّة الدوليّة، رجحت كفّة الغلبة اليهوديّة بشكل واضح. ذلك أنّ العرب لا يملكون تأثيراً يُذكر في المجال الدوليّ، بينما المنظّمة اليهوديّة كانت قد عملت بشكل فذّ على استقطاب التأييد الدوليّ لقضيّة اليهود، مُستفيدة من كلّ ظرف عالميّ، وبشكل خاص، ممّا تعرّض له اليهود من اضطهاد على أيدي النازيّين.

بعد مناقشات طويلة في منظّمة الأمم المتّحدة، توصّلت الجمعيّة إلى إقرار مشروع يقضي بتقسيم فلسطين تقسيماً كان في مصلحة اليهود أكثر من أيّ

١ ـ المرجع السابق، ص ٢٧٥

مشروع آخر سبق تقديمه. وكانت بريطانية قد فقدت السيطرة على زمام الموقف، تاركة الأمور رهن مشيئة الولايات المتّحدة الأميركيّة التي ثبّتت المواقف الصهيونيّة. وفي ١٤ شباط (فبراير) ١٩٤٧ أعلن المستر بيفن في مجلس العموم أنّ بريطانية فقدت كلّ أمل بالوصول إلى حلّ سلميّ للقضيّة الفلسطينيّة[١]. ولقد كان القرار البريطانيّ مفاجأة مذهلة شلّت مواقف الوفود في الأمم المتّحدة، ذلك أنّ جلاء القوّات البريطانيّة عن فلسطين، يعني وضع البلاد في فراغ مخيف وسط شعبين مُتحاربين. وهكذا وجد العرب أنفسهم مُحرَجين وحيدين في المعركة، لا يقف إلى جانبهم سوى ممثّلي الدول الإسلاميّة والهند. ولم تنفع محاولاتهم في حمل بريطانية على تأجيل الانسحاب لسنة واحدة[٢].

وهكذا، ففي ٢٧ تشرين الثاني (نوڤمبر) ١٩٤٧، أقرّت الأمم المتحدة توصية اللجنة الخاصّة بشأن تقسيم فلسطين إلى ثلاثة أجزاء: دولة يهوديّة، ودولة عربيّة، أمّا الجزء الثالث الذي يشتمل على الأماكن المقدّسة فيبقى تحت إشراف الأمم المتّحدة[٣]. وتشمل المنطقة العربيّة، بموجب هذا التقسيم «الجليل العربيّ من أرض فلسطين» ولواء نابلس، والسهل الساحليّ الممتدّ من قرية أشدود حتى حدود مصر، ولواء الخليل وجبل القدس وغور الأردنّ الجنوبيّ، وتبلغ مساحة هذه المنطقة ١٢ ألف كيلومتر مربّع، يقطنها ٦٦١ ألف نسمة، منهم ١١ ألف يهوديّ، و٦٥٠ ألف عربيّ؛ ويملك اليهود فيها مائة ألف دنم، بينما يملك العرب ما تبقّى من أراضيها. وتشمل المنطقة اليهوديّة، الجليل الشرقيّ، ومرج إبن عامر، والقسم الأوسط، والسهل الساحليّ، ومنطقة النقب، وتبلغ مساحة هذه المنطقة ١٤ ألفاً و٢٠٠ كيلومتر مربّع، يقطنها ٩٩١ ألف نسمة، منهم ٤٩٦ ألفاً من اليهود، و٤٩٥ ألفاً من العرب؛ ويملك العرب ثلثي مجموع مساحة أراضي هذه المنطقة. أمّا المنطقة الدوليّة فتشمل مدينة القدس، وقد نصّ القرار على إقامة نظام دوليّ خاصّ بها،

---

١ - أنيا فرنكوس، الفلسطينيّون، مكتبة أنطوان، دار النهار للنشر، (بيروت ١٩٦٩) ص ٥١
٢ - صابر طعيمة، التاريخ اليهوديّ العام، ص ٢٤٨ - ٢٤٩
٣ - أنيا فرنكوس، ص ٥٤

تتولّى الأمم المتّحدة الإشراف عليه عن طريق مجلس وصاية تابع لها، على أن تمتدّ هذه المنطقة من شمال قرية شعفاط شمالاً، إلى جنوب بيت لحم وبيت ساحور جنوباً، ومن شرق العبريّة شرقاً، إلى غرب عين مكارم ودير ياسين غرباً. ويتضمّن هذا التقسيم طريقة الحكم في المنطقة وأهدافه، وإجراءات الأمن، والزيارة الرعويّة، وحماية الأماكن المقدّسة. على أن يستمرّ هذا النظام بصورة أوّليّة مدّة عشر سنوات تعود بعدها الأمم المتّحدة إلى إعادة النظر فيه[1].

وسط رفض العرب لقرار التقسيم هذا، بحجّة أنّه أعطى الدولة اليهوديّة ٥٥ بالمئة من مساحة فلسطين، وأنّ الحكم في الدولة اليهوديّة التي تضمّ حوالى نصف مليون عربيّ، سيحتكره اليهود ... إنسحبت بريطانية في ١٥ أيّار (مايو) ١٩٤٨ من فلسطين، متخلّية عن انتدابها، تاركة الأرض والقرار للقوّة.

فوجئ الفلسطينيّون بانسحاب الإنكليز، لأنّهم كانوا يظنّون أنّ قرار الانسحاب هو مجرّد مناورة، وأنّ بريطانية لن تتركهم يواجهون اليهود وحدهم. أمّا اليهود فقد كان عندهم الخبر اليقين عمّا ينويه الإنكليز، فأعدّوا أنفسهم للاستيلاء على السلطة، وكانوا قد بدأوا في ظلّ الانتداب ممارسة نوع من الاستقلال الذاتيّ في حقول التربية والصحّة والمواصلات والموارد المائيّة والكهربائيّة، فيما العرب لم يكن لهم شيء من كل هذا. وكان اليهود قد أعدّوا أنفسهم لملء فراغ الانسحاب، فأنشأوا قوّات عسكريّة منظّمة: الهاغانا والأرغون والشترن، إضافة إلى قوّات البوليس. وكانت هذه القوّات تضمّ ضبّاطاً يهوداً حاربوا في صفوف الحلفاء، وعناصر أوروبيّة ساهمت في عمليّات المقاومة ضد النازيّين. واستطاعت المنظّمة الصهيونيّة أن تنقل إلى اليهود في فلسطين كمّيّات هائلة من الأسلحة التي غنمها الحلفاء من جيوش المحور.

إشتعلت الاضطرابات الدامية في فلسطين قبل انسحاب الإنكليز، وتفاقمت

---

١ ـ صابر طعمية، التاريخ اليهوديّ العام، ص ٢٤

بعد ذلك الانسحاب، خاصّة إثر دخول طلائع المتطوّعين العرب فلسطين في التاسع من كانون الثاني (يناير) ١٩٤٨، وهم ٣٠٠ متطوّع أقبلوا من سورية إلى لبنان الجنوبيّ ومن هناك دخلوا فلسطين. وفي المدّة التي سبقت الانسحاب البريطانيّ بقليل ورافقته وعقبته، تمكّن اليهود من شنّ هجومات مركّزة على مناطق عربيّة عديدة، هجّروا بخلالها عدداً كبيراً من الفلسطينيّين من مناطق تقع داخل المنطقة التي خصّ قرار التقسيم العرب بها. وقبل أيّار (مايو) ١٩٤٨ طرد اليهود حوالى ٣٠٠ ألف عربيّ من ديارهم في فلسطين، قبل أن تدخل الدول العربيّة الحرب ضدّ اليهود، وقد انتقل هؤلاء في هجرة مأساويّة، إمّا إلى مناطق فلسطينيّة أكثر أمناً، أو إلى البلدان العربيّة المجاورة. وإجمالاً، فقد احتلّ اليهود في هذه الحقبة نسبة ٨٠ بالمئة من الأراضي التي يملكها العرب. وقد أجمع المراسلون الذين رافقوا وراقبوا الحرب التي نشبت بين إسرائيل والجيوش العربيّة سنة ١٩٤٨، على أنّ هذه الجيوش كانت تفتقر إلى اللحمة والانسجام، وأنّ ٣٠ ألف عربيّ دخلوا فلسطين ليدافعوا عن سكّانها العرب، وليس لتحرير البلاد. وقد لزمت هذه الجيوش موقفاً دفاعيّاً، حتّى إنّها أَحجمت عن التقدّم حيث كانت تستطيع التقدّم. أمّا اليهود فقد قاتلوا بضراوة طوال أسابيع الحرب الأربعة، وكان جيشهم الناشئ يضمّ أربعين ألف رجل[1]. وكان لخلافات الدول العربيّة أثرها المأساويّ على مصير تلك الحرب التي انتهت إلى تحقيق اليهود لهدفهم بإنشاء الدولة الإسرائيليّة الجديدة.

مع نشوء دولة إسرائيل، التي أوجدت الحلّ لتشرّد اليهود، نشأت مشكلة مماثلة عند شعب آخر: الشعب الفلسطينيّ الذي بات بجزءٍ كبير منه مشرّداً. وبعد ثلاثة أشهر من قيام دولة إسرائيل، أي في ١٥ آب (أغسطس) ١٩٤٨، إقترح الكونت برنادوت، خلال الهدنة الأولى، عودة اللاجئين إلى فلسطين، فردّ «شاريت»، ممثّل إسرائيل في الأمم المتّحدة، بأنّ عودة آلاف العرب من شأنها

---

١ ـ أنيا فرنكوس، ص ٦٢ ـ ٦٥

تهديد كيان الدولة الإسرائيليّة والمساس بحقوقها المُكتسبة. وقبل أن يقضي الكونت برنادوت اغتيالاً على يد إرهابيّين قيل أنّهم يهود، وتحديداً في أيلول (سبتمبر) ١٩٤٨، رفع تقريراً إلى الأمم المتّحدة ضمّنه مقترحات إيجابيّة لحلّ مشكلة اللاجئين ووضع حدّ لمأساتهم، وطالب بجعل صحراء النقب كلّها من نصيب العرب، وكذلك القدس، على أن تتولّى إدارة دوليّة الإشراف على الأماكن المقدّسة. إلاّ أن هذه المقترحات لم تعجب زعماء الحركة الصهيونيّة، فقرّروا استئناف القتال لعلمهم أن الحلّ السياسيّ سيتمّ عاجلاً أم آجلاً على أساس احتفاظ كلّ فريق بما في يده.

وبعد أن حقّق اليهود مكاسب حربيّة، تمكّن مجلس الأمن في ٢٢ تشرين الأوّل (أوكتوبر) من حمل العرب واليهود على الموافقة على وقف لإطلاق النار، على أن ينكفئ كلّ فريق إلى المراكز التي كان يحتلّها في ١٤ تشرين الأوّل (أوكتوبر). وفي ٦ كانون الثاني (يناير) ١٩٤٩ خرجت مصر من الحرب بموافقتها على عقد هدنة مع إسرائيل، وفي ٣ نيسان (إپريل) عقد الأردنّ مع إسرائيل إتّفاقية هدنة أعطت إسرائيل ما مساحته ٢٧٠ كيلومتراً مربّعاً. ووقّع لبنان الهدنة في ٢٣ آذار (مارس) ١٩٤٩. ووقّعتها سورية في ٢٠ تمّوز (يوليو). أمّا العراق فقد بقي خارج اللعبة لعدم وجود حدود مشتركة بينه وبين الدولة العبريّة.

وهكذا، نشأ الوطن اليهوديّ، وعاد اليهود إلى ما يُسمّى بأرض الميعاد، بعد انقضاء حوالى عشرين قرناً على خراب أورشليم اليهوديّة على أيدي الرومان، في واقعة فريدة من نوعها في تاريخ البشريّة. وقد أصبحت الدولة الإسرائيلية الدينيّة اليهوديّة أمراً واقعاً في الشرق الأوسط، وهي الدولة الدينيّة الوحيدة غير الإسلاميّة في العالم، باستثناء الڤاتيكان التي تشكّل دولة رمزيّة للكنيسة الكاثوليكيّة دون شعبها. ويُعدّ هذا التحوّل، الأخير في سيرة الشعب اليهوديّ الطويلة عبر التاريخ في هذا الجزء من العالم، الذي كان مهد الديانات الإبراهيميّة وأرض صراعها.

